كيف نكتب
التاريخ الإسلامي

للشيخ
محمد قطب

دار غرب المتوسط
للنشر والتوزيع

كيف نكتب التاريخ الإسلامي

للشيخ

محمد قطب

حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

[صدق الله العظيم]

(سورة النور: 55)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم أعد أذكر على وجه التحديد متى كتب هذا الكتاب أول مرة!

كل ما أذكره أنه كان مكتوباً منذ خمسة عشر عاماً على الأقل إن لم يكن أكثر![1] وأنه ظل يشار إليه في قائمة كتبي على أنه من "الكتب التالية" ولكن لم يقدر له أن ينشر خلال هذا المدى الطويل، لأنه كان في حاجة إلى مراجعة أخيرة، ولم تتح الفرصة لهذه المراجعة إلا منذ عهد قريب[2].. (وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ)[3].

وحين أعدت قراءته بعد كل هذه السنوات وجدت أن معظم الأفكار الرئيسية في الكتاب لم يتغير موقفي منها، ولكن طريقة التناول قد تغيرت في بعض المواضع فاقتضت إضافة جديدة، أو تركيزاً على بعض الجوانب التي لم تكن قد أبرزت بدرجة كافية في الكتاب الأولى. لذلك آثرت في بعض الفصول أن أعيد كتابتها من جديد، بدلاً من إحداث تعديلات جزئية هنا أو هناك.

كما أني —في خلال السنوات التي مرت بين الكتابة الأولى والكتابة الثانية —كنت قد أصدرت كتابين على الأقل ذَوَيْ صلة مباشرة بموضوع الكتاب، هما "واقعنا المعاصر" و"رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" ففي كلا الكتابين حديث عن فترات من التاريخ الإسلامي قديمه أو حديثه.. فرأيت أن أشير إليهما في هوامش الكتاب حيث يحتاج الأمر إلى الإشارة.

وفي العموم أستطيع أن أقول إن الكتاب يحوي الصورة الأخيرة لتفكيري في موضوع كتابة التاريخ الإسلامي.

* * *

كنت قد قلت في مقدمة الكتاب حين كتبته أول مرة هذه الكلمات:

([1]) نحن الآن في أوائل عام 1412هـ (1991م).

([2]) هناك كتاب آخر ينتظر المراجعة الأخيرة هو "المستشرقون والإسلام" كتب أول مرة في رمضان من عام 1384هـ (يناير سنة 1965) وما زال ينتظر الفرصة المناسبة، أرجو الله أن ييسر ظهوره.

([3]) سورة الرعد: 8.

"لست مؤرخاً.. ولا أستطيع أن أكون!

"فليست لي موهبة المؤرخ، ولا صبره، ولا قدرته على تمحيص الروايات والوقائع لاستخلاص الحقيقة التاريخية من بينها. وما يعلق في ذهني من التاريخ إلا أحداثه الكبرى، أو السطور ذات الدلالة الخاصة في صفحته. ويعنيني –أكثر من أي شيء آخر –أحوال "الإنسان" "وتحولاته".. من إقبال وإدبار.. من تفتح وانغلاق.. من تطور إلى أعلى وانتكاس إلى أسفل.. والتاريخ في حسي هو الإطار العام المحيط بهذا "الإنسان".. ولكني لا أصبر كثيراً على التفرس في دقائق السطور في صفحة التاريخ ويكفيني منه التحولات العامة فيه، التي هي في حقيقتها تحولات "الإنسان".. ".

هكذا كنت قبل خمسة عشر عاماً.. وما زلت بطبيعة الحال!

ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه!

ولكن هذا لم يمنعني في الماضي، ولا يمنعني الآن، من التحدث في موضوع هذا الكتاب..

فلست هنا أقدم تاريخاً للإسلام، وليس من هدفي أن أصنع ذلك. إنما أتحدث عن "منهج" لكتابة التاريخ الإسلامي. والمنهج شيء، والتاريخ بأحداثه ووقائعه وشخوصه شيء آخر.

وصحيح أنه لا يمكن الحديث عن المنهج دون الإشارة إلى بعض وقائع التاريخ على الأقل! نعم! ولكن في الحدود العامة، والخطوط العريضة، لأن المنهج يتعلق بدلائل الحدث أكثر مما يتعلق بتفصيلاته.

* * *

ولقد مرت عليّ فترة من حياتي –وخاصة في أثناء الدراسة الجامعية وما بعدها– كنت فيها شغوفاً بالقراءة في شتى فروع المعرفة، لا يكاد يمر علي يوم دون أن أكون قد قرأت كتاباً صغيراً أو قسماً من كتاب كبير. وكان من بين فروع المعرفة التي أتناولها بالقراءة التاريخ عامة، والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة. ثم إني عملت بعد تخرجي مباشرة أربع سنوات في التعليم في المرحلتين الابتدائية والإعدادية قبل أن أنتقل إلى أعمال في مجالات أخرى وعلى الرغم من أن تخصصي كان في اللغة الانجليزية فقد كانوا يلزموننا في المدارس الابتدائية والإعدادية بتدريس مادة التاريخ كذلك، فدرست للطلاب مادة التاريخ الإسلامي أربع سنوات.

وقد لاحظت في أثناء قراءتي، وفي التدريس كذلك، أن التاريخ الإسلامي لا يقدم بمنهج صحيح، سواء لطلاب العلم أو للقارئ العام. وأن معظم ما نقرؤه في الدراسات الحديثة هو ما قدمه المستشرقون، سواء أكان ذلك بطريق مباشر من كتبهم، أم عن طريق تلاميذهم من "المؤرخين" المسلمين، الذين يتلقون كلامهم كأنه القول الفصل الذي لا يحتمل النقاش! وغني عن البيان أن المستشرقين كانو أنشط ما يكونون –في عملهم التخريبي– في مجال التاريخ الإسلامي[1]!

وأحسست منذ تلك الفترة البعيدة أنه لا بد من إعادة كتابة التاريخ الإسلامي على نسق آخر غير ما يقدمه المستشرقون وتلاميذ المستشرقين!

وظل إحساسي بهذه القضية يتزايد مع مرور الأيام، كلما ازددت اطلاعاً على ما يكتبه "المؤرخون" المحدثون في التاريخ الإسلامي، وكذلك كلما برزت إلى الوجود صيحات مشبوهة، تنادي بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، ولكن من زوايا أخرى، لا تقل تخريباً عما كتبه المستشرقون من قبل.. فمرة من زاوية القومية العربية، ومن مضحكاتها أن صلاح الدين –الكردي– كان يدافع عن القومية العربية، وبطلاً من أبطالها!! ومرة من زاوية الاشتراكية، ومن مضحكاتها أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان قائد ثورة الفقراء ضد الأغنياء! ومرة من زاوية التفسير المادي –أو التفسير الاقتصادي– للتاريخ، ومن مضحكاتها أن الدافع وراء الفتوح الإسلامية كان هو الدافع الاقتصادي، ووراء الحروب الصليبية كذلك، وأن الدين في الحالتين كان ستاراً يستغله المستغلون!!

وكانت كلما مرت مناسبة من هذه المناسبات أزداد اقتناعاً بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من منطلق إسلامي، وبروح إسلامية، لا تتأثر بتلك التيارات المنحرفة والصيحات المشبوهة، التي تريد طمس معالم ذلك التاريخ، وطمس مقوماته الخاصة العلمية" أو "الموضوعية" أو "المنهجية" أو ما شابه ذلك من الشعارات!

* * *

وإني لأشعر جيداً بضخامة هذه المهمة وخطرها، ومدى الجهد اللازم لإنجازها..

إنها أضخم من أن تكون جهد أفراد متفرقين في جيل من أجيال المسلمين، إنما هي في حاجة إلى جهد جماعي منظم تقوم به مؤسسات متخصصة على مدى قد يمتد بضعة

(1) تناولت هذه القضية في كتاب "المستشرقون والإسلام" المشار إليه.

أجيال.. فسجل ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان، حافلة بالأحداث والوقائع والشخصيات، حافلة بالأمجاد الشامخة والبطولات الفذة، كما هي حافلة بالانتكاسات المؤسفة والنكبات المريرة والشخصيات المنحرفة، متداخلة كلها في نسيج واحد.. هذا السجل يضني من يقوم بتمحيصه وإعادة كتابته، ولو احتشدت له الأجيال.

ومع ذلك فلا بد من القيام بهذا العمل الضخم، رغم المشقة البالغة فيه، فإنه ما من أمة تستطيع أن تعيش بلا تاريخ.. تاريخ ممحص محقق، ميسر التناول على جميع المستويات، من الطفل الدارج في أول الطريق، إلى الباحث المتخصص في آخر الطريق..

وفي هذا الكتيب أدلي بدلوي المتواضع في أمر المنهج الذي ينبغي أن تعاد على أساسه كتابة التاريخ الإسلامي. فإن وفقني الله إلى شيء في هذا المجال فهو فضل من الله عظيم، أتوجه إليه سبحانه بالشكر عليه، وإلا فإني أحتسب عند الله نيتي وأرجو من الله التوفيق.

محمد قطب

لماذا نعيد كتابة التاريخ؟

إذا قلنا إن التاريخ البشري –خارج نطاق الأمة الإسلامية– ينبغي أن تعاد كتابته من زاوية الرصد الإسلامية التي تقيس الإنجاز البشري بالمعيار الرباني، أي بمدى تحقيق الإنسان لغاية وجوده التي خلقه الله من أجلها، وهي عبادته وحده سبحانه بالمعنى الشامل للعبادة، الذي يشمل الاعتقاد بوحدانية الله، وتوجيه الشعائر التعبدية له وحده دون شريك، والتقيد بتعليماته في تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض (أي تطبيق الشريعة الربانية)، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني..

إذا قلنا هذا بالنسبة للتاريخ البشري، فلأنه يُقَدّم لنا من زوايا تختلف اختلافاً جذرياً عن زاوية الرصد الإسلامية، ومعيار إنجازاته، فلزم أن نعيد كتابته ليتناسق مع الرؤية الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– فتكون لنا وحدة في التصور تتناسب مع كوننا مسلمين[1]..

أما التاريخ الإسلامي –أي تاريخ الأمة الإسلامية– فعلى أي أساس نقول إنه يجب أن تعاد كتابته؟ ما الهدف من إعادة الكتابة؟ وما العيب فيما هو مكتوب بالفعل؟ ما نواحي التقصير التي نريد أن نستكملها، أو نواحي الانحراف التي تريد أن نتحاشاها حين نعيد كتابة التاريخ؟

الحقيقة أن هناك عدة ملاحظات في أكثر من اتجاه، تجعلنا نلح على ضرورة إعادة كتابة تاريخ الإسلامي.

فإننا إذا نظرنا إلى المصادر الإسلامية القديمة التي كتبها كبار المؤرخين المسلمين نجد فيها ذخيرة ضخمة من الأخبار والوقائع والروايات، تصلح زاداً للباحث المتعمق، ولكنها –بصورتها الراهنة– لا تصلح للقارئ المتعجل الذي يريد أن يجد الخلاصة جاهزة ممحصة سهلة الاستيعاب سهلة الهضم.

لقد كان أولئك المؤرخون يلتزمون الأمانة العلمية الخالصة، فيثبتون كل ما وصل إلى علمهم من معلومات، وإن تعددت الروايات وتناقضت، وإن بعدت عن الاحتمال أحياناً.. فقد رأوا أن الأمانة تقتضي ألا يهملوا شيئاً مما سمعوا، مع نسبته إلى قائله كلما أمكن ذلك.

([1]) قلنا ذلك في كتاب "حول التفسير الإسلامي للتاريخ" وفصلنا الأسباب الداعية إليه، وبينا الأسس التي ترى وجوب كتابة التاريخ البشري بمقتضاها.

واجتهدوا في هذا الأمر، فسعوا إلى تجميع الأخبار من مظانها بقدر ما وسعهم الجهد، ولكنهم تركوا ذلك كله بغير تمحيص، ربما بدافع الأمانة والتقوى، لكيلا يتدخلوا من عند أنفسهم بتغليب خبر على خبر، أو رواية على رواية.

ولقد كانوا يشعرون بما قد يثيره عملهم هذا عند القارئ من حيرة أو دهشة. ولكنهم فضلوا أن يدعوا القارئ مع الروايات المختلفة وجهاً لوجه، على أن يتدخلوا بينه وبينها بنفي أو إثبات أو ترجيح أو تضعيف.

يقول الطبري رحمه الله في مقدمة كتابه: "فما يكن في كتابي هذا من خير ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلِنا، وإنما أُتِيَ من قِبَل ناقليه إلينا، وأننا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدّي إلينا"[1].

ولئن كان في هذه الطريقة من مزية فهي أنها قد حفظت لنا الوقائع كلها، وما ورد فيها من أقوال، فهي من هذه الناحية مصادر ثمينة للباحث المدقق الذي يأخذ على عاتقه مهمة التمحيص. ولكن عيبها بالنسبة للقارئ العادي، وطالب العلم غير المتمرس، أنها تغرقه في خضم من الروايات والوقائع المتضاربة أو المتناقضة أحياناً، لا يعرف لنفسه طريقاً للخلوص منها بنتيجة محددة، ومن ثم لا تحقق له بغيته من قراءة التاريخ ودراسته، فلا هو يملك الصبر ولا المقدرة الفنية التي يستطيع بها أن يمحص الروايات المختلفة ويرجح بعضها على بعض.

وإذا نظرنا من ناحية أخرى إلى معظم المراجع الحديثة المتأثرة بالمنهج الاستشراقي، نجدها مكتوبة في صورة جذابة مغرية بالقراءة! فهي —من ناحية الشكل– مناسبة كل المناسبة للقارئ المعاصر، مبوبة مفهرسة، مثبتة فيها مراجعها. ثم هي من ناحية أخرى توصل القارئ إلى نتيجة محددة، ولا تتركه يغرق في الروايات المتعارضة يضرب فيها بلا دليل.

ولكن عيبها —من الناحية المنهجية– أن أغلبها بعيد عن الأمانة العلمية الواجبة، ملون تلويناً خاصاً لتحقيق هدف معين، تكنّه صدور لا تحب الخير لهذا الدين!

وسواء كانت هذه المراجع من تأليف المستشرقين مباشرة، أو من تأليف تلاميذهم الذين ينقلون عنهم، ويتأثرون بروحهم، ويتبنون دعاواهم، ثم ينتحلونها لأنفسهم ويضعون عليها أسماءهم.. فهي في الحالين صادرة عن أناس لم يتحروا الحقيقة المجردة، بل تجاوزوا ذلك —في

([1]) تاريخ الطبري 1/ 8 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر.

حالة المستشرقين- إلى التشويه المتعمد، الذي يتزيّا بالزي العلمي تمويهاً وزيادة في الكيد؛ أما في حالة الناقلين عنهم، فهي الغفلة التي لا تدرك الأهداف الحقيقية للكيد الاستشراقي، ويسوقها الانبهار إلى حالة من عدم الوعي لا يميزون فيها بين الحق والباطل.

يقول تعالى في شأن أهل الكتاب الذين منهم المستشرقون الذين نأخذ عنهم تاريخنا:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1].

ويقول تعالى مخاطباً المسلمين في شأن الركون إلى هؤلاء، والأخذ عنهم، والاستماع إليهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ، هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ..)[2].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)[3].

(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)[4].

وكونهم لبسوا مسوح العلم، وتظاهروا بالموضوعية والنزاهة العلمية، لا يجوز أن يخدعنا عن حقيقتهم، فالبضاعة التي يتداولونها، ويظلون يُبدئون ويعيدون فيها، هي ذات البضاعة التي تداولها أسلافهم، الذين كلفتهم الكنيسة بالكتابة ضد الإسلام في العصور الوسطى، وشجعتهم عليها، لتشويه صورة الإسلام في نفوس الأوروبيين وتنفيرهم منه، لصد ما يمكن أن نطلق عليه "الغزو الفكري الإسلامي" الذي كان يتوغل في أوروبا قادماً من الأندلس والشمال الأفريقي وصقلية الإسلامية والمشرق العربي وغيرها من البلاد التي يذهب إليها

(1) سورة آل عمران: 71.
(2) سورة آل عمران: 118-119.
(3) سورة آل عمران: 100.
(4) سورة البقرة: 120.

المبتعثون الأوروبيون لطلب العلم في المعاهد الإسلامية، فيعودون وقد ملأهم الإعجاب والتقدير للإسلام والمسلمين، مما أزعج الكنيسة إزعاجاً شديداً فقامت بحملة تشويه ضخمة لإبعاد الإسلام عن أوروبا، أو بالأحرى إبعاد أوروبا عن الإسلام.

فإن كان شيء قد تغير في هذه البضاعة القديمة المعادة، فهو أنها اليوم تستخدم لفتنة المسلمين عن دينهم بعد أن نجحت أول مرة في صد أوروبا عن الإسلام، وربما اقتضى ذلك أن تختفي الشتائم المقذعة التي استخدمت في الجولة الأولى أو تخفف شيئاً ما، مع التظاهر بالموضوية ومنهجية البحث، بل ربما اقتضى الأمر ما هو أخبث من ذلك من دس شيء من الإطراء للإسلام والمسلمين بين الحين والحين، لتخدير القارئ المسلم، وجعله يثق بما يقوله هؤلاء "العلماء النزيهون" "المنهجيون"، فيتناول السم مدسوساً في العسل دون أن يلتفت إليه، بل يتناوله شغوفاً به منبهراً بحلاوته!

والخدعة قديمة أنبأنا بها رب العالمين في كتابه المنزل:

(وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ..)[1].

والهدف كذلك واضح! هو قتل روح الاعتزاز بالإسلام والتاريخ الإسلامي في نفس القارئ المسلم، وتحويل هذا الاعتزاز إلى نوع من النفور والامتعاض، يؤدي بالقارئ في النهاية أن ينفض يده من هذا التاريخ وأصحابه، وأن يصرف النظر عن محاوله استئناف هذا التاريخ من جديد!

وهم في سبيل ذلك لا يتورعون عن الكذب "العلمي!" على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه رضوان الله عليهم، كما قال "فلهوزن" مثلاً في كتابه "الدولة العربية" إن الرسول –صلى الله عليه وسلم– عاهد اليهود وهو ضعيف في أول عهده بالدينة، فلما تقوى نقض عهده معهم [هو الذي نقض العهد!!] وحاربهم وأجلاهم عن المدينة! وكما قال عن أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– إنهما "اغتصبا الخلافة من المسلمين"!! وكما قال مئات غيره ما قالوا من أكاذيب[2].

([1]) سورة آل عمران: 72–73.

([2]) انظر كتاب "المستشرقون والإسلام".

ومن التواءاتهم "العلمية!" التي كثيراً ما يلجأون إليها إساءة تأويل النص —عمداً– لاستخراج دلالات لا يحتملها النص بحال؛ أو إضافة كلمات أو حذف كلمات تجعل النص يؤدي معنى مزوراً لا يمت إلى الأصل بصلة، كما أنهم يستغلون الروايات الضعيفة التي وردت في المصادر الإسلامية دون تمحيص، فيجعلونها هي الأصل، ويهملون الروايات الأخرى وإن تواترت، ثم يزعمون الأمانة العلمية، والنقل عن المصادر الموثوقة![1].

والمؤرخون "المسلمون" الذين ينقلون عن المستشرقين قد يتورعون عن نقل مثل هذه الأكاذيب الفاضحة، ولكنهم لا يسلمون مع ذلك من التأثر بهم، وتقبل شبهاتهم والتواءاتهم دون تمحيص، والتوهم بأن "المنهج العلمي" لا يتحقق إلا بالتشكيك في كل عمل فاضل وصفة فاضلة، وتبني الظنون الفاسدة وإبراز العيوب!!

*   *   *

فإذا كان هذا عيباً خطيراً في كتابات المستشرقين وتلاميذهم يجعل مراجعهم غير صالحة للاستمداد منها، ويجعل إعادة النظر فيما تناولته من وقائع وأحداث ومواقف وتفسيرات وتأويلات أمراً بالغ الأهمية وضرورياً إلى أقصى حد، فليس هذا على أي حال هو العيب الأوحد في الكتابات الحديثة، وخاصة ما يوضع في مناهج الطلاب ومقرراتهم الدراسية، سواء كانوا في المرحلة الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية أو في المرحلة الجامعية، أو حتى في تخصص التاريخ الإسلامي!

هناك عيب رئيسي في تلك المناهج بصفة عامة، هو التركيز على التاريخ السياسي للمسلمين، على حساب بقية مجالات الحياة الإسلامية: العقدية، والفكرية، والحضارية،

([1]) أخرج الدكتور عبد العظيم الديب بحثاً طريفاً نشر في "كتاب الأمة" [رقم 27] الصادر من دولة قطر في ربيع الثاني من عام 1411 هـ بعنوان "المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي" أورد فيه مجموعة من مغالطات المستشرقين وأغاليطهم منها أن "مونتجمري وات" يقول: "ونعلم من الأخبار أن محمداً دافع عن الشغار وهو أن يتبادل رجلان أو جماعتان من الرجال يدون مهر بناتهم وأخواتهم من أجل الزواج، وينسب هذا إلى البخاري!! مع ما هو ثابت لدى جميع المسلمين أنه —صلى اله عليه وسلم– نهى عن زواج الشغار. وأن "ول ديورانت" تناول نصاً يقول: "كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه خراجهم كل يوم، فما يدخل في بيته منها درهماً واحداً يتصدق به جميعه" فحوله هكذا: وكان للزبير بيوت في عدة مدن مختلفة، وكان يمتلك ألف جواد وعشرة آلاف عبد!! فحوله من صورة الزهد والترفع إلى صورة الترف المهلك! وغير ذلك كثير.. كثير!

والعلمية، والاجتماعية.. الخ..الخ.. ومما لا شك فيه أن التاريخ السياسي للمسلمين هو أسوأ ما في تاريخهم كله!.

فبصرف النظر عن المبالغات التي نشأت من الخلافات المذهبية وتلوينها لوقائع التاريخ، ككتابات الشيعة عن تاريخ أهل السنة مثلاً.. فما لا شك فيه أنه قد وقعت انحرافات كثيرة في المجال السياسي عن الخط الإسلامي الأصيل، وأن هذه الانحرافات قد وقعت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام لم يكن ينبغي أن تقع فيه.

ولكن على الرغم من أن هذه الانحرافات حقيقة واقعة (مع إسقاط المبالغات المتعمدة) فإن الاقتصار عليها في عرض التاريخ يعطي صورة غير حقيقية لذلك التاريخ.. صورة مشوهة ممسوخة!

ولا يتبادر إلى الذهن أننا نريد أن نداري على هذه الانحرافات، أو نتلمس المعاذير الواهية لتبريرها، أو نكذب على التاريخ باختلاق وقائع مزورة بدلاً منها! كما كان النازيون في ألمانيا يدرسون لأبنائهم أن الجيش الألماني لم يهزم قط! (وعاشوا حتى رأوا الهزيمة بأعينهم!) وكما يصوغ الإنجليز من أسلافهم من قراصنة البحر أبطالاً تاريخيين يدرسونهم لأبنائهم على أنهم الأبطال الذين أنشأوا ببطولاتهم الخارقة نواة الأسطول البريطاني! وكما يكذب "زعماؤنا" المعاصرون على جماهيرهم، فيصورون الهزيمة المخزية نصراً لم يسبق له مثيل في التاريخ!

كلا! ما ينبغي للمؤرخ المسلم أن يفعل ذلك، وما يتقبل منه..

إن الله أمرنا أن نقول الحق ولو على أنفسنا أو الوالدين والأقربين، وأن نكون شهداء لله قوامين بالقسط: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)[1].

والتاريخ أمانة، وشهادة تؤدّى لله، لا يؤثر على أدائها حب أو كره:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[2].

([1]) سورة النساء: 135.

([2]) سورة المائدة: 8.

فالمؤرخ المسلم إذن مطالب أن يتحرى الحق ويبذل جهده للوصول إليه، دون مداراة على أحد ولا محاباة ولا ظلم، فإن اجتهد وأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر، وهدفه الدائم أن يؤدي الشهادة لله.

نعم.. ولكن ما تفعله المراجع الحالية شيء آخرّ!

ولنفترض جدلاً أن كل ما نسب إلى المنحرفين في المجال السياسي صحيح، ولم تدخل فيه المبالغات الناشئة عن العداوات الحزبية والمذهبية التي يشنّع فيها كل فريق على خصمه بما يشاء، ولا المبالغات الروائية التي جعلت من هارون الرشيد —الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً– بطلاً من أبطال ألف ليلة وليلة! فخلاصة الأمر أن نسلم —جدلاً– بأن التاريخ السياسي للمسلمين كان خطاً أسود! فليكن كذلك! ولكنه خط أسود في صفحة يغلب عليها البياض! فإذا أنت غطيت على بياض الصفحة كله، وأبرزت الخط الأسود وحده، أتكون قد قلت الحقيقة؟ أتكون قد أعطيت صورة صحيحة لهذا التاريخ؟!

وما الأثر الذي يتركه هذا العمل في نفس القارئ؟

أيمكن أن يكون هو ذات الأثر لو أنه اطلع على الصفحة بكاملها، بياضها كله وسوادها كله؟ أم يختلف التأثير حتماً بين هذه الصورة وتلك؟

تلك هي القضية.. وهي قضية خطيرة سواء من الناحية العلمية البحتة، أو من ناحية تأثيرها في النفوس.

فمن الناحية العلمية يصبح هذا التاريخ مزوراً ولو صحت كل كلمة كتبت فيه! لأنه يعطي الأمة حجماً أصغر بكثير من حجمها الحقيقي، ويضع قزماً ضئيلاً في مكان العملاق!

وأما من ناحية التأثير في النفوس فشتان بين أن ترى أمامك كائناً حياً متماسكاً يتحرك حركة الأحياء الأقوياء، وإن كان يتعثر في حركته أحياناً، ويقع أحياناً، ويدمي جسده من أثر الوقوع أحياناً، ولكنه يعود فيقوم ويتحرك، وبين أن ترى مسخاً كسيحاً يختاج في حركته، وكلما مشى خطوات انتكس ووقع على الأرض! الأول تتفاعل معه، وتحب حركته، وتقدر له لحظات ضعفه، ولو أنّبته عليها وزجرته، والثاني تعافه نفسك وتنفر منه!

والتأثير الثاني هو المقصود!

لا زلت أذكر المنهج الدنلوبي في مصر!

حين اشتكى المنصرون من "اللورد كرومر" –المعتمد البريطاني في مصر– زاعمين أنه يضيق عليهم في عملية التنصير، جمعهم وقال لهم: هل تتصورون أنني يمكن أن أقف في طريقكم؟! ولكنكم تستخدمون وسائل خاطئة فتخطفون الرجال والأطفال وتنصرونهم قسراً، فينشأ عن ذلك ردود فعل عند المسلمين يزيدهم تمسكاً بالإسلام! ولكني اتفقت مع شاب تخرج حديثاً في كلية اللاهوت بلندن (Trinity College) ليتولى وضع منهج تعليمي سيحقق لكم كل رغباتكم!

وكان هذا هو المستر "دنلوب"، الذي عينه كرومر مستشاراً لوزارة المعارف المصرية، فوضع مناهجه الخبيثة التي ما تزال روحها تعمل حتى هذه اللحظة. وكان من أخبث ما اشتملت عليه، مناهج التاريخ (إلى جانب ما فعل بدرس اللغة العربية ودرس الدين)[1]، وكان السم الذي وضعه في تلك المناهج هو التركيز على التاريخ السياسي للمسلمين –بعد فترة البعثة وصدر الإسلام– وتجريد التاريخ الإسلامي من محتواه الشامل، وحصره في النزاعات السياسية، وسعي كل حاكم إلى التوسع على حساب جيرانه، وما صحب ذلك من مؤامرات القتل والاغتيال ودس السم والفتك بالأعداء السياسيين.. وحين ينتهي المنهج بالطالب عند هذه الصورة الكئيبة، يُفْتح له تاريخ أوروبا صفحة مشرقة حافلة بالنشاط الحضاري والتقدم العلمي والمادي، فيحدث من جراء ذلك إيحاءان مسمومان –مقصودان– الأول إيهام الطالب أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الخلفاء الراشدين، وتحول إلى صراعات سياسية على الحكم، لا غناء فيها للبشرية، ولا تمثل شيئاً يحسن الحرص عليه! والثاني أن التاريخ الذي يستحق الحفاوة والإعجاب حقاً هو تاريخ أوروبا! فيتم بذلك صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وليّ أعناقهم إلى أوروبا، وهو هو الهدف التنصيري الذي عبّر عنه القس زويمر في خطبته الشهيرة في مؤتمر التنصير الذي عقد بالقدس عام 1935م[2]، والذي كان كرومر قد وعد المنصرين بأن دنلوب سيحققه من خلال مناهج التعليم[3].

([1]) راجع إن شئت كتاب"واقعنا المعاصر" فصل آثار الانحراف" المبحث الخاص بالاحتلال البريطاني ودوره في الإفساد ص217-234.

([2]) راجع كتاب "المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام" للشيخ محمد محمود الصراف، دار الاعتصام، القاهرة، ص58-59.

([3]) راجع قضية الغزو الفكري إن شئت في كتاب "واقعنا المعاصر" ص195-324.

والآن فلننظر أين يقع الخطأ –والخطر كذلك- في هذا المنهج الخبيث الذي تضافرت على إرسائه جهود المستشرقين وجهود المستعمرين على حد سواء.

ونسأل أولاً: هل كان في كتب المؤرخين المسلمين الأوائل ما يرشح لهذا التقسيم الذي نتخذه اليوم في مناهجنا، وهو تقسيم التاريخ الإسلامي –بعد عصر البعثة وصدر الإسلام- بحسب الأسر الحاكمة: العصر الأموي –العصر العباسي- العصر المملوكي- العصر العثماني.. إلخ؟

إن الذي يحسه القارئ في كتب المؤرخين الأوائل أنهم كانوا يكتبون عن تاريخ "الأمة الإسلامية" منذ نشأت على يد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- في مكة أولاً ثم في المدينة بعد ذلك، وأنهم في أثناء تتبع تاريخها يتحدثون –حديثاً طبيعياً- عن الحكام الذين تولوا، وعن أحوال الأمة في عهدهم، في مجالات الحياة المختلفة، من سياسة داخلية، وسياسة خارجية، وفتوح ومعارك، وحركة علمية، وحركة حضارية، وأحوال اجتماعية، وأحوال فكرية وأخلاقية وعمرانية.. إلخ.. إلخ.. وهذا هو الوضع الصحيح للتاريخ.

أما تقسيم التاريخ إلى مراحل سياسية، والحديث عن كل مرحلة كأن هناك حدوداً فاصلة في مجرى التاريخ تفصل بين عهد وعهد، وتجعل كل عهد شيئاً قائماً بذاته، فأول ما يلفت النظر من عيوبه –وأخطاره كذلك- أنه يقطع التواصل التاريخي بين أجيال هذه الأمة، كأنما لم تكن أمة واحدة متصلة، وكأنما لم تكن بالذات هي "الأمة الإسلامية".

إن أبرز ما يميز هذه الأمة أنها هي "الأمة الإسلامية"! وأبرز ما يجب أن يميز تاريخها، أنه "تاريخ الأمة الإسلامية"!

إنه بأمجاده وانتكاساته، بارتفاعاته وانخفاضاته، بقممه ووهداته، بمده وجزره، بمكامن القوة فيه ومواضع الضعف، هو تاريخ هذه الأمة بالذات، وليس أي تاريخ لأي بشر على الأرض!

إن هذه الأمة ذات وضع معين في التاريخ.. إنها ليست مجرد أمة من أمم الأرض. إنها أمة الرسالة الخاتمة، التي حمّلت رسالة الرسول الخاتم –صلى الله عليه وسلم- الذي أرسل إلى البشرية كافة، وإلى قيام الساعة، وهي بهذه الصفة خير أمة أخرجت للناس:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[1].

ولكن خيريتها ليست ذاتية، ولا عرقية، ولا قومية..

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)[2].

وكذلك وضعها الخاص بين الأمم مستمد من ذات الأمر:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[3].

ومن ثم تتحقق لها صفة الخيرية طالما كانت قائمة برسالتها، وتزول الصفة عنها كلما فرطت في أداء الرسالة..

وتاريخها هو هذا: أمجادها، وارتفاعاتها، وقممها، وقوتها، هي التي تكون فيها مؤدية لرسالتها، وبالقدر الذي تكون فيه مؤدية للرسالة. وانتكاساتها، وانخفاضاتها، ووهداتها وفترات ضعفها، هي التي تكون فيها ناكلة عن رسالتها، وبالقدر الذي تكون فيه ناكلة عن الرسالة.

وهذا هو الذي يحدد لها معالم تاريخها منذ اللحظة الأولى، وهو الذي يفسر تاريخها كذلك.

إنه ليس تاريخ الدولة الأموية، أو الدولة العباسية، أو دولة المماليك، أو الدولة العثمانية.. إنما هو دائماً تاريخ "الأمة الإسلامية". ومعياره الدائم –في أي حقبة من حقبه– هو هذا المعيار: هل كانت الأمة قائمة برسالتها، وعلى أي نحو كان ذلك، وعلى أي مستوى؟ أم كانت مجافية لرسالتها، متقاعسة عنها، ناكلة عن مقتضياتها، وعلى أي نحو كان ذلك، وعلى أي مستوى!

وحين ندرس تاريخ الأمة على هذا النحو، تتضح لنا جوانب كثيرة من الصورة، تغيب عنا حين لا تتخذ هذا المنهج.. وبالذات حين نتبع المنهج الذي يقسم التاريخ إلى تاريخ الأسر الحاكمة..

([1]) سورة آل عمران: 110.

([2])سورة آل عمران: 110.

([3]) سورة البقرة: 143.

فمن ناحية ندرك سر اختلاف درجات الإضاءة في صفحة التاريخ الإسلامي، ما بين الإشراق الشديد أحياناً، والعتامة المظلمة أحياناً أخرى. إنه ليس مجرد ظروف أحاطت بالأمة في وقت معين: ظروف سياسية أو حربية أو اقتصادية.. أو ما شابه ذلك مما يفسر به التاريخ!

إن منبع النور واحد.. العقيدة الصحيحة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وتختلف درجات الإضاءة في صفحة التاريخ بمقدار استمداد أهل كل فترة من فتراته من ذلك المنبع الأصيل، ومدى قيامهم بما تقتضيه العقيدة الصحيحة من تكاليف في عالم الواقع. فتشتد الإضاءة حتى تتوهج حين يكون استمدادهم على أتمه، وتخبو حين يضعف الاستمداد، وتظلم الصفحة تماماً حين تنقطع صلة الناس بمصدر النور.

ورؤية تاريخ الأمة على هذا النحو يصحح كثيراً من المفاهيم المغلوطة التي تُتَداول في التاريخ.

فقد تعودنا خلال دراستنا للتاريخ أن نرد الأمر كله إلى الظروف السياسية والحربية والاقتصادية.. إلخ، كأنه أمر بشري بحت، وأرضي بحت، لا دخل فيه للسنن الربانية التي يجري من خلالها قدر الله في هذا الكون. كما تعودنا –بفعل الغزو الفكري– أن نغفل الخصوصية التي قدّرها الله لهذه الأمة بالذات.

فإذا كانت الظروف السياسية والحربية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية.. إلخ هي التي تقرر مصاير الأمم في الأرض، فليس ذلك لأن هذه الظروف لها –في ذاتها– قوة الحسم والفصل، كما تُخَيَّلُ إلينا مناهج التأريخ الجاهلية، ولكن لأن سنة الله في الأمم الجاهلية أن يكلها إلى الأسباب التي تتخذها، وتجعلها أنداداً من دون الله:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)[1].

أي ينالون من النتائج بقدر ما يبذلون من الجهد.

بل قد يزيدهم الله نجاحاً وتمكيناً كلما أمعنوا في البعد عنه، والركون إلى الأسباب الأرضية:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ..)[1].

(1) سورة هود: 15.

وكل ذلك إلى حين، وعلى حساب نصيبهم في الآخرة:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[2].

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[3].

أما قدر الله للأمة المسلمة فمختلف. ولهذه الأمة خصوصية في قدر الله..

وليست الخصوصية أن ينصرها الله ويمكن لها في الأرض دون أن تتخذ الأسباب كما توهمت الأمة في عهودها الأخيرة!

كلا! فهذا مخالف للسنن العامة التي أجراها الله في حياة البشر جميعاً، مؤمنهم وكافرهم على السواء.. وفي كتاب الله نصوص صريحة تلزم هذه الأمة باتخاذ الأسباب:

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ..)[4].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[5].

(هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ...)[6].

ولكن الخصوصية هي أن الله لا ينصر هذه الأمة إلا حين تتخذ الأسباب من خلال توكلها على الله، أي من خلال العقيدة الصحيحة.. أي من خلال توجهها إلى الله واستمساكها بدينه. وهي خصوصية متناسبة مع التكليف الضخم الذي كلفته هذه الأمة، وأنها أمة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

([1]) سورة الأنعام: 44.

([2]) سورة الأنعام: 44-45.

([3]) سورة هود: 15-16.

([4]) سورة الأنفال: 60.

([5]) سورة محمد: 7.

([6]) سورة الأنفال: 62-63.

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ)[1].

(وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[2].

فالأسباب الأرضية وحدها –التي يكل الله الجاهليين إليها، وينصرهم بها ويمكن لهم في الأرض بمقدار ما يجتهدون فيها –لا تصلح وحدها سنداً لهذه الأمة، وأداة للتمكين والنصر ما لم يوثقوا صلتهم بالله؛ وأبرز دليل على ذلك هزيمة المسلمين يوم حنين، بينما الأسباب الأرضية كانت في جانبهم، حين غفلوا لحظة عن التوكل الحق على الله، وقالوا: لن نغلب اليوم من قلة! ثم عودة النصر إليهم في نفس المعركة حين عدّلوا موقفهم النفسي ورجعوا إلى الله:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ، ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ)[3].

بينما يبارك الله في الأسباب ويضاعف ثمارها حين يصدق التوكل على الله:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ[4] وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)[5].

(..وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[6].

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)[1].

([1]) سورة آل عمران: 159.

([2]) سورة آل عمران: 160.

([3]) سورة التوبة: 25-26.

([4])كانوا ثلاثة أضعافهم في الحقيقة.

([5]) سورة آل عمران: 13.

([6]) سورة آل عمران: 122-123.

وأبرز دليل على ذلك في تاريخنا المعاصر انتصار المجاهدين الأفغان على أضعاف أضعافهم من العدد والعدة والأسباب الأرضية، التي كان يجب أن تؤدي -في حسابات البشر الأرضية- إلى انتصار الروس!

هذه الخصوصية هي التي تميز تاريخ هذه الأمة عن تاريخ البشر الجاهليين. ومن ثم لا يكفي أن نرد تقلباتها إلى "الظروف" التي نفسر بها تاريخ الأمم الأخرى، وإنما لا بد أن نضع في مقدمة "الأسباب" قربها أو بعدها من الله، وقيامها -أو عدم قيامها- بمقتضيات رسالتها، وهي الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشهادة على كل البشرية..

كذلك حين ندرس تاريخ الأمة على هذا النحو ندرك أسباب الانتكاسة الضخمة التي وقعت فيها الأمة في عصرها الأخير، ونتعرف في الوقت ذاته على طريق الخلاص..

إن التخلف المادي والعلمي والسياسي والحربي والاقتصادي.. إلخ، الذي هو سمة المسلمين في واقعهم المعاصر، ليس هو السبب الأصيل في انتكاستهم المعاصرة، إنما هذه كلها هي أعراض للمرض الأصلي، الذي هو فراغ المسلمين من حقيقة الإسلام، وبعدهم عن الله، وبعدهم عن مقتضيات رسالتهم التي أخرجهم الله من أجلها..

والعمل على علاج التخلف المادي والعلمي والسياسي والحربي والاقتصادي.. إلخ.. -وحده- لن يوصل هذه الأمة إلى شيء، إذا لم تصلح حالها مع الله، وترجع إليه، وتفيء إلى مقتضيات رسالتها..

وتلك حقيقة ضخمة تغيب عنا حين ندرس تاريخ هذه الأمة بعيداً عن إدراك تلك الخصوصية التي قدرها لها الله، وكذلك حين نركز على التاريخ السياسي للمسلمين غافلين عن تاريخهم الإيماني الذي هو مرجع الأمر كله في القديم أو في الحديث سواء.

إن التخلف العلمي والمادي والسياسي والحربي والاقتصادي.. الخ، لم يكن هو الأصل في هذه الأمة، ولم يكن هو سِمَتَها حين كانت مستمسكة بما أمرها الله ورسوله أن تستمسك به:

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ..)[2].

([1]) سورة الأنفال: 17-18.

([2]) سورة الزخرف: 43.

"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي.."[1].

وإنما حدث هذا التخلف –بجميع أنواعه- مصاحباً للتخلف العقيدي في حياة الأمة، وناشئاً عنه[2]. ولا يزوال –بإذن الله- حتى تزول أسبابه التي أوجدته:

"إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ"[3].

وذلك درس تربوي عظيم لهذه الأمة، تفقده حين تفقد دراسة تاريخها على منهج صحيح[4]..

* * *

أمر آخر من أمور الدلالات التاريخية نفتقده حين يغيب عنا المنهج الصحيح لدراسة تاريخ الأمة الإسلامية، هو علاقة أوضاع هذه الأمة –في خصوصيتها التي أخرجها الله من أجلها- بأوضاع البشرية على اتساعها.

إن هذه الأمة –كما أشرنا من قبل- ليست مجرد أمة قابعة في ركن من أركان الأرض، محدودة الأثر في مجرى التاريخ البشري. ذلك أنها أمة التوحيد الكبرى، التي أخرجه الله لتكون شاهدة على كل البشرية:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[5].

فلا قضية التوحيد قضية هامشية كما تحاول الجاهلية المعاصرة أن تجعلها، ولا الأمة التي تحمل التوحيد أمة هامشية كما يوحي –مع الأسف- واقعها المعاصر الذي تعيشه وهي غثاء كغثاء السيل، ويستغله المستغلون في تهوين شأن هذه الأمة، وإلغاء دورها بالنسبة للبشرية.

---

(1) رواه أحمد وأبو داود.

(2) انظر بالتفصيل كتاب "واقعنا المعاصر" فصل "آثار الانحراف" وكتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

(3) سورة الرعد: 11.

(4) سنعاود الحديث عن هذا الموضوع في الفصول الأخيرة من الكتاب.

(5) سورة البقرة: 143.

قضية التوحيد في ميزان الله –وهو الميزان الحق- هي قضية القضايا، ومحور الارتكاز في الوجود البشري كله، من أجلها أرسل الله الرسل، وعليها وبها يتحدد مصير الإنسان في الآخرة، فضلاً عن نوع معيشته في الحياة الدنيا، ومنهجه فيها، أهو المنهج اللائق بالإنسان كما خلقه الله (فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) أم هو منهج الحيوان متطوراً كان أم غير متطور!

ولقد ظلت الجاهلية المعاصرة تزحزح هذه القضية عن مركزها، وتهون من أمرها، حتى جعلتها في الأخير مزاجاً شخصياً، فمن شاء آمن ومن شاء كفر.. من شاء عَبَد الله، ومن شاء عبد ما يحلو له من آلهة الوهم الزائفة، والحياة –في زعم الجاهلية- تمضي في سبيلها قدماً بهذا العابد وذاك على السواء، تحكمه المادة، أو ثورة التكنولوجيا، أو المصالح القومية، أو المصالح الذاتية، أو العقل الجمعي، أو وسائل الإعلام.. ولا يدخل مزاجه الشخصي –سواء اختار الكفر أو الإيمان- في تحديد مساره أو رسم منهج حياته.. كلهم في النهاية سواء، في "القرية الصغيرة" التي تحول إليها العالم بفضل وسائل الاتصال!!

ونوشك نحن –في تأريخنا لأمتنا- متأثرين بهذه التيارات الجاهلية- أن نعالج تاريخنا- بعد فترة صدر الإسلام- لى ذات النسق الغربي، خاصة حين نعرضه على أساس الأسر الحاكمة، متغافلين عن قضية التوحيد وأثرها في تحديد أحوال الأمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأخلاقية!

ومن بين ما نغفله كذلك ونحن نصنع ذلك: الأثر الذي تركته أحوال الأمة الإسلامية في أوضاع البشرية على مدار التاريخ. وقد يكون هذه الأثر واضحاً بالنسبة لفترة المد الإسلامي، وإن كان التعتيم الإعلامي الغربي –في مجال التاريخ خاصة- يحاول التقليل من شأنه، وحصره في حدود معينة، ولكن الذي نريد أن نؤكده هنا أن أوضاع هذه الأمة ذات أثر دائم على أوضاع البشرية، سواء أكانت في حالة المد، حين تكون قائمة برسالتها، أم كانت في حالة الجزر حين نكلت عن أداء رسالتها، وذلك من قدر الله لها، وقدره للشرية كذلك منذ أخرج لها هذه الأمة، وكلفها ما كلفها من تكاليف:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ)[1].

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[1].

([1]) سورة آل عمران: 110.

فأما في فترة المد الإسلامي فيكفي أن نشير هنا إلى ما اعترفت به القلة المنصفة من المؤرخين الأوروبيين من أن أغلب مؤثرات النهضة الأوربية قد استمدت من الإسلام والحضارة الإسلامية[2]. على الرغم من أن أوروبا لم تدخل في الإسلام، بل على الرغم من أنها حاربته أبشع حرب في التاريخ!.

وأما حين نكلت الأمة عن رسالتها، وانحسر المد الإسلامي من جراء ذلك، فقد كان الأثر سلبياً وسيئا على العالم كله، إذ فقدت البشرية النموذج الصحيح الذي يمكن أن تهتدي به، ولم يبق إلا النموذج الجاهلي المنحرف، يستبد بالساحة وحده، ويجرف البشرية كلها إلى الضياع. ويكفي أن نثبت هنا أن سيطرة أوروبا الجاهلية وتضخمها، وتمكنها في الأرض، لم يحدث إلا نتيجة ضعف العالم الإسلامي، فنجم الاستعمار بكل فظائعه وسوآته، واستُعبد الأحرار في مساحة واسعة من الأرض، ونُبذ الدين من كل مجالات الحياة في ظل "العلمانية"، وانتشر الفساد في الأرض.. وإن نثبت كذلك أن بروز اليهود، وسيطرتهم العالمية، كانت إحدى النتائج السيئة التي نجمت عن ضعف العالم الإسلامي، وقيام الثورة الصناعية على قاعدة ربوية مكنت اليهود من جمع المال الحرام، والسيطرة به على الحياة المعاصرة، وإتلاف كل القيم الفاضلة التي يعيش عليها "الإنسان"[3].

وهكذا تثبت الدراسة الواعية للتاريخ أن مصير البشرية كلها قد ارتبط بأحوال هذه الأمة منذ أخرجها الله إلى الوجود، وكلفها أن تحمل الرسالة الخاتمة بعد نبيها –صلى الله عليه وسلم– وأن قيام هذه الأمة برسالتها أو نكولها عنها هو مفرق طريق في حياة البشرية منذ أربعة عشر قرناً، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. بقدر من الله.

* * *

([1]) سورة البقرة: 143.

([2]) اقرأ على سبيل المثال قول "بريفولت" في كتاب "بناء الإنسانية": "ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوروبا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية، عن كتاب "تجنيد الفكر الديني" لمحمد إقبال، ترجمة عباس محمود ص250.

([3]) اقرأ إن شئت "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" من كتاب "رؤية إسلامية لأحول العالم المعاصر" ص186-202.

تلك المعاني كلها، المتعلقة بخصوصية هذه الأمة، ودورها في حياة البشرية، لم يكن المستشرقون من أهل الكتاب ليشيروا إليها بكلمة واحدة وهم يكتبون التاريخ لأنها غُصّة في صدورهم، وقذى في أعينهم.. وهم الذين قال الله فيهم:

(مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1].

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)[2].

(إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا..)[3].

ولا نتوقع نحن منهم بطبيعة الحال أن يرتفعوا على أحقادهم ويعترفوا بالحق. ولكن الذي لا يستساغ منا أن نتابعهم في تجاهل ما تجاهلوه، وإغفال ما أغفلوه من حقائق التاريخ، وهو تاريخنا نحن، والتبعة في تسجيله وإبرازه تقع علينا نحن قبل أن تقع على أحد من العالمين!

* * *

حين نعيد كتابة التاريخ الإسلامي ينبغي أن نوجه انتباهنا إلى بضعة أمور..

إن التاريخ ليس مجرد أقاصيص تحكى، ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث..

إنما يُدْرَسُ التاريخ للعبرة.. ويدرس للتربية.. تربية الأجيال.

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[4].

(..فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[1].

([1]) سورة البقرة: 105.

([2]) سورة البقرة: 109.

([3]) سورة آل عمران: 120.

([4]) سورة يوسف: 111.

وكل أمة من أمم الأرض تعتبر درس التاريخ من دروس التربية للأمة، فتصوغه بحيث يؤدي مهمة تربوية في حياتها.. أما كتاباتنا نحن في عصرنا الحديث هذا فكثير منها كأنه غافل عن هذه المهمة الضخمة، لأنه مكتوب على يد قوم قلوبهم موجهة إلى خارج ذواتهم، بفعل التبعية، وفعل الغزو الفكري، أو موجهة إلى ذواتهم ولكن بميول منحرفة –هي ذاتها من فعل الغزو الفكري– كالوطنية والقومية والعلمانية والاشتراكية والمادية.. إلخ.. إلخ.

إن من بدهيات التوجيه التربوي لدراسة التاريخ الإسلامي أن يخرج أجيالاً مسلمة، تعرف حقيقة دينها، وتستمسك به، وتعمل على إحيائه في نفوسها وفي واقع حياتها..

فهل تؤدي الدراسات المستحدثة في التاريخ الإسلامي هذا الهدف حقاً، وخاصة في دراسة تاريخنا الحديث بالذات[2]؟! أم إنها تشتت ولاء القارئ والدارس بين انتماءات شتى، يخرج منها بغير انتماء حقيقي في نهاية المطاف؟!

ونضرب مثالاً للتوضيح..

يقول أحد المستشرقين في كتاب "الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته"[3]:

(إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لاستخراج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات"!

ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك قول "شاعر النيل" حافظ إبراهيم:

أنا مصـــريّ بنـــاني مـــن بـــنى   هـــرم الـــدهر الـــذي أعيـــا الفنـــا!

ذلك مع أن له شعراً كثيراً في "الإسلاميات"!

([1]) سورة الأعراف: 176 .

([2]) سنتحدث عن هذا الأمر بشيء من التفصيل في الفصول الأخيرة من الكتاب.

([3]) Near East: Culture and Society, edited by T. Cuyler Young

من منشورات "الألف كتاب" –وزارة التعليم العالي– القاهرة.

والمستشرق –الصريح- يكتفي منه بهذا التذبذب بين الفرعونية وبين الإسلام! كما يكتفي من غيره بالتذبذب بين الإسلام والآشورية أو الفينيقية أو البربرية أو الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات!

ولا يتبادر إلى ذهن أحد أننا نقصد بذلك تزوير التاريخ الإسلامي، لإعطاء صورة وضاءة مزورة، لإحداث أثر معين في نفس القارئ –وقد أشرنا إلى هذا من قبل- ولا إلى إغفال عثرات المسلمين وانتكاساتهم وانحرافاتهم، وإبراز الأمجاد والبطولات وحدها، لإحداث ذلك الأثر المعين، فهذا إن صح مع الأطفال الصغار في أول تنشئتهم فإنه لا يصح مع عموم الدارسين، ولا يؤدي العبرة التربوية المقصودة.

إنما يجب كتابة التاريخ بأمانة كاملة –كما أشرنا من قبل- لا تغفل شيئاً من العثرات، ولا تداري على الانحرافات والانتكاسات، بل تبقيها كما حدثت في الواقع، وتستخرج من العبرة التربوية منها كما تستخرجها من الأمجاد والبطولات سواء.

إن التوجيه التربوية المطلوب ليس هو الزهو الفارغ بالأمجاد.. فهذا شأن التوجيهات الوطنية والقومية، وهي توجيهات جاهلية منحرفة، لا تربي "الإنسان الصالح" الذي يهدف الإسلام إلى تربيته.

إنما "الإنسان الصالح" هو الذي يزن الأمور بميزان الله، ويرجع في حكمه على الأمور إلى حكم الله.

وفي الموضوع الذي نحن بصدده –موضوع التاريخ الإسلامي- يكون الدرس التربوي الأكبر، المستفاد من تتبع أحوال هذه الأمة في صعودها وهبوطها، ورفعتها وانتكاسها هو تتبع السنن الربانية من جهة، وأنها لا تحابي أحداً ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحد، وإبراز الحقيقة الرئيسية في حياة هذه الأمة من جهة أخرى: أنها لا تمكّن في الأرض إلا وهي مستمسكة بدينها، عاملة بمقتضيات التكليف الرباني لها، وأنها كلما حادت عن الطريق أصابتها العقوبة الربانية فزال عنها التمكين وأصابتها النكبات.. وأنها من جهة ثالثة لا تبرأ من نكباتها إلا بالعودة الصادقة إلى الله. وأنها حين تعود لا تكون ممكنة في داخل حدودها فحسب، بل تكون في مقام التوجيه والشهادة على كل البشرية.

هذا هو الدرس.. وهو يقتضي الأمانة الكاملة في رصد الأحداث، لا التزييف ولا المداراة.

وإني لأذكر من أيام كنت أقوم بالتدريس في الصفوف الابتدائية والإعدادية أنني كنت أركز تركيزاً شديداً على القيم والمعاني الإسلامية المتمثلة في فترة البعثة والخلفاء الراشدين – بقدر ما يطيق الصغار الذبن كنت أخاطبهم– ثم إذا مررنا بانحراف من انحرافات المسلمين في العهود التالية أسأل الطلاب: لو كان عمر رضي الله عنه في هذا الموقف فماذا كان يفعل؟ فكانت ترتفع الأصابع متحمسة لتدلي بالجواب الصحيح. وكنت أهدف بهذا إلى أمرين في آن واحد، تركيز تصور الطلاب للتصرف الإسلامي الصحيح الذي كان يجب على الحاكم أن يقوم به تنفيذاً لأوامر الله، ثم بيان الخلل الذي وقع في حياة الأمة من جراء مخالفة أوامر الله. فيكون الدرس المقصود هو استصحاب المعيار الإسلامي الصحيح في أثناء استعراض المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية بكل ما حوته من استقامة وانحراف، واستصحاب الصورة الإسلامية الصحيحة حية في النفوس من أجل العمل على استعادتها من جديد، وتحويلها مرة أخرى إلى واقع مشهود، بدلاً من أن تبهت الصورة في نفوس الدارسين، وتصبح ذكرى لعهد مضى ولا يمكن أن يعود!

* * *

في سبيل هذا الهدف التربوي –الذي يتمشى في الوقت ذاته مع الأمانة العلمية الكاملة– علينا أن نبرز جملة من المعاني في تاريخ الأمة الإسلامية، لا نجدها بارزة المعالم في كثير من الدراسات المستحدثة على وجه الخصوص.

(1) أن التوحيد هو النعمة الربانية الكبرى التي أضفاها الله على هذه الأمة، والهدف الأكبر الذي أخرجت هذه الأمة من أجله وكلفت بنشره في الأرض، وهو في الوقت ذاته هدية هذه الأمة الكبرى للبشرية:

(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)[1].

(الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[2].

(1) سورة آل عمران: 164.

(2) سورة إبراهيم: 1.

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1].

وبقدر ما عملت الجاهلية المعاصرة على تهوين أمر العقيدة، وجعلها أمراً شخصياً لا يخص إلا صاحبه، ولا يؤثر إلا في مشاعر صاحبه وتصوراته الخاصة –دون حياته العملية– فعلينا نحن، ونحن نكتب تاريخ الأمة الإسلامية، أن نعطي الموضوع قدره الحقيقي كما هو في ميزان الله، ونبين أهميته الحقيقية في حياة الإنسان، وذلك بأن نبرز الأثر الواقعي للتوحيد في حياة الأمة المسلمة، الذي ميزها عن أمم الأرض، وجعلها بشهادة الله (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) حين كانت قائمة برسالتها.

فلم يكن التوحيد قط كلمة تنطق باللسان فحسب، ولا وجداناً مستسراً في الضمير. إنما هو منهج حياة كامل. فإنه لايتم التوحيد كما أنزله الله وأمر به حتى يعبد الله وحده في الاعتقاد، ويعبد وحده في الشعائر، ويعبد وحده في الشرائع التي تحكم حياة الناس، فيصبح الدين كله لله، ويصبح كل شيء في حياة الإنسان محكوماً بالمنهج الرباني: فكره ومشاعره وتصوراته وسلوكه. أموره السياسية وأموره الاقتصادية وأموره الاجتماعية وأموره الأخلاقية. وتكون هذه هي "العبادة" التي خلق من أجلها الإنسان:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[2].

والتوحيد بهذا المعنى الشامل لا يمكن أن يكون مجرد مزاج شخصي لمعتنقه، لا يحكم واقعه العملي. ولا يمكن أن يكون مسألة شخصية ولا فردية، لأنه منهج حياة أمة بأسرها، ونظام حكم يلزم الناس باتباع ما أنزل الله.

ولا يمكن كذلك أن يكون مجرد قضية داخلية في حياة أمة أمرت أن تنشر هذه العقيدة في الأرض. بل لا بد أن تنشأ عنه في واقع الأرض "حركة" ضخمة تنبثق من ضمير الأمة وتأخذ شكل "جهاد" ماض إلى يوم القيامة، يهدف إلى إزالة الظلمات من الأرض، ودعوة الناس إلى الدخول في النور كما نصت الآية الكريمة من سوؤة إبراهيم.

وهكذا يصبح التوحيد –في دنيا الواقع– أكبر شيء مر بالناس في التاريخ.

---

(1) سورة آل عمران: 104.

(2) سورة الذاريات: 56.

* * *

(2) ويجب أن يتبين من دراسة التاريخ كذلك أن التوحيد هو أكبر حركة لتحرير الإنسان في التاريخ.. ففي حين كانت حركات التحرير الأرضية كلها جزئية في بنيتها، جزئية في نتائجها.. سواء كانت حركة سياسية[1]، أو حركة اجتماعية[2]، أو حركة فكرية[3]، أو حركة فنية[4].. فقد كان الإسلام –وهو التوحيد– حركة تحريرية شاملة للإنسان كله، وللحياة كلها من كل جوانبها، منذ كان تحريراً لضمير الإنسان من الوهم والخرافة، وتحريراً للإنسان من العبودية لشهواته وأهوائه، وتحريراً للبشر من اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً عن طريق التشريع، وإطلاقاً لطاقات الإنسان كلها لتعمل في البناء: بناء "الإنسان الصالح" الذي يعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويجاهد الفساد والظلم والانحراف والهبوط..

* * *

(3) كذلك لا بد أن يتبين من دراسة الواقع التاريخي الإسلامي أن التوحيد أنشأ "أمة".. أمة فريدة في التاريخ في كون تجمعها لم يقم على أساس اللون أو العرق أو اللغة أو أية عصبيات أخرى من العصبيات التي تجمّع الناس في الجاهلية. إنما على أساس العقيدة. وأن هذا –وحده– هو التجمع الصحيح الذي يليق "بالإنسان". وأنه هو التجمع الأدوم. وأنه على الرغم من كل التفتت السياسي الذي أصاب العالم الإسلامي بقى شعور المسلمين بأنهم أمة مستمراً في كيانهم ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً متوالية، حتى مزقها الغزو الفكري في القرن الأخير بالنعرات الوطنية والقومية والتيارات الاجتماعية المستمدة من خارج الإسلام، فأصبحت فرقاً متناثرة تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها..

* * *

(4) ولا بد أن يتبين من الدراسة التاريخية أن حركة الفتح الإسلامي كانت كذلك حركة فريدة في التاريخ، لا تقارن بأي حركة توسعية في تاريخ الأمم الأخرى لاختلافها عنها في الجوهر وفي الهدف وفي الآثار المترتبة عليها.

([1]) كالديمقراطية.

([2]) كالشيوعية.

([3]) كالفلسفات التي توالت في التاريخ.

([4]) ككل الحركات التي سمت نفسها "تجديدية" في الآداب والفنون.

فالحركات "الإمبراطورية" في القديم والحديث كان هدفها التوسع في الأرض وفي السلطان، وكان من ثمرتها استعباد الأقوياء للضعفاء، ونهب خيرات البلاد المفتوحية لحساب الدولة الغازية، وإذلال البشر المغلوبين على أمرهم وإهانة كرامتهم.. مع بقاء الغالب والمغلوب كليهما في ظلمات الجاهلية. وهي حركات لا تختلف كثيراً عن حركات الوحوش في الغاب، إلا في أن الوحوش البشرية لا تستخدم عضلاتها وحدها في صراع الغلبة، وإنما تستعمل عقولها كذلك، سواء في صورة خدع سياسية، أو في صورة استنباط وسائل قتالية مستحدثة للقضاء على المنافسين.

أما حركة التوسع الإسلامية فهي أولاً تكليف رباني لهذه الأمة، وليست هوى ذاتياً ولا شهوة بشرية.

ثم إن هدفها ليس التوسع في الأرض، إنما هدفها –المأمورة به من عند الله– إزالة "الفتنة" التي تفتن البشر عن إلههم الحق، متمثلة في أنظمة جاهلية تعبّد البشر لغير الله في الاعتقاد أو العبادة أو التشريع أو فيها جميعاً، وحكومات جاهلية وجيوش جاهلية تحمي تلك النظم. فإذا أزيلت الفتنة فالناس بعد ذلك أحرار يختارون لأنفسهم ما يريدون: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)[1] وذلك منتهى التكريم للإنسان: ألا يكره على الاعتقاد ولو كان هذا الاعتقاد الصحيح، حتى يصدر ذلك عن ضميره بعد التدبر والاقتناع.

ثم إن ثمار هذه الحركة لم تكن استعباداً للناس بل كانت تحريراً للمستعبدين، ولم تكن تكوين إمبراطوريات وإنما كانت تكوين تلك "الأمة" الفريدة في التاريخ.

* * *

(5) ثم تولدت عن حركة التوحيد الكبرى –منبثقة عنها– حركة علمية وحركة حضارية متميزة في التاريخ..

وفي أثناء المد الإسلامي لم يكن تميّز الحركتين العلمية والحضارية في حجمهما فقط –بالنسبة لزمانهما– وإن كان هذا مما يحسب لهما، ولم يكن في أصالتهما فقط، وإن كان هذا أيضاً مما يحسب لهما. ولكن في انبثاقهما عن التوحيد. وهذا أعظم ما فيهما في حقيقة الأمر. فإن الشمول الذي تميزت به الحركة الحضارية الإسلامية.. الشمول الذي يشمل الروح والمادة بغير طغيان من أحدهما على الآخر.. والشمول الذي تميزت به الحركة العلمية

(1) سورة البقرة: 256.

الإسلامية.. الذي يشمل دراسات واسعة متعمقة في علوم الدين: العقيدة والعبادات والفقه والأصول والقرآن والسنة.. إلخ، ويشمل إلى جانبها كل علوم الدنيا المتاحة يومئذ من طب وفلك ورياضيات وفيزياء وكيمياء جنباً إلى جنب بلا تعارض ولا عداء.. هذا كله كان ثمرة لانبثاق كلتا الحركتين من عقيدة التوحيد الشاملة الكاملة التي أنزلها الله لإصلاح الأرض وترقيتها ودفعها قدماً إلى الأمام، فلم يتعارض فيها العمل للدنيا مع العمل للآخرة، ولم تتعارض مطالب المادة مع مطالب الروح.. في توازن فريد في التاريخ[1].

* * *

هذه المعاني كلها هي المساحات البيض في صفحة التاريخ الإسلامي، التي يطمس عليها التركيز على الخط الأسود وحده في الصفحة، حتى لو سلمنا أنه كان سواداً كله.. وذلك غير صحيح.. فهذا الخط نفسه قد اختلط فيه الأبيض بالأسود على مدار التاريخ، وإن غلب السواد فيه على البياض.

من أجل ذلك كان التركيز على هذه المعاني، وإبراز بياضها وتفردها، ألزم ما يكون عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، حتى لا يستأثر الخط الأسود وحده بالتأثير في نفوس الدارسين كما أراد أعداء هذا الدين وهم يوجهون الكتابات التاريخية بحيث تعطي وهمين تاريخيين لا حقيقة لهما: أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الخلافة الراشدة، وأن التاريخ الإسلامي ليس فيه ما يثير اعتزاز المسلم، بل هو على العكس مدعاة إلى التبرم به والنفور منه.

أما الخط الأسود فيبقى في مكانه، بكل الأمانة العلمية الواجبة على المؤرخ المسلم.. ولكن يبقى في حجمه الطبيعي بالنسبة للصفحة المليئة بالمساحات البيضاء، في فترة المد الإسلامي على أقل تقدير.

أما فترة الانحسار فهي في حاجة إلى التفاتة خاصة عند إعادة كتابة التاريخ.

يجب النظر إليها من الداخل.. من داخل نفوس المسلمين، لا من الظروف الخارجية التي أحاطت بهم..

([1]) انظر إن شئت "لمحات من التاريخ" من كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" ص135-177.

فحين ننظر إليها من جهة الظروف الخارجية نخرج بنتائج خاطئة من جهة —وإن تزيّت بزي البحث "العلمي"– وبتأثيرات نفسية سيئة، كانت مقصودة عند الذين يكتبون لنا تاريخنا لغايات معينة في نفوسهم، ونتابعهم نحن على غير وعي.

الظروف الخارجية كما تعرضها الدراسات التاريخية تتلخص في نهضة أوروبا، وتقدمها نحو القوة والتمكن، وتصديها للسيطرة الإسلامية، وانتزاعها السيطرة تدريجياً من المسلمين حتى انتهت باحتلال العالم الإسلامي وإزالة الدولة العثمانية.. وفي أثناء ذلك كله يظهر تفوق "الحضارة الأوروبية" وجدارتها باحتلال مكانتها، والسيطرة على العالم.

وما نقول إن هذا لم يحدث.. فهو واقع تاريخي مشهود!

ولكن عرضه بهذه الصورة يذهب بالدرس التربوي من جهة، ويعطي —كما أسلفنا– نتائج "علمية" خاطئة، توحي بأن الإسلام قد استنفد أغراضه التاريخية، كما استنفد طاقته الإيجابية، ولم يعد صالحاً لدور جديد يؤديه، وأن أوروبا —بذاتها– أمة حضارية تقدمية إيجابية جديرة بأن تحكم الأرض.. وأن قدر المسلمين أن يرضوا بواقعهم الذي آلوا إليه لأنه "حتمية تاريخية" ويتعلموا أن يعيشوا في داخل الإطار الحضاري الغربي إن أرادوا لأنفسهم الحياة!

ما أبعد الشقة بين هذه الرؤية "الظاهرية" وبين الحقائق الداخلية للأشياء!

إن تخلف المسلمين حقيقة.. ولكن ما علاقتها بالإسلام؟!

لقد تخلف المسلمون عن الإسلام، فكان من جراء ذلك تخلفهم العلمي والمادي والحربي والاقتصادي والسياسي والفكري والأخلاقي حين تحول الإسلام في نفوسهم إلى أسماء بلا مسميات، وشعارات وتقاليد خاوية من الروح.

أما الإسلام فهو منهج دائم لتحرير الناس من الوهم والخرافة، وتحريرهم من العبودية لشهواتهم وأهدافهم، وتحريرهم من عبودية بعضهم لبعض عن طريق التشريع، ولإقامة الحق والعدل في الأرض، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا..

وهو بهذه الصورة لا يبلى، ولا يُسْتَنْفد، ولا يجيء يوم يصبح فيها متخلفاً عن الركب، ولا تسبقه في يوم من الأيام التصورات الجاهلية الفاسدة التي هي —في أي صورة من صورها– استكبار عن عبادة الله، واتخاذ آلهة من دون الله، يكون اسمها العلم، أو الوطن، أو التكنولوجيا، أو "المودة" أو الرأي العام أو "النظام العالمي" أو أي اسم من هذه الأسماء التي يستعبد الناس لها في الأرض من دون الله.

أما المسلمون فهم يتخلفون، حين يتخلون عن حقائق الإسلام وإن تمسكوا بمظاهره وشعاراته وبعض تقاليده. وهنا تدركهم السنة الربانية، فيزول عنهم التمكين في الأرض.

أما أوروبا فيحيط "بنهضتها" عدة حقائق ينبغي أن تكون واضحة للدارس المسلم.

الأولى: أن أغلب مؤثرات هذه النهضة مستمدة من الإسلام، نتيجة الاحتكاك بالمسلمين احتكاكاً سلمياً ثقافياً أو حربياً في الحروب الصليبية.

الثانية: أنها نهضى عرجاء منحرفة بسبب نبذها للدين وبعدها عنه، وأن التفوق العلمي والتكنولوجي الكاسح فيها لا يمكن أن يخفي مخازي الاستعمار، والفساد الخلقي، وتدمير الفطرة البشرية، والجنوح بالبشرية كلها إلى الدمار إذا استمرت في "التقدم" على الخط الذي تسير عليه اليوم، ولم تعد عودة صادقة إلى الله.

الثالثة: أن التمكين لأوروبا اليوم يجري بسنة من سنن الله:

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً)[1].

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)[2].

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)[3].

ولكن هذا التمكين لا يعطي شهادة صلاحية للحضارة الغربية، لأن الله يمكن للمفسدين رغم فسادهم، في الوقت الذي لا يمكّن للمسلمين إلا إذا استقاموا على الطريق.. ومن ثم فإن التمكين للمسلمين يمكن اعتباره شهادة صلاحية لهم –في الفترات التي يمكنون فيها– أما بالنسبة لغير المسلمين فهو جار على السنة الأخرى: سنة التمكين للكفار والفجار والطواغيت وكبار المجرمين، بقدر ما يجتهدون في اتخاذ الأسباب!

الرابعة: أن هذه الحضارة –بشهادة أصحابها– آيلة للسقوط بسبب تركيزها على الجانب المادي وإهمالها عنصر الروح الذي يربطها بالله، ويرفعها من الانتكاس.

([1]) سورة الإسراء: 20.

([2]) سورة هود: 15.

([3]) سورة الأنعام: 44.

وهذه المعاني كلها —سواء بالنسبة لضعف المسلمين وترديهم إلى الهاوية حين نكلوا عن رسالتهم وصاروا غثاء كغثاء السيل، أو بالنسبة للغرب وتمكنه الحالي —تحتاج كما أسلفنا إلى عناية خاصة في معالجتها عند إعادة كتابة التاريخ، لإخراج الأجيال الحاضرة من الفتنة التي تعرّضهم لها الكتابات الموجهة من قبل أعداء هذا الدين.

* * *

أما الجولة الأخيرة من حياة هذه الأمة، التي نطلق عليها اسم "واقعنا المعاصر" فربما كانت أحوج الفترات جميعاً لإعادة كتابتها، لكثرة ما دس فيها من عوامل التشويه، والتوجيهات السامة التي يقصد بها التدمير..

ربما كان أخطر السموم المبثوثة في الكتابات المعاصرة:

أولاً: الإيحاء المسموم الذي أشرنا إليه آنفاً، من أن الإسلام قد استنفد أغراضه واستنفد طاقته، ولم يعد صالحاً لأداء دور جديد للمسلمين أنفسهم، فضلاً عن البشرية "المتحضرة!" التي تجاوزت الإسلام وصارت إلى ما هو أعلى منه!!

ثانياً: أنه لم يكن أمام المسلمين خيار إلا أن يظلوا تحت الحكم الإسلامي في ظل الشريعة والدولة العثمانية، وعندئذ يظلون غارقين في ظلمات الجهل والرجعية والتخلف، أو أن ينبذوا الحكم الإسلامي، ويحتفظوا بالإسلام —إن أرادوا!– عقيدة وعبادة، ويتخذوا الحضارة الغربية العلمانية منهج حياة لهم! وأن المسلمين قد أخذوا بالخيار الثاني لينقذوا أنفسهم من الضياع.. وحسناً فعلوا!!

ثالثاً: تبني التيارات الهدامة الوافدة مع الغزو الفكري، من وطنية وقومية واشتراكية وعلمانية، وتمجيد أصحابها وتصويرهم في صورة الأبطال المصلحين، بقدر ما يحيدون عن الإسلام، بل بقدر ما يحاربون الإسلام!

رابعاً: تصوير الصحوة الإسلامية على أنها الخطر الداهم الذي سيؤدي بالعالم الإسلامي إلى الدمار!!

هذه الجولة تحتاج إلى تصفية علمية تنبذ الخَبَث الذي بثه الغزو الفكري، وتعرض الحقائق موثقة موضّحة بما يعيد للأمة رشدها، ويردها عن الفتنة التي أُوقعت فيها، وتبين في الوقت ذاته دور الأعداء في بث الأغاليط والمغالطات والتشويهات والتحريفات، بغية القضاء على الإسلام، ومنع المسلمين من العودة إليه من أي طريق.. مع بيان أن الصحوة الإسلامية

هي الرد الطبيعي على الأوضاع كلها التي سادت العالم الإسلامي في الفترة الأخيرة، فضلاً عن كونها حاجة بشرية، لرد البشرية كلها عما هي سادرة فيه من الضلال..

* * *

تلك الأمور كلها هي التي تجعلنا نؤمن بضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي من جديد.

وهو جهد شاق كما أشرنا في المقدمة، ولكنه ضروري للأمة إن أرادت فعلاً أن تعود إلى الحياة، وتؤدي دورها الذي أخرجها الله من أجله.. وهي صائرة إلى هذا الدور بإذن الله، والصحوة الحاضرة هي أول الطريق..

وقد أشرنا في هذا الفصل إشارات مجملة إلى عيوب المناهج الحالية، وإلى المنهج المطلوب من أجل التصحيح. وفي الفصول القادمة من الكتاب شيء من التفصيل، لم يقصد به بطبيعة الحال إلى شيء من كتابة التاريخ، ولكنه مزيد من البيان بشأن المنهج الذي نعيد على أساسه كتابة التاريخ.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الجاهلية

كل الدراسات التي تتناول الإسلام تبدأ بالحديث عن الجاهلية السابقة عليه. وهذا أمر طبيعي ومنطقي. فلا بد من دراسة البيئة التي نشأ فيها الإسلام، وردود الفعل التي حدثت تجاه الإسلام في تلك البيئة، والتغير الهائل الذي أحدثه الإسلام فيها.

ولكن معظم الكتب المعاصرة الموجودة في أيدي الدارسيين —وأقصد جميع الدارسين من تلميذ الابتدائية إلى طالب الجامعة المتخصص- لا تعرض الجاهلية عرضاً وافياً وإن أفاضت وفصلت. ذلك أنها تعرض مظاهر الجاهلية أكثر مما تعرض جوهر الجاهلية، كما أنها تعرض الجاهلية العربية كحدث قائم بذاته، لا كظاهرة بشرية عامة في غيبة الإسلام.

وينشأ من ذلك قصور كبير في تصور الجاهلية والإسلام كليهما، يؤثر في نظرة الدارس إلى كثير من الأمور في الماضي والحاضر والمستقبل.

وسواء كان هذا مقصوداً —ونرجح أنه كذلك- أو كان قصوراً حقيقياً في النظرة، فإنه ينبغي على أي حال أن يصحح، لكي نفهم حقيقة الدور التاريخي الذي قام به الإسلام بالنسبة للمسلمين، والذي يمكن أن يؤديه للبشرية كلها على امتداد الزمان.

يقول عمر —رضي الله عنه-: لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية! وهي قولة صادقة واعية حكيمة، صدرت عن بصيرة وخبرة. وقد كان عمر —رضي الله عنه- يتحدث عن تجربته الذاتية، ليصف مدى التحول الهائل الذي حدث في نفسه ونفوس من حوله حين تحولوا من الجاهلية إلى الإسلام. ولكنها قولة تصدق على التاريخ كله وعلى البشر جميعاً.. لا يتبينون حقيقة الإسلام حتى يتبينوا حقيقة الجاهلية..

وقد كانت هناك عبارة تقليدية في المناهج التي وضعها دنلوب تقول: كان العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام، ويئدون البنات، ويشربون الخمر، ويلعبون الميسر، ويقومون بغارات السلب والنهب.. فجاء الإسلام فنهاهم عن ذلك!

ولقد كانت هذه العبارة مقصودة في مخطط القسيس الذي جيء به في عهد الاحتلال الصليبي البريطاني ليضع المناهج التعليمية لمصر الإسلامية، ليبعدها عن حقيقة الإسلام.. ولكنها بقيت من بعده، وانتقلت إلى أكثر من قطر من أقطار العالم الإسلامي، تؤدي في كل مرة دورها الخبيث!

وكان القصد من هذا التصوير القاصر هو الإيحاء بأن الإسلام قد استنفد أغراضه، ولم يعد له دور يؤديه للمسلمين ولا لبقية البشرية!

فحين يلتفت الدارس المسلم حوله، فلن يجد الأصنام الحسية التي كانت الجاهلية العربية تتعبدها (وقد أخفيت عن حسه عبادة الأوثان بمعناها الواسع الذي يشمل الحسّي والمعنوي من المعبودات، كما أخفى عن حسه الدور الذي يمكن أن يؤديه الإسلام مع عبّاد الأصنام الحسية ذاتها في واقع الأرض الحالي، وهم لا يقلون عن نصف البشرية!).

ولن يجد أحداً يئد البنات، بل يجد البنات مدللات، لاهيات لاعبات! ولن يجد غارات السلب والنهب، ففي البلاد حكومات منظمة وشرطة ونيابة وقضاء تحول دون حدوث هذه الغارات. أما الخمر والميسر فلا حيلة فيهما! فقد حرمهما الدين حقاً، ولكن الناس تقع فيهما رغم التحريم! (وهذا إن لم نقل إن "التطور" قد غير النظرة إليهما كما غير النظرة إلى الفاحشة، فأصبحت كلها داخلة في حدود "الحرية الشخصية" التي ليس لأحد أن يتدخل فيها!).

وهكذا يكون الإسلام قد استنفد أغراضه ولم يعد له دور يؤديه!

وعلى غير وعي منا ما زلنا نردد ما أراد لنا دنلوب أن نردده –بصورة أو بأخرى– فيؤدي نفس الأهداف التي قصد إليها!

إنه لا بد لنا أن نعرف الجاهلية على حقيقتها لكي نعرف الإسلام على حقيقته، ونعرف دوره في حياة البشرية. والبحث العلمي المجرد يفرض علينا –حتى لو لم نكن مسلمين– أن نتحرى الدقة في مفاهيمنا وتعريفاتنا، ولا نتقبل التفسيرات المبتورة ولا الدراسة السطحية. فكيف وحياتنا كلها ينبغي أن تكون قائمة على الإسلام ومستمدة منه، ودراستنا للتاريخ الإسلامي هي جزء من واجبنا للتعرف على حقيقة هذا الدين؟!

* * *

استخدم العرب "الجهل" ومشتقاته في معنيين اثنيين، الجهل الذي هو ضد العلم، وهو حالة عقلية، والجهل الذي هو ضد الحلم، وهو حالة نفسية وسلوكية. ولكنهم لم يستخدموا لفظ "الجاهلية" ولم يرد في أشعارهم ولا كلامهم، إنما ورد استخدامه في القرآن الكريم أول مرة في وصف الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام..

ومما ورد في المعنى الثاني في كلام العرب قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلـــنّ أحــــدٌ علينـــا   فنجهـــل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا!

أي نغضب غضباً شديداُ فنقاتل بحمية لا نبالي من أصبنا، ولا نقف عند الضوابط التي تحكم سلوكنا في حال الحلم.

وقول الصمة بن عبد الله القشيري:

بكــت عيــني اليســرى فلمــا زجرتهــا   عــن الجهــل بعــد الحلــم أســبلتا معــاَ!

أي أن الشاعر يشكو من أنه لم يستطع ضبط انفعالاته بالضوابط السلوكية التي يرى أنها من شيم الرجال أمثاله، والتي يعتبر الخروج عليها "جهلاً" أي مخالفة للواجب الذي ينبغي اتباعه، وهو كتمان الأسى واللوعة وعدم الظهور بهما أمام الناس.

إذا كان المعنيان اللذان استخدم العرب فيهما لفظ الجهل هما: الجهل ضد العلم، والجهل ضد الحلم، فإن الجاهلية ومشتقاتها قد وردت في كتاب الله في معنيين كذلك، ولكنهما معنيان اصطلاحيان. والمعنى الاصطلاحي القرآني يدخل في إطار المعنى العام، ولكنه يختص بمعنى معين لا يفهم بذاته من اللفظ إلا باستخدام القرآن له. وبعد أن يكتسب اللفظ معناه الاصطلاحي لا يعود السامع ينصرف ذهنه إلى المعنى اللغوي الذي كان للفظ من قبل –وإن كان المعنى الاصطلاحي داخلاً في المعنى العام كما أسلفنا– إنما ينصرف الذهن مباشرة إلى المعنى الجديد. كلفظ الصلاة والزكاة والإيمان والكفر وغيرها مما ورد في كتاب الله بمعنى معين يخصص المعنى العام.

فالصلاة في اللغة هي الدعاء. ولكن معناها الاصطلاحي في القرآن هو هذه الهيئة المعينة التي يقف فيها المصلي متجهاً إلى الكعبة، يركع ويسجد ويقرأ ويكبر ويسبح.

والزكاة في اللغة هي الطهارة والنماء. ولكن معناها الاصطلاحي في القرآن هو ذلك القدر الذي يخرجه الغني من ماله –بنسبه الشرعية المقررة– ليردّ على الفقراء.

والإيمان في اللغة هو التصديق. ولكن معناه الاصطلاحي في القرآن هو الإيمان بأن الله واحد لا شريك له، وعبادة الله وحده بلا شريك، والتسليم لما جاء من عند الله.. إلى آخر مقتضيات الإيمان المعروفة.

والكفر في اللغة هو التغطية أو الجحد. ولكن معناه الاصطلاحي في القرآن هو إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، أو عدم التسليم بوحدانيته، أو إنكار شيء مما جاء من عند الله..

والجاهلية –وإن لم ترد نصاً في كلام العرب- معناها الجهل الشديد. ولكن معناها الاصطلاحي في القرآن هو إما الجهل بحقيقة الألوهية (وهو الحالة العقلية) وإما اتباع غير ما أنزل الله (وهو الحالة النفسية السلوكية) كما يبدو في هذه الأمثلة من آيات الكتاب المبين:

(1) (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[1].

فالجهل هنا هو الجهل بحقيقة الألوهية، التي دفع بني إسرائيل أن يطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً صنماً محسوساً يرونه ويلمسونه ويتعبدون إليه. ولو علموا أن الله الخالق ليس كمثله شيء، وأنه لا تدركه الأبصار، ما سألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً ينحته بيده!

(2) (..يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ)[2].

يظنون أنه في الإمكان أن يكون لأحد من الأمر شيء مع الله! ولا يدركون أن الله هو الذي يدبر الأمر وحده بلا شريك، وأنه لا يكون من الأمر إلا ما يشاء الله سبحانه. فالجهل هنا متعلق بصفة من صفات الله وهي الهيمنة المطلقة التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه.

(3) (وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[3].

والجهل الذي يحذّر نوح من الوقوع فيه هو سؤاله عن أمر يتعلق بما قدره الله من غرق ولده على الكفر، وقد كان نوح يتوقع أن يكون ولده من الناجين، وهو من أقرب أهله إليه، يدفعه إلى هذا السؤال ما يحسه من اللوعة والأسى على فراق ولده الذي غرق.. فيعلمه ربه أن القرابة ليست قرابة الدم ولكنها قرابة العقيدة. فإذا انفصمت رابطة العقيدة فإن ابنه الذي هو من صلبه لا يعود من أهله، لأنه عمل غير صالح. والجهل المذكور في الآية، الذي يحذّر

([1]) سورة الأعراف: 138.

([2]) سورة آل عمران: 154.

([3]) سورة هود: 45-46.

نوح من الوقوع فيه هو جهل متعلق بشأن من شئون الله، وبصفة من صفات الله سبحانه وتعالى: أنه سبحانه هو الحق، وكل ما يقضي به سبحانه فهو حق.

(4) (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)[1].

فالجهل الذي يخشى يوسف عليه السلام أن يقع فيه هو مخالفة أمر الله، والوقوع فيما حرم الله.

(5) (وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)[2].

ففي الجاهلية كانت النساء يتبرجن مخالفات لأمر الله الذي أمر بعدم إبداء زينة النساء إلا لمحارمهن.

(6) (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[3].

فحكم الجاهلية هو كل حكم غير حكم الله، أي هو اتباع غير ما أنزل الله.

وهكذا حيث وجدنا في القرآن لفظ الجاهلية ومشتقاتها، أو اللفظ المرادف "لا يعلمون"[4] فلن تخرج عن أحد هذين المعنيين الاصطلاحيين: الجهل بحقيقة الألوهية، أو عدم اتباع ما أنزل الله.

وعلى ذلك يتحدد لنا جوهر الجاهلية.. سواء الجاهلية العربية أو أي جاهلية غيرها في التاريخ البشري.

إن الجاهلية ليست محصورة في عبادة الأصنام ووأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وغارات السلب والنهب... إنما هذه كلها كانت "مظاهر" الجاهلية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. أما الجاهلية ذاتها فهي الجوهر الذي تصدر عنه هذه المظاهر، وقد تصدر عنه

([1]) سورة يوسف: 33.

([2]) سورة الأحزاب: 33.

([3]) سورة المائدة: 50.

([4]) يقول تعالى: (كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ) [سورة البقرة: 193].

مظاهر مختلفة تماماً في مكان آخر أو زمان آخر كما حدث بالفعل خلال التاريخ. ولكن الجوهر هو الجوهر في جميع الحالات: الجهل بحقيقة الألوهية واتباع غير ما أنزل الله.

هذا الجوهر هو حالة عقلية تجهل الحق وتتمسك بالخرافة، وحالة نفسية ترفض الاهتداء بهدي الله، ووضع تنظيمي سلوكي يرفض اتباع منهج الله. وهو ظاهرة بشرية تحدث للبشر في أي مكان أو زمان لا يكون الإسلام هو الحاكم في تصورات الناس ومشاعرهم وواقع حياتهم، وليس منحصراً في زمان ولا مكان ولا بيئة ولا وضع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي أو حضاري معين. فكما أن الإسلام يمكن أن يوجد في أي زمان ومكان وبيئة حين يعبد الناس الله حق عبادته ويتبعوا شريعته –كما حدث في واقع الأرض على يدم آدم ونوح والنبيين من بعده– فكذلك الجاهلية يمكن أن توجد في أي زمان أو مكان أو بيئة أو وضع، حين يرفض الناس الاهتداء بهدي الله ويتبعون غير منهج الله. وقد وجدت بالفعل في عصور شتى وأماكن شتى وبيئات شتى، ذكر القرآن منها الجاهلية الفرعونية، وجاهلية قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم تبع وغيرهم، ولكن القرآن لم يذكر كل الجاهليات على سبيل الحصر، كما لم يذكر كل الرسل الذين أرسلوا لتلك الجاهليات على سبيل الحصر، بل قال سبحانه:

(..وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ..)[1].

ولا بد لنا –كما قلنا– أن نبين للدارسين جوهر الجاهلية بوضوح لا غبش فيه، بياناً للحقيقة العلمية أولاً، وتجلية للغموض الذي يغشى أفكار الدارسين حين يظنون أن الجاهلية حالة مفردة وجدت في الجزيرة العربية قبل الإسلام ولو توجد في غيرها.. ولن تعود!

يقول ابن تيمية رحمه الله:

"فإذا تبين ذلك[2] فالناس قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جهّال، وإنما يفعله جاهل. وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهو جاهلية. وتلك كانت الجاهلية العامة...

([1]) سورة النساء: 164.

([2]) أي الشرح الذي شرح به معنى الجاهلية، واشتمالها على التصورات الخاطئة والأعمال المخالفة لما أنزل الله.

"فأما بعد ما بعث الله الرسول –صلى الله عليه وسلم– فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام..

"والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين..."[1].

* * *

ينبغي للدارسين إذن أن يكونوا على بينة من هذه الحقيقة: أن الجاهلية حالة وجدت كثيراً في التاريخ البشري من قبل، في الجزيرة العربية وفي غيرها، وأنها قابلة للعودة حيثما وجدت عناصرها ومقوماتها في أي عصر وفي أي قرن من القرون!

ولا بأس –بل ربما ينبغي من أجل توضيح هذا المعنى وتعميقه– أن ندرس نماذج من الجاهليات البشرية الأخرى غير الجاهلية العربية، كالجاهلية الفرعونية، والهندية، واليونانية، والرومانية، والفارسية، وكلها جاهليات حفظ التاريخ ووقائعها، ولدينا بيانات كافية عنها، على أن نبرز نقطتين هاتين تزيلان الغبش من نفس الدارس وفكره ومشاعره.

الأولى: أن مظاهر الجاهلية تختلف اختلافاً بيناً من بيئة لبيئة ومن عصر لعصر. ولكنها تستوي جميعاً في أنها كلها تجهل حقيقة الألوهية وتتبع غير ما أنزل الله.

والثانية: أن أي جاهلية من جاهليات التاريخ لم تخل من "براعات" بشرية في مختلف نواحي الحياة، ولم تخل من تحقيق بعض الخير للناس. ولكن هذا الخير الجزئي لا يؤتي ثماره الكاملة في حياة الناس، ويضيع أثره في النهاية، بسبب الشر الجوهري الأكبر، وهو رفض الهدي الرباني، واتباع منهج للحياة غير منهج الله. وذلك حتى لا يفتن الدارس بمظاهر التقدم العلمي والعمراني الموجودة في بعض الجاهليات فيظن من أجل ذلك أنها ليست جاهليات! وهذه الفتنة حادثة بالفعل، وبصفة خاصة بالنسبة للجاهلية الفرعونية، والجاهلية اليونانية، والجاهلية الرومانية، وجاهلية القرن العشرين! بسبب أنها تدرس دائماً على أنها "حضارات" ولا يذكر عنها في أي مرة أنها جاهليات! وبسبب التركيز في تلك الدراسات على جانب واحد من حياة الإنسان هو المتعلق بعمارة الأرض، دون التنبيه إلى المهمة الرئيسية للإنسان وهي عبادة الله:

---

(1) من كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية 1369هـ- 1950م مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ص78-79.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[1].

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[2].

وأن عمارة الأرض هي جزء من نشاط الإنسان في الأرض وهدف من أهداف حياته:

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[3].

ولكن المقياس الحقيقي فيها ليس كمية العمران المادي ولا درجته، إنما هو المنهج الذي تقوم عليه هذه العمارة: هل هو المنهج الرباني الذي أنزله الله على أنبيائه، أم هو أهواء البشر وشهواتهم ومطامعهم بعيداً عن منهج الله:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[4].

وأن العمارة في صورتها المادية متاحة للمؤمن والكافر سواء، للمصلح والمفسد سواء:

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً)[5].

ولكن القيمة الحقيقية الباقية في الدنيا واللآخرة هي عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني:

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[6].

وحين ندرس الأمر على هذا النحو نكون في الواقع قد عدّلنا تعديلاً رئيسياً كبيراً في نظرة الدارسين وهم يدرسون التاريخ![1].

([1]) سورة الذاريات: 56.

([2]) سورة الأنعام: 162-163.

([3]) سورة هود: 61.

([4]) سورة الحديد: 25.

([5]) سورة الإسراء: 20.

([6]) سورة الأعراف: 32.

*   *   *

أما بالنسبة لمظاهر الجاهلية في الجزيرة العربية فهي كذلك في حاجة إلى مزيد من التحديد والتوضيح.

إنه لا يكفي أن نذكر عبادة الأصنام ووأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وغارات السلب والنهب. فلئن كانت هذه المظاهر بارزة في الجاهلية العربية فهي ليست وحدها البارزة، وما ينبغي أن نقف عندها ونغفل غيرها من المظاهر.

لقد كان العرب في الجاهلية يمارسون عبوديات شتى.. لغير الله.

فإلى جانب تلك العبودية الواضحة للأصنام، يصلون إليها ويقدمون إليها القرابين، ويتلقون منها –أي من كهنتها0 توجيهات حياتهم فيحلون لهم ويحرّمون بغير ما أنزل الله، فيتبعونهم، وبذلك يمارسون الشرك بصوره جميعاً:

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ)[2].

إلى جانب تلك العبودية الظاهرة كانت هناك ثلاث عبوديات أخرى ذات أثر بعيد في حياتهم: العبودية للقبيلة، والعبودية لعرف البيئة وموروثات الآباء والأجداد، والعبودية للهوى والشهوات:

فالمعنى الذي يشير إليه الشاعر[3]:

وهـــل أنا إلا مـــن غزيـــة، إن غـــوت   غويـــت، وإن ترشـــد غزيـــة أرشـــد!

واضح الدلالة على تلك العبودية للقبيلة، يفنى الفرد في داخلها وتذوب شخصيته. وقد كانت أقسى عقوبة توقع على فرد من الأفراد أن تخلعه قبيلته، فيصبح "خليعاً" ضائعاً لا وجود له ولا كيان!

([1]) راجع إن شئت كتاب "حول التفسير الإسلامي للتاريخ".

([2]) سورة النحل: 35.

([3]) هو دريد بن الصمة.

كذلك كان الخضوع لعرف البيئة –الذي هو موروث الآباء والأجداد– عبودية حقيقية تقف في حسهم مساوية ومقابلة للعبودية لله، بل ترجح في واقع حياتهم عبوديتهم لله:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ)[1].

أما الهوى والشهوات فهي إله يعبد في الحقيقة في كل جاهلية، وليست الجاهلية العربية بدعاً في هذا الأمر:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)[2].

تلك العبوديات الأربع: العبودية للأصنام، والعبودية للقبيلة، والعبودية لعرف الآباء والأجداد، والعبودية للهوى والشهوات، كلها جديرة بالإبراز والتوضيح، وليست العبودية للأصنام وحدها هي الجديرة بذلك، لأن التركيز عليها وحدها لا يعطي صورة حقيقية عن الجاهلية العربية حتى من حيث مظاهرها، فضلاً عن الجوهر الكامن وراءها.

* * *

ويجب كذلك ونحن ندرس الجاهلية العربية –ومثلها في هذا كثير من جاهليات التاريخ– أن نوضح أثر عدم الإيمان باليوم الآخر في حياة الناس.

إنه أثر واحد مكرر في كل الجاهليات، على اختلاف عصورها وبيئاتها ومظاهرها.

إنه الانكباب على متاع الأرض، والتشبث الشديد بالقيم المادية[3].. فما دام العمر هو هذا العمر المحدود، وما دامت هي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود.. "فالمنطق" إذن أن كل لحظة تمر بغير متاع خسارة لا تعوض! والمتاع هوا لمتاع الحسي، فإن من لا يؤمن بالآخرة لا يجد متاع الروح!

---

(1) سورة البقرة: 170.

(2) سورة الجاثية: 23.

(3) والجاهلية المعاصرة من أبرز الأمثلة على ذلك.

ألا أيهــذا الزاجــري أحضــرّ الــوغى وأن أشــهد اللــذات، هــل أنــت مخلــدي؟![1]

فما دام الخلود في حسه غير ممكن وغير موجود، فليعب إذن من "اللذات":

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..)[2].

وكذلك تصبح القيم المادية هي البارزة في الحياة، لأنها هي ذاتها أدوات المتاع. ومن ثم تسيطر الشهوات على حياة الناس، سواء شهوة المال أو شهوة السلطان أو شهوة الجنس أو غيرها من الشهوات.

* * *

كذلك ينبغي أن نلتفت إلى الضلال النفسي والروحي الذي تمارسه كل جاهلية – والجاهلية العربية من بينها- حين لا تهتدي إلى جواب عن الأسئلة الملحة التي تلح على خاطر البشر وهم سائرون في درب الحياة:

من أين؟ وإلى أين؟ وما معنى الحياة؟ وما قيمتها؟ وهل وراءها تدبير معين وحكمة معينة؟ أم هي فوضى بلا حكمة ولا تدبير؟

فحين يقول الشاعر الجاهلي المعاصر[3]:

جئــــت لا أعلــــم مــــن أيــــن، ولكــــني أتيــــت
وقــــد أبصــــرت قــــدامي طريقــــاً فمشــــيت
وسأمضــــي في طرقــــي، شــــئت هــــذا أم أبيــــت
كيــف جئــت؟ كيــف أبصــرت طريقــي؟! لســت أدري!!

([1]) من شعر طرفة بن العبد.

([2]) سورة آل عمران: 14.

([3]) إيليا أبو ماضي.

فهو إنما يعبر عن تلك الضلالة والحيرة التي تمارسها كل جاهلية حين لا تهتدي إلى الجواب. وهي حيرة مشقية مضنية للنفس والروح، وإن حاول الإنسان الفرار منها بكل متاع الأرض الحسي!

والجاهلية المعاصرة بكل ما تشتمل عليه من حيرة وقلق، واضطرابات نفسية وعصبية، وخمر ومخدرات وجريمة.. نموذج واضح لحال الإنسان حين لا يجد إجابة شافية لأسئلة الفطرة: من أين جاء؟ وإلى أين يذهب بعد الموت؟ وما غاية وجوده؟ وما منهج حياته؟ وهل هناك حكمة وراء الأحداث؟!

والإشارة إلى هذه المعاني كلها أمر لازم، لكي نعرف حقيقة الإسلام حين نتحدث عنه بعد ذلك، نعرف حقيقة دوره في حياة الإنسان، فرداً وجماعة وأمة ودولة. فإنه على قدر معرفتنا "بأعماق" الجاهلية في النفس البشرية وفي واقع الحياة، نستطيع أن نتعرف على "أعماق" الإسلام!

* * *

هكذا ينبغي أن نَدرس الجاهلية على اتساعها، ولا نقف عند الجوانب القليلة التي ندرسها الآن، والتي لا تتعرض للجوهر، ولا تفي كذلك بالحديث عن كل المظاهر في الجاهلية العربية، ولا تتعرض للجاهلية كظاهرة بشرية قابلة للوجود في أي زمان وأي مكان وأي بيئة، وأي وضع "حضاري"، ولا تتعرض لجاهليات التاريخ..

وقد لا يكون الدارس الصغير في المدرسة الابتدائية قادراً على استيعاب كل المعاني التي أشرنا إليها في هذا الفصل، ولكن يجب على أي حال أن يعرف فكرة مبسطة عنها. أما الدارس الكبير فهو قادر ولا شك على استيعاب ذلك كله، بالتفصيل المناسب لسنه وخبراته النفسية والعقلية.

أما الدارس المتخصص فالمفروض فيه أن يلم بكل دقائق الموضوع، وأن يطلع على الشعر الجاهلي ليستخلص منه أحوال الجاهلية العربية مفصلة، إلى جانب ما ورد في القرآن الكريم من هذه الأحوال.. وأن يطلع كذلك على تواريخ الأمم القديمة: الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية والهندية.. إلخ ليتتبع المظاهر المختلفة للجاهليات المختلفة، مع التنبه دائماً إلى الجوهر المشترك فيها جميعاً: الجهل بحقيقة الألوهية، واتباع غير ما أنزل الله.

الإسلام

الإسلام هو الوجه المقابل للجاهلية.

فحيث كانت الجاهلية هي الجهل بحقيقة الألوهية، واتباع غير منهج الله، فإن الإسلام هو المعرفة الحقة بالله، واتباع منهج الله.

وينبغي أن تكون دراستنا للتاريخ الإسلامي فرصة حقيقية لدراسة الإسلام.

فمن الناحية العلمية البحتة –بصرف النظر عن كوننا مسلمين، وبصرف النظر عن كون دراستنا هادفة– فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن تاريخ أي حركة حدثت في الأرض وأثرت في شعب من شعوبها، دون أن تتعرض لهذه الحركة ذاتها بالدراسة، لتتبين مبادئها واتجاهاتها وأهدافها، ثم نتبين كيف استطاعت أن تسير في التطبيق العملي: إلى أي حد حققت تلك المبادئ والاتجاهات والأهداف في عالم الواقع، وإلى أي حد انحرفت عنها أو قصرت في أدائها.

فإذا كان هذا منهجنا من الوجهة العلمية البحتة مع أية حركة في الأرض، فهو أولى أن يكون كذلك مع الإسلام –بصرف النظر عن كوننا مسلمين– وذلك بالنظر إلى حجم الحركة الإسلامية في الأرض وفي التاريخ. ففي الأرض امتدت من المحيط للمحيط، وفي التاريخ امتدت أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان. وإن حركة بهذا الحجم الهائل لهي حقيقة بدراسة مبادئها وقيمها وأهدافها، والمحور الذي تقوم عليه، توطئة لدراسة تاريخها الواقعي. وإن المستشرقين أنفسهم ليصنعون ذلك في دراستهم، إذ يبدأون درراسة التاريخ الإسلامي بدراسة الإسلام ذاته، وإن كانت دراستهم ملونة دائماً بذلك الهوى الذي يلوي قلوبهم بعيداً عن الإسلام (إلا أن يؤمنوا به ويصبحوا مسلمين!):

(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[1].

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)[2].

(1) سورة البقرة: 120.

(2) سورة البقرة: 109.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1].

فإذا أضفنا إلى المقتضيات المنهجية البحتة أن ها هو تاريخنا نحن، وهذا كياننا الذاتي، فحن أولى أن نبدأ دراستنا للتاريخ الإسلامي بدراسة مستفيضة عن الإسلام، تجعلنا نتعرف عليه من أول الطريق، فنساير تاريخه ونحن عالمون تاريخ أي شيء هو على وجه التحديد، ونساير هذا التاريخ ومعنا "الكشاف" الذي يبين لنا معالم الطريق، لنعلم في أثناء دراستنا أين سار التاريخ في خطه الصحيح، وأين انحرف عن الجادة.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن من أهداف هذه الدراسة أن نقيم تعارفاً جديداً بيننا وبين الإسلام، لأننا أصبحنا غرباء عنه في الواقع، كما أخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء"[2] كما أن من أهدافها التعرف – من خلال التاريخ– على ذاتيتنا المفقودة، التي بعثرتها وغشت عليها تيارات دخيلة شتى، وانحرافات كثيرة.. فذلك كله يجعل هذه الدراسة للإسلام في مبدأ تعرضنا لدراسة التاريخ الإسلامي أمراً لا محيص عنه.

ومع ذلك فما أقل ما نعنى بهذا الجانب في دراستنا!

كأنما نأخذ الأمر على أنه بديهية مسلمة لا تحتاج إلى إيضاح.. أو كأنما نكل هذا الأمر إلى درس الدين، ونرى من التكرار الذي لا مبرر له أن نتكلم عنه مرة أخرى في درس التاريخ.. أو كأنما نرى –بالعدوى "العلمانية"– أن دراسة التاريخ ينبغي أن تبعد تماماً عن أي ظل "للدين"، حتى لا يفسد الدين "الروح العلمية" للبحث!

وهذه المبررات كلها لا تبرر!

فلا الإسلام في غربته الثانية عاد بديهية مسلمة لا تحتاج إلى إيضاح.. ولا درس الدين يعطي ذلك التفسير الشامل للإسلام الذي يحتاج إليه الدارس المسلم، ولا الروح العلمية تقتضينا ونحن ندرس "تاريخ الإسلام" ألا نتعرف على "الإسلام"!

وحقيقة أننا نتعلم بحكم الأمر الواقع بضعة أشياء عن الإسلام من خلال دراستنا التاريخية. ولكنها في صورتها الحالية لا تكفي، لأنها لا تزيد كثيراً في حجمها ونوعيتها عن

([1]) سورة الأحقاف: 11.

([2]) أخرجه مسلم.

المعلومات القاصرة المبعثرة التي نعطيها عن الجاهلية! وقد نكون في هذا منطقيين مع أنفسنا! فعلى قدر معرفتنا بالجاهلية تكون معرفتنا بالإسلام كما قال صاحب البصيرة النفاذة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– فإذا كانت معرفتنا بالجاهلية جزئية بعيدة عن الشمول، قلنا أن نتوقع أن تكون معرفتنا بالإسلام على نفس الصورة! وإذا لم ندرك انحرافات الجاهلية ومشكلاتها، فأنى لنا أن نعرف كيف قومها الإسلام؟ بل أنّى لنا أن نعرف أن الإسلام قد قومها أصلاً، أو أنه قد نزل لتقويمها.. ما دمنا لا ندرك أنها كنت موجودة، أو أنها كانت في حاجة إلى تقويم؟!

وقد يكون من الاستطراد هنا –ونحن نتحدث عن محاولة التعرف على الإسلام من خلال معرفتنا بالجاهلية العربية– أن نتحدث عن الجاهلية المعاصرة وموقف الإسلام منها، ولكننا نقول في إشارة عابرة إن دراستنا لانحرافات هذه الجاهلية تكشف لنا على وجه التحديد مزايا الإسلام في تلك الجوانب بالذات التي انحرفت فيها الجاهلية، والزاد الذي يستطيع الإسلام أن يقدمه اليوم للبشرية الضالة ليقوّم انحرافاتها ويهديها إلى الصراط المستقيم. وكلما تعمقنا في التعرف على أمراض هذه الجاهلية ونواحي قصورها، انكشفت لنا في الوقت ذاته جوانب من عظمة الإسلام رلابما كانت خافية علينا من قبل، كما قال الشاعر القديم: "وبضدها تتميز الأشياء"[1].

* * *

نقول للناس –بحق– إن الإسلام دعا الناس إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام.

ولكننا لا نقول لهم –في الأغلب– كيف تكون عبادة الله وحده، وكيف يكون نبذ الشرك وعبادة الأصنام!

فإننا حين نقصر الأمر على عبادة الأصنام الحسية وحدها، ونغفل الأوثان الأخرى التي كانت معبودة في الجاهلية العربية: القبيلة، وعرف الآباء والأجداد، والهوى والشهوات.. ونقصر الشرك على شرك الاعتقاد وحده، أو شرك الاعتقاد وشرك العبادة، ونغفل شرك الاتباع.. لا نكون قد وفّينا حق "لا إله إلا الله"، ولا نكون قد عرفنا الناس بحقيقة الدعوة التي دعا إليها الإسلام!

(1) راجع إن شئت حول اختلالات الجاهلية المعاصرة ومنهج الإسلام في تقويمها فصل "توقعات المستقبل" من كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر".

يقول تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا)[1].

ويعرف الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله "الطاغوت" بقوله: "هو كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء"[2].

ومن ثم فإن الكفر بالطاغوت وإخلاص العبادة لله شيء أكبر بكثير من مجرد ترك الأصنام المحسوسة والتوجه إلى الله بشعائر التعبد.. إنه منهج حياة كامل، يشمل التصورات والمشاعر، كما يشمل الواقع السلوكي للإنسان:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[3].

إنه نزع "الألوهية" عن كل شيء، وكل أحد إلا الله، ونزع الشرعية عن كل وضع، وكل شرع، وكل عرف لم يأذن به الله، وبالتالي عدم إطاعة شيء من ذلك كله.. وإلا تحول إلى طاغوت، إذا دان له الناس بالطاعة فقد خرجوا من عبادة الله.

وإذا كان معنى "لا إله إلا الله" نفي الألوهية عن كل شيء في الوجود، وإثباتها لله وحده بلا شريك، فإن الإيمان بهذه الحقيقة لا بد أن تكون له مقتضيات شاملة في حياتنا، لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أدخلتها في "الدين".

وهذا هو الإسلام!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)[4].

أي ادخلوا في الدين بكافة أنفسكم، وبكافة نفس كل واحد منكم.. فإن أي جزئية منكم لا تدخل في الدين إنما هي صيد يتصيده الشيطان.. وهو لكم عدو مبين!

([1]) سورة البقرة: 256.

([2]) تفسير ابن جرير الطبري 3/ 19 (ط3 سنة 1968م) مكتبة البابي الحلبي بمصر.

([3]) سورة الأنعام: 162-163.

([4]) سورة البقرة: 208.

وعلى الرغم من بساطة هذه الحقيقة، وكونها أشبه بالبديهيات، فقد صارت عند كثير من الناس أمراً مستغرباً يحتاج إلى كثير من البيان والشرح، سواء بسبب الغربة الثانية للإسلام، أو بسبب المفهوم المحرف للدين، الذي جاء مع الغزو الفكري، وخلاصته أن الدين علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة!

لذلك فإن أقصى ما يتصوره كثير من الناس من أمر الدين أنه اعتقاد بأن الله واحد، وتوجه بالشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج لله.. هذا إن لم يقولوا مع المرجئة إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان!

لقد كانت تنحية شريعة الله عن الحكم بفعل الغزو الصليبي لبلاد المسلمين، وتحويل ذلك –بالقوة العسكرية– إلى "أمر واقع" في حياة الأجيال المتأخرة من المسلمين، مع الضخ الدائم للأفكار والتصورات العلمانية عن الكون والحياة والإنسان، سبباً في تخريج أجيال من المسلمين لا تتصور أن التشريع بغير ما أنزل الله ينقض لا إله إلا الله! وأن اتخاذ العلمانية منهجاً في السياسة أو الاقتصاد أو علاقات المجتمع أو علاقات الجنسين أو الفكر أو العلم أو الفن.. إلخ ينقض لا إله إلا الله! أو أن "الحداثة" التي تنادي بالتخلي عن كل قديم، والتمرد عليه، وتدميره على أساس أنه أغلال تغل "انطلاقة الإنسان" تنقض لا إله إلا الله! أو أن التسليم "بخرافات" العلم الحديث التي تقول إن المادة أزلية أبدية، أو إن "الطبيعة" تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق، أو إن الإنسان سيخلق الحياة سنة 2000 أو سنة 2010 (!) ينقض لا إله إلا الله!

وصارت لا إله إلا الله –على بساطتها وبداهتها– أمراً لا يستوعبه كثير من الناس إلا بالجهد الجهيد، بل صار قوم من الناس يجادلون في شأنها كما كان قوم شعيب يجادلونه:

(أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء)[1].

* * *

وقد يكون المكتوب في شرك الاعتقاد وشرك العبادة وافياً، وإن كانت لغته في كثير من الأحيان صعبة بالنسبة للقارئ المعاصر غير المتمرس، لأن كثيراً منه كان قد كتب رداً على الفرق الزائغة، فاصطبغ بالصبغة الفلسفية الكلامية، وفقد البساطة والوضوح اللذين عرض بهما الأمر في كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– فلزم تحريره من القضايا

(1) سورة هود: 87.

الفلسفية والكلامية، ورده إلى مقررات الكتاب والسنة الواضحة المباشرة، التي تخاطب العقل والوجدان معاً، وتحرك الإنسان إلى المقتضى الوجداني والسلوكي المترتب على الإيمان[1].

أما شرك الاتباع فهو في حاجة إلى مزيد من البيان للمسلم المعاصر، حتى يوقن أن التشريع بغير ما أنزل الله شرك، وأن الرضى بشرع غير شرع الله شرك، وأن الأمر لو أجمع عليه العالم "المتحضر!" كله، فإن ذلك لا يعطيه شرعية إذا كان مناقضاً لمقررات الكتاب والسنة، كإجماع العالم كله اليوم على سفور المرأة، وإجماعه على حرية الإلحاد والارتداد عن الدين، وإجماعه على الحكم بغير ما أنزل الله!

* * *

ما الصورة التي نريد أن يأخذها دارس التاريخ الإسلامي عن الإسلام وهو مقبل على دراسة التاريخ؟

إنها بطبيعة الحال صورة مجملة تشتمل على الخطوط العريضة فحسب، على اعتبار أن التفاصيل يتكفل ببعضها درس الدين، أو درس الثقافة الإسلامية، وبعضها الآخر تتكفل به دراسة التاريخ الإسلامي ذاتها، وخاصة فترة البعثة وصدر الإسلام.

وهذه بعض الخطوط العريضة اللازمة لهذه الدراسة:

(1) أن الإسلام دين الأنبياء جميعاً من لدن آدم ونوح إلى محمد –صلى الله عليه وسلم– كلهم جاءوا بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وكلهم دعوا إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك، ونبذ الآلهة المدعاة في أي صورة من الصور: بشراً كانوا أم أصناماً، أم كائنات أخرى مما خلق الله في الكون.

وأنه دين الفطرة:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا)[2].

([1]) انظر نموذجاً للكتابة المنشودة كتاب "مقومات التصور الإسلامي".

([2]) سورة الأعراف: 172.

فالفطرة السليمة تتجه إليه تلقائياً ما لم تحرفها انحرافات البيئة. وأن الأصل في البشرية الإيمان، والكفر هو الطارئ عليها كما أخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لا كما يقول علم الاجتماع الجاهلي، ولا علم تاريخ الأديان الجاهلي، ولا علم مقارنة الأديان الجاهلي. وأن هذه العقيدة لم تتطور كما تزعم تلك "العلوم" الجاهلية، إنما الذي تطور هو الشرك، لأنه صناعة بشرية، ومن ثم يتأثر بأحوال البشر، ومدى ما لديهم من علم، ومدى احتكاكهم بالكون المادي وبالبيئة من حولهم، فيكون مرة عبادة للأب، أو عبادة للطوطم، أو عبادة لقوى الطبيعة، أو عبادة للأفلاك، أو عبادة للأصنام أو عبادة للبشر، أو عبادة لغير شيء، أي عبادة للهوى والشهوات والخرافة (كما هو حادث في الجاهلية المعاصرة) ولكن هذا كله هو الخط المنحرف عن الدين، وليس خط الدين! إنما خط الدين –الذي هو خط الإسلام– هو الذي كان عليه آدم، وعشرة أجيال من بعده[1]، وكان عليه نوح، وهود وصالح وشعيب، وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، كما كانت عليه الأقوام والأمم التي آمنت بهؤلاء الرسل على مدار التاريخ.

وأن فطرة الكون كله عابدة لله، تسجد له وتسبح بحمده.. والإنسان المؤمن تلتقي فطرته مع فطرة الكون كله، ولا يشذ عن هذا الإسلام –دين الخليقة كلها– إلا من كفر من البشر والجن.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ..)[2].

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[3].

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[4].

([1]) عن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" رواه ابن جرير والحاكم.

([2]) سورة الحج: 18.

([3]) سورة الإسراء: 44.

([4]) سورة الأعراف: 179.

(2) أن التوحيد –الذي هو جوهر الإسلام– معناه نفي كل الآلهة الزائفة التي تتحكم في الإنسان. ومن ثم تحرير الإنسان من العبوديات الزائفة كلها، وإطلاق روحه تعمل بكل طاقتها، طليقة من كل قيد زائف، متقيدة في الوقت ذاته بمنهج الله وأوامره، التي يتحقق بها خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وأن الإسلام بهذا هو أكبر حركة تحريرية في تاريخ البشرية.. فكل "ثورة" تحريرية في التاريخ –بصرف النظر عما وقع فيها أو نتيجة لها من انحرافات– كانت تستهدف جزئية واحدة من نفس الإنسان أو حياته الواقعية، تركز عليها تركيزاً شديداً وتهمل بقية الكيان، وتقصر عن إدراك نتيجة التركيز الزائد عن الحد على جزئية معينة، وعدم التركيز المتكافئ على الكيان كله، فتكون النتيجة دائماً بقاء العبودية لغير الله، وبقاء الخلل في حياة الإنسان، وبقاء الفساد في الأرض!

والإسلام وحده –المنزل من عند اللطيف الخبير، الذي يعلم من خلق، ويعلم ما يُصلحه وما يصلح له– هو الذي يحرر الإنسان من العبوديات الزائفة كلها جملة واحدة، بتوجيه العبادة لله وحده دون شريك، والاستمداد من منهج الله وحده دون سواه.

أما العبودية لله، ففضلاً عن كونها هي العبودية الحقة لأنها موجهة للإله الحقيقي الذي لا إله غيره، الخالق الرازق المهيمن المدبر، المحيي، المميت، مالك الحياة الدنيا ومالك يوم الدين.. فهي العبودية التي تكرّم الإنسان، لأنها موجهة للإله المكْرِم الذي قال سبحانه:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[1].

بينما الآلهة الزائفة لا تمنح الإنسان كرامته اللائقة به، إنما تستعبده بشهواته فتحيله حيواناً أضل من الحيوان، أو تستعبده بجبروتها، والضغوط الواقعة منها عليه، سياسية كانت هذه الضغوط أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية، فيسذل، ويفقد من كرامته بقدر خضوعه للطاغوت، وينقلب الناس إلى سادة وعبيد، والسادة والعبيد جميعهم في غير الوضع اللائق بالإنسان!

وحين يؤمن الإنسان بالله الإيمان الحق يستعلي على تلك الطواغيت، فلا يعود لها في حسه وزن، وإن آذته، وإن عذبته، وإن حرمته من ضروراته.. وإن قتلته.. فيتحمل إيذاءها

([1]) سورة الإسراء: 70.

مستعلياً عليها، أو يموت مستعلياً عليها كما مات سحرة فرعون وهم يقولون له: (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[1] فأيهما أعظم؟ وأيهما أثقل في الميزان الحقيقي: فرعون الذي استعبدته شهوة السلطان فأفقدته صوابه، أم السحرة الذين آمنوا فتحدوا سلطان الطاغية، وجابهوه بأنه لا سلطان له على أرواحهم وإن قتلهم ونكل بهم؟ وأيهما كان أكثر طمأنينة في الساعة الحاسمة: النفوس التي صعدت إلى ربها راضية مرضية، أم النفوس التي زلزلها وهزها عجزها عن فرض سلطانها على المؤمنين المستعلين بالإيمان؟

والطاغية يموت، والشهداء يموتون.. ولكن الطاغية يموت والأحقاد تغلي في صدره حتى يلفظ أنفاسه، والشهداء يموتون بقلوب راضية مطمئنة.. ثم يطوي التاريخ سيرة الطغاة إلا من اللعنة التي تحل بهم كلما ذكروا، ويبقى الشهداء أحياء.. أحياء عند ربهم، وأحياء في ذاكرة التاريخ..

أيهما أعظم؟ وأيهما أثقل في الميزان الحقيقي؟

وأي حركة في التاريخ حررت "الإنسان" التحرير الحقيقي، فوضعته في المكان اللائق به، مكان الكرامة والعزة، كتلك الحركة التي تزيل الطواغيت جميعاً من حسه، فلا يعود يقيم لها وزناً، ويستعلي بإيمانه عليها، حتى طاغوت شهواته الذي يحركه من داخل نفسه، ويجعله مطية للشيطان..

إنه التوحيد.. إنه المنهج الرباني.. الذي يحرر الناس من داخل أنفسهم فيصبحون قوى كونية فاعلة في واقع الحياة، بانية معمرة، تصنع ما يشبه المعجزات!

(3) أن التوحيد –على هذا النحو– ذو أثر بالغ في بنية النفس الداخلية وفي سلوكها الواقعي كذلك، من جهة تجميعه لطاقات الإنسان وتوحيد اتجاهها:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً)[2].

إن توحيد المتجه إلى الله بقطع الطريق على الشركاء المتشاكسين، الذين يثون القلق والحيرة والضياع في نفوس الناس في الجاهلية، فتكثر الأمراض النفسية والعصبية، ويدمن الناس

([1]) سورة طه: 72.

([2]) سورة الزمر: 29.

الخمر والمخدرات، حين يفقدون طمأنينة قلوبهم، ويحاولون الفرار من حيرتهم التي تلاحقهم في صحوهم ومنامهم، بينما القلوب المؤمنة مطمئنة بذكر الله:

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[1].

وحين يتوحد المتجه إلى الله تتوحد في الوقت ذاته أشياء كثيرة في كيان الإنسان وحياته: يتوحد المادي والمعنوي، ويتوحد العمل والعبادة. ويتوحد الجسد والروح. وتتوحد الدنيا والآخرة!

إن المنهج الرباني المحكم لا يفرق بين مطالب الجسد ومطالب الروح، فيجعل واحدة منها تعمل على حساب الأخرى أو مناقضة للأخرى! كلا!

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[2].

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[3].

"ألا إني أعبدكم لله، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني!"[4].

لا انفصال بين الدنيا والآخرة. ومن ثم لا انفصال بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، أي بين العمل في مصطلح الناس وبين العبادة.

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[5].

ولا انفصال بين الجسد والروح..

([1]) سورة الرعد: 28.

([2]) سورة القصص: 77.

([3]) سورة الأعراف: 32.

([4]) أخرجه الشيخان.

([5]) سورة الأنعام: 162-163.

إن الإنسان قد يجنح أحياناً بجسده، وأحياناً بروحه، ولكنه لا يتجزأ في أي حالة، ولا تنفصل فيه قبضة الطين عن نفخة الروح.

والجاهليات دائماً تركز على أحد الجانبين حتى تُزْهِق الآخر. تركز على جانب الجسد حتى تزهق الروح كما فعلت الجاهلية الرومانية من قبل، وكما تفعل وريثتها المعاصرة في الغرب. أو ترتكز على جانب الروح حتى تسحق الجسد، كما فعلت البوذية والهندوكية ورهبانية الكنيسة.. والإسلام هو الذي يعقد الرباط بين الجسد والروح، ويوازن بينهما في الوقت ذاته، فيكون من هذا الجانب أيضاً دين الفطرة..

الصلاة حركة بالجسد وإخبات بالروح. والصيام أحاسيس جسدية تتمثل في الجوع والعطش، وتقوى تعمر القلب. والزكاة مال يؤدي وصلة قلبية مع الله سبحانه وتعالى وشعور بالأخوة مع المؤمنين الذين يؤدى إليهم المال. والحج انطلاقة روحية هائلة وجهد بدني غير قليل..

وفي المنهج الرباني لا ينفصل كذلك إيمان الإنسان بعالم الغيب وإيمانه بعالم الشهود.. معرفته بالله ومعرفته بالكون المادي.. الدين والعلم.. كلاهما منبع للمعرفة وكلاهما مطلوب، بلا تعارض ولا تصادم ولا فصام.

(4) وأن الإيمان باليوم الآخر، وهو ركن رئيسي من أركان الإيمان، يؤدي مهمة ضخمة في حياة المسلم، ولهذا يركز عليه الإسلام تركيزاً شديداً، ويقرنه بالإيمان بالله، فيوصف المؤمنون بأنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ويوصف الكفار والمنافقون بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

إن الإيمان باليوم الآخر هو المعين الأكبر للإنسان على "ضبط" شهواته –ولا يلجأ الإسلام إلى "الكبت"– فيتقبل المسلم ما فرضه الله من قيود على شهواته راضياً بالقيد غير شاعر بالحرمان، لأنه مطمئن إلى أن كل متاع زائد عن الحد يتركه الإنسان في الدنيا طاعة لله سيعوض عنه في الآخرة أضعافاً مضاعفة في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وذلك فوق الإيمان بأن كل ما أمر الله به فهو خير، وكل ما نهى عنه فلا خير فيه وإن زينته الشهوة للإنسان.

وفوق ذلك فإن الإيمان باليوم الآخر هو الباعث الأكبر على الجهاد في سبيل الله، وعلى التطوع بأعمال الخير.. وكلاهما أمر عميق الغور في بنية المجتمع المسلم. فهذا الدين –كما سوف نرى– لا يقوم في الأرض بغير جهاد دائم لا يفتر. والجهاد –بجميع أنواعه–

يعرض الإنسان لأن يمتنع –أو يُمْنَع– حتى من الحلال المباح. والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عوض عن متاع الدنيا، يجعل المؤمن الحق يستسهل –بل يستعذب– أن يترك هذا المتاع تقرباً إلى الله، وحباً في مرضاته، وطمعاً في جنته. كما أن هذا الدين فرض على الناس الحد الأدنى من التكاليف التي يعلم الله أن المجتمع لا يستقيم أمره بدونها، ولكنه حبب للناس التطوع بما وراء الحد الأدنى ليرتقي المجتمع من مستوى الضرورة إلى مستوى الإحسان تطوعاً لا قهراً، وتقرباً إلى الله:

".. قال: وما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1].

ولا شيء يحض على التطوع بما وراء التكليف أكثر من ذلك الإيمان العميق بأن الحسنة بعشر أمثالها، وأن ما يبذله الإنسان من جهد زائد على التكليف سيعوض عنه في اليوم الآخر بمتاع أعلى، وأشهى، وأشف:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)[2].

(5) أن هذا الدين بدأ بقوله تعالى لرسوله –صلى الله عليه وسلم– "اقرأ". ودعا إلى التفكر والنظر في ملكوت الله، وإلى تدبر السنن الربانية التي يجري بها الله قدره في الكون المادي وفي حياة البشر سواء، ولفت نظر الإنسان إلى ثبات هذه السنن وعدم قابليتها للتحول ولا التبدل مع أهواء البشر.. وهذه التوجيهات كلها من شأنها أن تحفز الإنسان إلى التفكير "العلمي" المنظم في المجالين اللذين تعمل فيهما السنن الربانية، وهما الكون المادي والحياة البشرية. وأنها بالفعل قد أدت إلى حركة علمية هائلة قام بها المسلمون وقت تمسكهم الصحيح بالإسلام، كان أبرز ما فيها أنها منطلقة من التوجيهات الربانية ومنضبطة بضوابطها، وتمثلت فيها خاصية هذا الدين وهي توحيد طريق الدنيا والآخرة، والجمع بين الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس بلا تناقض ولا انفصام.

([1]) من حديث هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم، رواه مسلم.

([2]) سورة آل عمران: 14-17.

ثم إن توجيهات القرآن إلى المشي في مناكب الأرض والأكل من رزق الله، وعمارة الأرض، والإفادة مما سخر الله للإنسان من طاقات السموات والأرض، من شأنها أن تحفز الإنسان إلى بذل نشاطه الحيوي في ترقية الحياة وتحسينها وتجميلها[1] فضلاً عن السياحة في الأرض وكشف مجاهيلها. وأنها بالفعل قد أدت إلى حركة حضارية هائلة قام بها المسلمون وقت أن كانوا محتفظين بحيويتهم قبل أن تقعد بهم الأمراض التي حلت بهم فيما بعد، وكان أبرز ما فيها –كالحركة العلمية الإسلامية– أنها منطلقة من التوجيهات الربانية ومنضبطة بضوابطها، وأنها وحدت طريق الدنيا والآخرة وجمعت بين الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس.

(6) أن الإسلام يعطي إجابات محددة على أسئلة الفطرة التي تلح عليها وتطلب الجواب: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف؟.. المنشأ والمصير، والغاية، والمنهج..

فأما المنشأ والمصير، فمن الله وإليه:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[2].

وأما الغاية:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[3].

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)[4].

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[5].

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[6].

([1]) في القرآن إشارة واضحة إلى "الجمال": (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) [سورة النحل: 6].

([2]) سورة البقرة: 28.

([3]) سورة الذاريات: 56.

([4]) سورة الإنسان: 2.

([5]) سورة الكهف: 7.

([6]) سورة هود: 61.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[1].

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[2].

وأما المنهج الذي يحقق الغاية فهو اتباع ما أنزل الله:

(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[3].

إجابات واضحة محددة لا لبس فيها ولا غموض، لا تدع مجالاً للحيرة ولا الضرب في متاهات الظنون، تلك الحيرة التي تشتت أفكار الناس في الجاهلية ومشاعرهم، حين لا يجدون الإجابة الشافية من مصدر يثقون بصدقه ويثقون بحكمته، وكذلك حين يفصلون الحياة الدنيا عن تكملتها الطبيعية في الآخرة فتبدو لهم عبثاً لا معنى له ولا حكمة فيه:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[4].

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)[5].

وحين يعطي الإسلام تلك الإجابات المحددة الواضحة ويعمقها في شعور الإنسان فإنها تنعكس على وجدانه طمأنينة لا يعرفها إلا المؤمن، وتنعكس على سلوكه ثباتاً وصموداً في خضم الحياة المضطرب، الذي تتزلزل فيه أقدام الجاهليين:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، إِلَّا الْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ..)[6].

([1]) سورة البقرة: 30.

([2]) سورة الملك: 15.

([3]) سورة البقرة: 38-39.

([4]) سورة المؤمنون: 115.

([5]) سورة ص: 27.

([6]) سورة المعارج: 19-26.

(7) أن الله كلف الأمة المسلمة أن تنشر الدعوة في أرجاء الأرض، وكان لهذا التكليف حكمة معينة في تقدير الله، وكانت له كذلك مقتضيات.

فأما الحكمة فهي كون الرسول –صلى الله عليه وسلم- هو خاتم الأنبياء، لا نبي بعده، وأنه أرسل إلى البشرية كافة وإلى آخر الزمان، وأرسل بالرسالة الخاتمة التي اكتمل بها الدين السماوي، والتي تحكم حياة الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وأن أمته تحمل رسالته من بعده بخصوصيتيها هاتين: أنها للبشر كافة، وللزمن المقبل كله.

وأما ما ترتب على ذلك فهو فرض الجهاد على هذه الأمة لتوصيل الدعوة إلى آفاق الأرض..

ولم يكن الجهاد من أجل فرض العقيدة على الناس:

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)[1].

(أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ)[2].

إنما كان الجهاد من أجل أمر آخر، هو إزالة العقبات التي تحول بين الناس وبين الاستماع إلى الحق كما هو على حقيقته، متمثلة تلك العقبات في نظم جاهلية تحميها جيوش جاهلية وحكومات جاهلية. فإذا أزيلت هذه العقبات فالناس أحرار يختارون لأنفسهم ما يقتنعون به بغير إكراه.

ولأنه جرى تشويه متعمد لحقيقة الجهاد من قبل أعداء هذا الدين، فلا بد من شرح هذه القضية، وما يترتب عليها.

إن الحق لا يصل للناس مجرداً بمجرد أن تلقي به إليهم في بيان أو كتاب أو درس أو محاضرة أو إعلان.. فإنما تنكسر الأفكار كما ينكسر الضوء حين يخرج من وسط ذي كثافة معينة إلى وسط آخر ذي كثافة مختلفة، فلا يصل شعاع الحق مستقيماً إلى الناس حين يكونون محوطين بغلاف معين من الأفكار والنظم، التي تحميها قوة ذات ثقل. فأما إذا زالت القوة التي تحمي تلك الأفكار والنظم، فالناس أحرى يومئذ أن يروا ما في واقعهم من زيف،

([1]) سورة البقرة: 256.

([2]) سورة يونس: 99.

وما في الدعوة التي يدعون إليها من حق. فإن دخلوا في الحق فبها ونعمت، وإن اختاروا الباطل وأصروا عليه فلهم ذلك.. على مسئوليتهم!

تلك هي حقيقة الجهاد في الإسلام..

ولبيانها نضرب مثالين من الواقع البشري الحديث، يبين كل منهما كيف ترتبط الفكرة في حس الناس بالقوة التي تحيط بها وتحميها، لا بحقيقة هذه الفكرة في ذاتها!

المثال الأول هو سعي أوروبا الصليبية على مدى قرنين من الزمان أو أكثر لإزالة الدولة العثمانية، في أثناء محاولتها للقضاء على الإسلام. والمثال الآخر هو موقف الفكر الشيوعي —أو العقيدة الشيوعية— حين تخلت عنها روسيا!

فبالنسبة للقضية الأولى: لماذا لم تكتف أوروبا "بالدعوة" ضد الإسلام بالوسائل السلمية من صحافة وإذاعة وكتب ومحاضرات وندوات ووسائل "علمية"؟! لقد قامت أوروبا بذلك كله، ولكنها كانت تعلم أن هذا كله جهد ضائع طالما كان للإسلام دولة تحميه، دولة قوية ذات جيوش مرهوبة. فعملت على تحطيم الدولة والقضاء على جيوشها، ليسهل عليها بعد ذلك ما تهدف إليه من القضاء على الإسلام[1].

وبالنسبة للقضية الثانية: كم كتب من بحوث تبين فساد الشيوعية؟ وكم بذلت من جهود "فكرية" لإقناع الشباب ببطلان الفكر الشيوعي كله ومصادمته للفطرة؟ وكم كانت نسبة الاستجابة "للدعوة" ضد الشيوعية في أرجاء الأرض؟! ثم.. ماذا حدث للفكر الشيوعي —فجأة— حين تخلت عنه الدولة بقوتها؟! لكأنما قد انهار في لحظات! ولم يعد ذلك الشباب في أرجاء الأرض يحتاج إلى كلمة واحدة تحدثه عن بطلان الشيوعية!! فقد اقتنع من تلقاء نفسه بمجرد انهيار الحاجز الذي كان يكسر شعاع الضوء، ويمنعه من الوصول إلى وجدانهم على حقيقته!

تلك حقيقة ينساها الذين تخدعهم "الديمقراطية" و"حرية الدعوة" فيحسبون أن الجهاد كانت له "ظروف تاريخية" لم تعد تتكرر، وأن "وسائل الإعلام" قد أغنت عنه في العصر الحاضر! كذلك ينساها —أو يتناساها— الذين أُحرجت صدورهم من إلحاح الأعداء في القول

([1]) لا شك أن القضاء على الدولة العثمانية قد أثر كثيراً على وضع الإسلام في نفوس المسلمين أنفسهم، وسهّل كثيراً عملية التغريب ونشر العلمانية والمذاهب الهدامة، لولا أن الله قد تكفل بحفظ دينه وإظهاره فكفل له صحوة تسعى إلى إعادة القوة إليه وتجاهد في سبيل ذلك.

بأن الإسلام قد انتشر بالسيف، فيحبون أن يلقوا بهذا الموضوع كله في سلة "الظروف التاريخية" التي لم تعد تتكرر، ليستريحوا من الحرج في داخل صدورهم، ويحسبون بذلك أنهم "يدافعون" عن الإسلام!!

إنما سقنا ذلك كله لنقول إن "الجهاد" جزء من ملامح الصورة التي يحتاج إليها دارس التاريخ الإسلامي ليتفهم ذلك التاريخ..

لقد دعيت هذه الأمة لتقوم بتحرير "الإنسان" كله على وجه الأرض من العبودية للآلهة الزائفة التي تهبط بكرامة الإنسان، وتغله عن الانطلاق.. ولا يتم هذا التحرير إلا بإزالة تلك الآلهة الزائفة من ضمائر الناس، وذلك بتحطيم القوى التي تسندها وتثبتها في النفوس. فإذا تم ذلك ترك الناس أحراراً ليختاروا الحق أو يختاروا الباطل، ويتحملوا مسئوليتهم عن أنفسهم وأهلهم وذويهم حين يختارون الباطل ويصرون عليه.. ولكنهم في الوقت ذاته لا يصبحون "فتنة" للمسلمين بعد زوال قوتهم. وهذا هدف رئيسي من وراء الجهاد:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه)[1].

ويصبح الجهاد مشغلة دائمة من مشاغل هذه الأمة.. يملأ حياتها فلا يصيبها الفراغ الذي يقتل الأمم حين يترف أغنياؤها ويخلد سائرها إلى هموم الأرض القريبة، وتخلو حياتهم من الأهداف العليا والقيم الفاضلة والمشغلة الجادة. ويلتقي خط الجهاد بخط الإيمان باليوم الآخر، فيكونان معاً خطاً بارزاً في ملامح الصورة..

* * *

تلك الموضوعات -كما يرى القارئ- ليست كلها مما تُوَجَّه العناية إليه في درس الدين، مع ضرورتها لدارس التاريخ الإسلامي، فوجب إذن أن يتولى درس التاريخ تجليتها والحديث عنها، حتى لو شاركه درس الدين في بعض نقاطها. إنما الهدف الأساسي من دراستها بالنسبة لدارس التاريخ أن يتبين جيداً أن سمات هذه الأمة في عصور قوتها وحيويتها هي ذاتها سمات هذا الدين. وأن الأمة في الحقيقة قد انبثقت من هذا الدين، وليس من أي عنصر آخر: لا الأرض ولا القوم ولا الجنس ولا أي مقوّم من تلك المقومات التي يعزي إليها قيام الأمم في الجاهلية. كما يتبين جيداً أن فترات الضعف والشتات والتخلف إنما تأتي من انسلاخ الأمة -كثيراً أو قليلاً- عن هذا الدين، فتغيب ملامحه المميزة، التي تطبع الأمة

([1]) سورة الأنفال: 39.

بطابعها وتعطيها قوتها وحيويتها، وتبرز ملامح أخرى كامنة في البيئة، أو راجعة إلى أي عنصر من العناصر المثبطة التي تقع في طريق الأمة في أثناء مسيرتها وهي بعيدة عن المناعة التي يعطيها إياها هذا الدين..

كما أن من أهداف هذه الدراسة لملامح الإسلام أن يتبين الدارس أن الدين الذي هذه ملامحه، لا يُسْتَنفد أبداً، ولا تنتهي مهمته في الأرض، ولا يجيء يوم تسبقه البشرية وتستغني عنه.

إنما يمكن أن يحدث أمران في التاريخ: أن يتخلف المسلمون عن الإسلام، كما تخلفوا بالفعل في عصرهم الحاضر، فيصيبهم من جراء ذلك تخلف علمي ومادي وسياسي وحربي واقتصادي واجتماعي وفكري وأخلاقي.. إلخ فلا يكون الإسلام هو الذي تخلف، ولا يكون الإسلام هو سبب التخلف. إنما يكون الوضع على وجه التحديد أن حَمَلَة الإسلام قد تخلوا عنه –كثيراً أو قليلاً– فلم يعد مطبقاً على حقيقته في الأرض، ويظل الإسلام قائماً بذاته كما أنزله الله، رسالة للبشرية كافة حتى آخر الزمان، تدعوهم إلى إصلاح ما في أنفسهم من انحراف وما في حياتهم من فساد، ويظل المسلمون أولى الناس بإجابة الدعوة باعتبارهم أصحابها الأصلاء الذين حملوها ردحاً من الزمن غير قليل.. وتكون الصحوة الإسلامية بذلك هي الاستجابة الطبيعية لتلك الدعوة، من أحق الناس بالاستجابة وأولاهم بالمسارعة إليها.

الأمر الثاني الذي يمكن أن يحدث هو أن تتقدم البشرية في العلوم والتكنولوجيا والعمارة المادية للأرض –وهي في جاهليتها– كما هو حادث في الجاهلية المعاصرة بشكل بارز، ولكن هذا لا يغير القضية بالنسبة للإسلام.

فالإسلام أولاً لا يقف في وجه العلم والتكنولوجيا والعمارة المادية للأرض، حتى يقال إن العلم قد انتصر على الإسلام! والإسلام كذلك لا يمثل مرحلة معينة من العلم والتكنولوجيا والعمارة المادية للأرض، حتى يقال إن العلم قد سبق الإسلام!

إنما جاء الإسلام لينفي الآلهة الزائفة كلها، ويلغي عبودية الناس لها، ويبين أنه لا إله إلا الله، ويدعو الناس لإخلاص عبادتهم لله وحده دون شريك.. وتلك قضية القضايا في حياة الناس، على أساسها تستقيم حياتهم في الدنيا والآخرة إذا استجابوا لداعي الإسلام، أو تفسد حياتهم وتشقى آخرتهم إذا أعرضوا!

ومن ثم تظل قضية الإسلام قائمة كما أنزلت قبل أربعة عشر قرناً، على الرغم من كل التقدم العلمي والتكنولوجي والعمارة المادية للأرض، التي هي السمة البارزة للجاهلية المعاصرة، ولا يكون الإسلام قد سُبِق أو استنفد أغراضه! بل الحقيقة أنه ما من جاهلية من جاهليات التاريخ كان الإسلام لازماً لها كهذه الجاهلية بالذات، التي عتت أكثر من أي جاهلية سبقت في التاريخ، مستندة إلى قوتها وعلمها[1]، وتبجحت بالكفر حتى نفت وجود الله جهرة، فمرة قالت: الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق، ومرة قالت: لا إله، والكون مادة! فهذه الجاهلية بالذات أحوج إلى هذا الإسلام، تصلح به ما فسد من أمرها، إن كانت تريد أن تتجنب الدمار..

وهكذا تصبح دراسة ملامح الإسلام أمراً لازماً من أجل الرؤية الصحيحة للتاريخ، سواء في ذلك تاريخ الأمة الإسلامية أو تاريخ البشرية في عصرها الحاضر.

وليس من الضرورة بطبيعة الحال أن تركز هذه الدراسة في درس واحد ولا كتاب واحد، إنما هي زاد مستمر يُستمد منه كلما دعت المناسبة واحتاج الأمر إلى التعرف على ملامح الإسلام. ودراسة عصر البعثة وصدر الإسلام هي أنسب المناسبات لعرض ملامح الإسلام.

([1]) ليست هذه أول جاهلية تاريخية تستند في كفرها إلى علمها وقوتها فقد حكى الله عن جاهلية عاد أنهم قالوا: (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) [سورة فصلت: 15]. وحكى عن غيرهم أنهم "فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون" [سورة غافر: 83] ولكن الجاهلية المعاصرة أعتى من كل جاهليات التاريخ.

البعثة وصدر الإسلام

ربما كانت فترة البعثة النبوية من أوفى الدروس في مناهج الدراسة الحالية، وفي كتب المؤرخين المحدثين الذين يتناولون هذه الفترة بالدراسة. وربما كان السبب في ذلك أن المرجع الرئيسي فيها هو كتب السيرة وليس كتب المستشرقين! (وإن كان بعضهم لم يسلم تماماً من تأثير المستشرقين حتى بالنسبة لهذه الفترة!)[1] وربما كان السبب كذلك أن شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم– من العظمة والضخامة بحيث لا يملك البشر إزاءها سوى التسليم والإقرار (إلا من طمس الله على قلبه بدافع الحقد الدفين كما يصنع فريق من المستشرقين!).

ومع كون المكتوب في هذه الفترة وافياً بالغرض على وجه العموم، فإننا نحتاج أن نضيف إليه بعض الإضافات.

إن دراسة الفترة المكية من حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم– تشتمل على أربعة موضوعات رئيسية:

1- شخصية الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وهذا الموضوع هو أصفى الموضوعات جميعاً في كل مناهج الدراسة، وفي الكتابات الحرة للمؤرخين.

2- موقف الجاهلية من دعوة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ثم من المؤمنين الذين آمنوا بدعوته.

3- موقف المؤمنين من العذاب والاضطهاد الذي وقع عليهم في مكة.

4- دار الأرقم ودورها في تربية الجماعة المسلمة الأولى في مكة.

والثلاثة الموضوعات الأخيرة هي التي تحتاج إلى إضافات.

* * *

أول ما يلاحظ على الكتب الدراسية خاصة وهي تعالج موقف الجاهلية من الدعوة أنها تتحدث عن الموضوع تحت عنوان "موقف قريش من دعوة الرسول– صلى الله عليه وسلم". وحقيقة إن الذي تصدى لدعوة الرسول –صلى الله عليه وسلم– بادئ ذي بدء هو قريش،

([1]) خذ على سبيل المثال كتاب "حياة محمد" لهيكل وملاحظات الدكتور إبراهيم شعوط عليه.

وأن الذي أوقع العذاب والاضطهاد بالمؤمنين الأوائل هو قريش. ولكن هذه مجرد ملابسات سببها أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- أمر بإنذار عشيرته الأقربين[1]، وعشيرته الأقربون هم قريش. وأن المؤمنين الأوائل كان معظمهم من قريش، فكانت قريش هي القبيلة التي أوقعت بهم العذاب والاضطهاد.

ولكن هذه الملابسات لا ينبغي أن تصرف أنظارنا عن الحقيقة الكامنة وراءها، ولا عن العنوان الذي ينبغي أن ندرس الموضوع تحته. فالوضع في حقيقته أن "الجاهلية" هي التي وقفت هذا الموقف من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- والذين آمنوا به. وما كانت قريش إلا عنوان هذه الجاهلية ورياستها وواجهتها. وإلا فإن ثقيفاً وهوازن وغيرهما من القبائل وقفت نفس الموقف ولذات الأسباب. فقصر الحديث –أو تركيزه- على قريش يغيّب عن الدارس هذا المعنى الرئيسي، وهو أنه في الحقيقة موقف الجاهلية من قضية لا إله إلا الله، وليس موقف قريش من محمد –صلى الله عليه وسلم-.

إن قصر الحديث –أو تركيزه- على قريش يعطي الدارس إيحاء خاطئاً بأنها معركة محلية –أو شخصية- بين قريش وبين محمد –صلى الله عليه وسلم-. والأمر في حقيقته أبعد ما يكون عن ذلك. فمحمد –صلى الله عليه وسلم- واحد منهم، ومن أعزهم عليهم –قبل البعثة- ومن أكثرهم احتراماً بينهم، حتى لقبوه بالأمين، ورجعوا إليه في حل معضلاتهم أكثر من مرة، وحين اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود، واتفقوا على أن يحكّموا في الأمر أول داخل عليهم، فكان عليه الصلاة والسلام أول داخل، تهللت وجوههم واستبشرت قلوبهم أن الأمر وقع في يد الشخص الذي يرتاحون جميعاً ويسلمون بحكمه. وإنما قام العداء المفاجئ بصورته الحادة حين دعاهم للا إله إلا الله. فالقضية إذن –كما حددها كتاب الله- هي قضية لا إله إلا الله، وليست قضية محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام:

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ)[2].

ثم إنها لم تكن قضية قريش وحدها، وإنما كانت قضية كل قبيلة في الجزيرة العربية وصلتها الدعوة، وإن كان الملابسات وحدها هي التي جعلت قريشاً أشد القبائل اشتباكاً بها، بحكم أنهم هم قوم رسول الله –صلى الله عليه وسلم- المباشرون.

([1]) أنزل تعالى على رسوله –صلى الله عليه وسلم-: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [سورة الشعراء: 214].

([2]) سورة الأنعام: 33.

ووضع المسألة على هذا النحو أمر ضروري وحيوي، أولاً لأنه هو الحقيقة العلمية والتاريخية، وثانياً لأنه يعطي الدارس تصوراً أوسع وأعمق لقضية لا إله إلا الله وأهميتها في حياة البشرية من ناحية، ولكراهية الجاهلية –كل جاهلية– لهذه القضية من ناحية أخرى، ولأسباب هذه الكراهية، وعنف الصراع الدائر في التاريخ البشري كله حول هذه القضية بالذات، ونتائج هذا الصراع في واقع البشرية.. وكلها أمور غاية في الأهمية بالنسبة للدارس المسلم بالذات.

والذي يقرأ القرآن يلحظ ولا شك التركيز على هذا المعنى في أكثر من مناسبة وفي أكثر من صورة.

فتارة تأتي قصص المكذبين في التاريخ موحدة الصيغة والنسق، كما في سورة الأعراف[1] وسورة هود[2] وسورة الشعراء[3]، لتعطي ذلك الإيحاء بوضوح: أن الأنبياء جميعاً قد جاءوا بكلمة واحدة يقولونها لأقوامهم: "اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ". وأن أقوامهم –في جاهليتهم– وقفوا من أنبيائهم موقفاً واحداً، وهو رفض الإيمان بلا إله إلا الله، ورفض إفراد الله بالعبادة.

وتارة يُجْمَلُ ما قالته الرسل جميعاً وما قالته أقوامهم جميعاً في سرد واحد كما جاء في سورة إبراهيم:

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي

(1) سورة الأعراف: 59-92.

(2) سورة هود: 25-102.

(3) سورة الشعراء: 105-191.

مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)[1].

وتارة يوجه الحديث إلى الرسول —صلى الله عليه وسلم– مباشرة كما في سورة فصلت:

(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)[2].

وفي جميع الأحوال تبدو القضية واضحة: أن الرسل كلهم جاءوا بقضية واحدة هي لا إله إلا الله، وأن الجاهليات جميعاً وقفت من هذه القضية موقفاً واحداً هو الرفض للا إله إلا الله.

ومن هذا التركيز في القرآن لا بد أن ندرك أن القضية لها أهمية خاصة، ولا بد كذلك أن نعطيها أهميتها الواجبة ونحن ندرس هذه الفترة من التاريخ الإسلامي.

إن تاريخ البشرية كله في الحقيقة هو تاريخ هذه القضية: يعبدون الله وحده أم يشركون به غيره؟ ينفذون منهج الله أم يتخذون منهجاً سواه. ويترتب عليها —في التاريخ كله– أن يكون الناس أحراراً في عالم الواقع، أم عبيداً بعضهم لبعض؟ كما يترتب عليها أن يمارسوا العدل الحقيقي في ظل منهج الله، أم يمارسوا المظالم في ظل المناهج البشرية المخالفة لمنهج الله[3]. هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فيترتب عليها ما هو أخطر بكثير من ذلك: خلود في الجنة أو خلود في النار.

والتاريخ البشري —كما تقدمه لنا الجاهلية المعاصرة– يكاد يغفل هذه القضية تماماً، لأسباب ليس هنا مجال ذكرها[4]، ويضع للحياة معايير أخرى مختلفة تماماً عن هذا المعيار. ولكن الدارس المسلم هو أولى الناس بإعطاء هذه القضية أهميتها الواجبة لها، وأولى الناس أن يصحح المعايير. ودراسة موقف الجاهلية العربية من قضية لا إله إلا الله مناسبة طيبة لهذا الأمر وذاك، فعلينا أن نبرز المعاني التي تغفلها الجاهلية المعاصرة عن عمد، وتغفلها كتب المستشرقين ذلك وهي تتحدث عن الإسلام.

([1]) سورة إبراهيم: 9-14.

([2]) سورة فصلت: 43.

([3]) ويحدث الظلم كذلك في حياة المسلمين حين يخالفون منهج الله.

([4]) انظر إن شئت كتاب "حول التفسير الإسلامي للتاريخ".

إن المراجع الغربية تحصر "تاريخ الأنبياء" في ركن ضيق من التاريخ القديم، وتعرضه كأنه أحداث محلية هامشية لم تؤثر في مجرى التاريخ! ثم تبرز تاريخ النصرانية في أوروبا، وتاريخ الكنيسة، وتعرضه عرضاً مفصلاً، ولكنها تعرضه على أنه "العصور الوسطى المظلمة"[1]، وعلى أنه فترة من الزمن قد مضت بخيرها وشرها —إن كان فيها خير ولن تعود! ثم تعرض تاريخ الإسلام على أنه قوة مناوئة لأوروبا، نبتت في الشرق، ووقعت بينها وبين أوروبا صراعات مريرة، وانتهت بغلبة أوروبا في العصر الأخير..

ثم نعرض نحن تاريخنا، ونركز بحكم علاقتنا المباشرة به على موقف الجاهلية العربية —بل موقف قريش- من دعوة رسول الله —صلى الله عليه وسلم-، ولكنا نغفل بدورنا الوزن الحقيقي لهذه القضية في تاريخ "الإنسان" كله على الأرض، بينما مؤرخونا القدامى وعلماؤنا كانوا يولونها من الاهتمام ما هي جديرة به، وهم يعالجون قضية "الكفر والإيمان" وتاريخ "الكافرين" وتاريخ "المؤمنين".. لذلك نحس أن الجو قد اختلف علينا حين ننتقل من دراسة التاريخ في المراجع الحديثة إلى دراسة العلوم الشرعية بما فيها كتب التفسير، أو ننتقل من العلوم الشرعية إلى التاريخ، لا اختلاف التخصص —وهو أمر بديهي- ولكن اختلاف "الروح" التي نتناول بها هذا العلم وتلك العلوم! ولم يكن هذا الاختلاف قائماً في كتب علمائنا الأقدمين..

وهذا أمر لا بد أن نلتفت إليه، ونصحح موقفنا منه ونحن نحاول إعادة كتابة التاريخ!

* * *

إن الصراع الأكبر في الحياة البشرية ليس هو الصراع السياسي، ولا الصراع الحربي، ولا الصراع الاقتصادي، ولا الصراع "الحضاري" بالمعنى الضيق، كما تعرضه مناهج التاريخ الغربية التي نتتلمذ اليوم عليها، وإن كانت هذه الصراعات كلها قائمة في واقع الحياة. إنما الصراع الأكبر —الذي يغير وجه الأرض حقاً بحسب نتيجته —هو الصراع بين الحق والباطل. بين عبادة الله وعبادة الآلهة الأخرى المزيفة.

([1]) ولا شك أن أوروبا على حق في أن تسمي عصورها الكنيسة العصور المظلمة، فقد كانت كذلك في الواقع، ولكن لا بسبب الدين في ذاته كما يزعم أعداء الدين من مؤرخين وغير مؤرخين، ولكن بسبب انحراف الكنيسة عن دين الله المنزل، واختراعها ديناً جاهلياً من عندها ما أنزل الله به من سلطان، ثم طغيانها البشع بدينها الجاهلي، ومحاربتها للعلم والحضارة والعمران.

وتلك القضية تغفلها الجاهلية دائماً، ولا تحب أن تبحث الأمور من زاويتها، لأنها لا تحب أن تشهد على نفسها أنها كافرة، وأنها -بكل ما تزعمه لنفسها من "الحضارة"- واقفة في الحقيقة في القطاع الجاهلي من التاريخ!

إن الصراع بين قوتين جاهليتين هو صراع "شخصي"، هدفه أن تفوز إحدى القوتين على الأخرى وتدمر الثانية أو تخضعها لسلطانها. ولكن حياة البشرية لا تتغير كثيراً سواء انتصرت هذه القوة أو تلك. أما حين يقع الصراع بين قوة الإيمان وقوة الكفر فإن شيئاً كثيراً يتوقف على نتيجة الصراع، هو حال "الإنسان": أفكاره ومشاعره وسلوكه. قيمه وأخلاقه واهتماماته، والمجالات التي يبذل فيها جهده ونشاطاته.. وتلك هي القيمة التي يمثلها ظهور "الإسلام" في الأرض في جميع أطواره منذ آدم ونوح إلى قيام الساعة. ويمثلها -في أبرز صورها- ظهور "الأمة الإسلامية"، أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- وما قدمت للبشرية من خير، وما أحدثت في واقعها من تغيير.

ولذلك فإن المؤرخ المسلم بالذات مطالب بإبراز القضية في حجمها الحقيقي، الذي تتغافل عنه مناهج غير المسلمين.

* * *

لماذا يقع الصراع في الأرض بين الجاهلية وبين لا إله إلا الله؟ وما الآثار المترتبة على ذلك الصراع؟

إن أسباب الانحراف عن عبادة الله الواحد -التي هي أصل الفطرة- إلى عبادة الآلهة الأخرى الزائفة، كثيرة ومتشعبة. من بينها هبوط البشر -حين تنتكس فطرتهم- من المستوى الراقي الذي خلقهم الله عليه، مستوى الإيمان بالغيب، إلى الانحصار في العالم الذي تدركه الحواس فحسب، فيتطلعون إلى آلهة حسية يعبدونها بدلاً من الله الذي لا تدركه الأبصار، كما قال الله عن بني إسرائيل:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[1].

(1) سورة الأعراف: 138.

ومنها التعظيم الزائد عن الحد لأشخاص صالحين، حتى ينقلب التعظيم إلى تقديس وعبادة، كما عبد قوم نوح ودّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا[1].

ومنها تجبر أفراد من البشر على أقوامهم بالسلطان الطاغي، فيستعبدونهم، ويجعلون أنفسهم أرباباً، ويطلبون من أقوامهم أن يقدموا لهم فروض العبادة، ويرهبونهم بالسلطة الطاغية التي يملكونها في أيديهم، حتى يرغموهم على عبادتهم، سواء اتخذت العبادة صورة تقديم الشعائر والقرابين لهم كما كان الفرعون وكسرى وقيصر، أو صورة التشريع من دون الله، وإخضاع العبيدة لشرع السادة، كما هو الحال في جميع جاهليات التاريخ: في الرق والإقطاع والرأسمالية والشيوعية، وكل نظام لا يحكم بما أنزل الله.

وحين يحدث هذا الشرك بأي من أنواعه الثلاثة: شرك الاعتقاد أو شرك العبادة أو شرك الاتباع في غير ما أنزل الله أو بها جميعا[2]، فإن الله برحمته كان يرسل رسلاً لهداية البشرية إلى الله الواحد: وترك الشرك بأنواعه، وإخلاص العبودية لله وحده، فيقول الرسل لأقوامهم: (اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ).

وهنا يحدث الموقف المتكرر، الذي حدث مع كل رسول قبل محمد –صلى الله عليه وسلم–، وحدث مع محمد –صلى الله عليه وسلم–كما حدث مع إخوته من قبل، صلاة الله وسلامه عليهم جميعاً: الرفض، والإصرار، والعناد.

لماذا يحدث ذلك؟!

ما دام الأمر ظاهرة بشرية متكررة، فلا نستطيع أن نرده إلى سبب خاص في كل مرة.. ولذلك فإن قولنا إن قريشاً وقفت هذا الموقف من دعوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لخوفها على سلطانها، هو قول مدخول، يضلل الدارس، ما لم نبين له حقيقة هذا السلطان، ونبين له كذلك أن هذا الموقف لم يكن خاصاً بقريش، إنما هو موقف "الملأ" –كل ملأ في التاريخ– من دعوة لا إله إلا الله!

([1]) عن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: ".. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت" رواه البخاري.

([2]) الغالب أن تحدث جميع ألوان الشرك مع بعضها البعض.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ)[1].

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)[2].

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[3].

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..)[4]... (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا..)[5].

قولة واحدة.. وموقف واحد مكرور..

إن هؤلاء الملأ المتجبرين على أقوامهم، الذين يستعبدون البشر بسلطانهم، إنما يغتصبون في الحقيقة سلطاناً ليس لهم، إنما هو حق الله سبحانه وتعالى، الخالق المنعم الوهاب..

هو الذي خلق، وهو الذي أنعم على مخلوقاته بما أنعم، ووهب لهم من فضله ما وهب.. وهو الإله وحده.. فمن حقه وحده أن يعبد.. يعبد بالاعتقاد. ويعبد بالشعائر. ويعبد بالطاعة فيما أمر: (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)[6].

([1]) سورة الأعراف: 59-60.

([2]) سورة الأعراف: 65-66.

([3]) سورة الأعراف: 73-76.

([4]) سورة الأعراف: 85.

([5]) سورة الأعراف: 88.

([6]) سورة الأعراف: 54.

ولكن هؤلاء الجبابرة المتألهين، يدعون لأنفسهم سلطاناً يغتصبونه اغتصابا، فيجعلون من أنفسهم أربابا، وتتخذهم أقوامهم أنداداً من دون الله، فيقدمون لهم الطاعة في معصية الله.

ثم يجيء الرسول –صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً– فيقول كلمته الهائلة: لا إله إلا الله.. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.. التي معناها: لا معبود إلا الله. أي لا أحد تقدم له شعائر التعبد إلا الله. ولا أحل يحل ويحرم إلا الله. ولا أحد تجب له الطاعة المطلقة إلا الله.

وفي التوّ يحس أولئك المغتصبون لسلطان الله، الذين يشرعون للبشر من عند أنفسهم فيبيحون ويمنعون، ويحلون ويحرمون، ويستعبدون البشر بسلطانهم.. يحس أولئك في التو أن هذا الرسول يقصدهم هم بادئ ذي بدء بكلمته تلك، كما يحس السارق لأول وهلة حين يرى رجل الشرطة مقبلاً في الطريق!

ومن هنا يتحفزون تلقائياً لمعارضة ذلك الرسول القادم بلا إله إلا الله، المنادى برد السلطان إلى الله، في شعائر التعبد وفي التشريع سواء، ويرفضون ابتداء الانصياع لقولته، لأنهم يدركون أن معناها الفعلي هو التخلي عن السلطان الذي في أيديهم، الذي يستعبدون به الناس، ويعودون عبيداً لله بلا زيادة، يخضعون لحكمه كما يخضع سائر الناس.

ذلك هو الباعث الرئيسي الذي يبعث "الملأ" في كل جاهلية أن يرفضوا لأول وهلة كلمة لا إله إلا الله، ويقفوا موقف العداوة من النبي الذي جاء بهذه الكلمة من عند الله.

ولقد كانت قريش هي "الملأ" بالنسبة للجزيرة العربية كلها، ومن أجل ذلك –بالإضافة إلى ملابسات القرابة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– كانت هي أول المعاندين وأشد المعاندين!

أما الباعث الآخر –وهو متصل بالباعث الأول ومن مستلزماته– أن الملأ يكونون غارقين في الترف الفاجر إلى أذقانهم، حريصين على الاستماع بهذا الترف الذي حصلوا عليه من ابتزاز حقوق العبيد واستغلال كدحهم وجهدهم، فيكرهون تحرر أولئك العبيد من سلطانهم، كما يكرهون تذكير الرسول لهم أن المال ليس مالهم في الحقيقة، إنما هو مال الله، وأن عليهم أن يسيروا فيه بمقتضى أوامر الله:

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء)[1].

ثم تقع سلسلة من الأحداث، تتشابه في كل جاهلية أو تتماثل..

يحدث جدل بينهم وبين النبي يكذبونه فيه ليحاولوا صده عن قولته التي تزلزل كيانهم، وتهددهم بفقد ما في أيديهم من السلطان المغتصب، فيقولون له: لست نبياَ، ولست مرسلاً من عند الله. فأت بآية –أي علامة– تثبت أنك مرسل حقاً من عند الله. فإذا أصر على موقفه –كما حدث مع كل نبي– عملوا على تشويه سمعته بين الجماهير لتنفيرها منه، لئلا تؤمن به وتنقاد إليه فيذهب السلطان! إن سلطانهم إنما هو على هؤلاء "العبيد" بالذات، فإن تحرروا من عبوديتهم، ووجهوا عبادتهم لله الحق، فماذا يبقى للملأ من سلطان؟!

ووسائل التشويه متعددة، ومتشابهة في كل جاهلية. فالنبي يقال عنه ساحر أو مجنون:

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)[2].

أو يقال للجماهير إنه جاء ليبدل دينكم ويفسد في الأرض:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)[3].

فإذا أصر الرسول على موقفه رغم حملة التشويه والتشكيك، وبدأ بعض الناس يؤمنون به، فقدت السلطة الغاشمة صبرها، فهددت بالبطش أو لجأت إليه بالفعل:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[4].

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)[1].

([1]) سورة هود: 87.

([2]) سورة الذاريات: 52-53.

([3]) سورة غافر: 26.

([4]) سورة إبراهيم: 13.

(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)[2].

هكذا يحدث في كل جاهلية من جانب الملأ صاحب السلطان، ولنفس الأسباب. وما حدث من قريش تجاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لم يكن إلا تكراراً- وبنفس الصورة- لما حدث في كل الجاهليات من قبل:

(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)[3].

فلا ينبغي أن نهمل إبراز هذا المعنى ونحن ندرس موقف قريش من الرسول –صلى الله عليه وسلم- لأن إهماله يحصر القضية حصراً معيناً يخرجها من حقيقتها التاريخية أولاً، ويخرجها من دلالتها التاريخية كذلك. والدارس المسلم أولى الناس أن يستوعب هذه الحقيقة وهذه الدلالة، لأن قضيته الرئيسية في الحياة هي قضية لا إله إلا الله، ونظرته للواقع البشري كله ينبغي أن تكون من خلال لا إله إلا الله..

يجب إذن أن نضيف هذه الإضافة المهمة على مناهجنا الحالية، سواء للطلاب أو للقارئ العام. وحين نقول للدارسين إن قريشاً كانت تعارض رسول الله –صلى الله عليه وسلم- خوفاً على سلطانها، فيجب أن نبين لهم حقيقة هذا السلطان بالضبط، فإن هناك لبساً دقيقاً يمكن أن يقع فيه الدارس حين نترك هذه الكلمة بغير تحديد.

إن السلطان السياسي لقريش –سلطان الرياسة- وسلطانها التجاري كذلك ليسا هما اللذين حركا قريشاً لتقف ضد الرسول –صلى الله عليه وسلم-. بل إنهم –من وجهة نظرهم، وعلى طريقة تفكيرهم الجاهلية- كانوا قمينين أن يرحبوا بظهور نبي من قبيلتهم، فذلك أحرى أن يزيد من سلطانهم السياسي على قبائل الجزيرة كلها، ويزيد –من ثم- من سلطانهم التجاري. وقد كانت القبيلة التي يولد فيها شاعر تتيه بشاعرها على القبائل الأخرى، فما بال القبيلة التي يولد فيها نبي؟!

إنما السلطان الذي خشوا عليه لم يكن ذلك! إنما هو السلطان المغتصب من الله، والذي كرهوا أن يردوه إلى الله، فيعودو بشراً كبقية البشر، خاضعين كلهم لسلطان أعلى منهم، ليست مقاليده في أيديهم:

([1]) سورة غافر: 26.

([2]) سورة الشعراء: 116.

([3]) سورة فصلت: 43.

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ)[1].

وتلك هي حقيقة القضية التي ينبغي أن نوضحها للدارس، ليعرف حقيقة السلطان الجاهلي الذي يأتي الإسلام لتحطيمه، وليعرف حقيقة الدور الذي تؤديه "لا إله إلا الله" في حياة البشرية، وهو رفع العبودية عن البشر، وتحريرهم من كل عبودية زائفة مذلة لكرامة الإنسان، برد العبودية كلها لله الواحد صاحب الأمر وصاحب السلطان، وهي العبودية التي يكتسب الإنسان منها الكرامة والعزة في الدنيا والآخرة سواء.

*　*　*

فإذا استقر الأمر في نفس الدارس على هذه الصورة بالنسبة للملأ حين يعاندون دعوة الإسلام –كما صنعت قريش– فهناك إضافة لا بأس من إضافتها بالنسبة لموقف بقية الناس، المستعبدين لهؤلاء الملأ، والذين كان المفروض أن يسارعوا إلى الإيمان بالدين الجديد، لأنه هو مخلّصهم ومحررهم في الحقيقة من ذلك الطاغوت الذي يتسلط على رقابهم، ومع ذلك فإنهم يقفون صفاً وراء الملأ في مبدأ الأمر.. ولا يسلمون!

هذه العجيبة تكررت في التاريخ كله مع كل رسول في كل جاهلية. فهي إذن ظاهرة بشرية تحتاج إلى تفسير، لأنها مخالفة لما كان يقتضيه "المنطق السليم", وإن كان ينبغي أن نعرف ابتداء أنه لا وجود في الجاهلية للمنطق السليم!

هؤلاء المستضعفون يقفون دائماً وراء سادتهم، معاندين هم أيضاً للدين الجديد، إلا قلة قليلة هي التي تؤمن بالنبي، ويقع عليها الاضطهاد والتعذيب والتشريد. قلة قليلة يفتح الله بصيرتها للحق، فتستجيب له معلنة عبوديتها لله وحده، رافضة كل عبودية لسواه، وهي عالمة بما هي عرضة له من الأذى والعذاب.. أما البقية الباقية فهي تقف ضد مخلّصها بنفس العناد الذي يقف به الملأ إزاء الرسالة والرسول[2].

([1]) سورة غافر: 56.

([2]) في التاريخ نماذج قليلة لأفراد من الملأ آمنوا مع المستضعفين، كمؤمن آل فرعون. أما في الدعوة الإسلامية، التي كتب الله لها التمكين الطويل في الأرض، فقد تميزت من أول لحظة بإيمان عدد غير قليل من الملأ، كأبي بكر الصديق، وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

والمسألة على غرابتها ليست غريبة حين ننظر إلى خالة العبودية الحقيقية التي يعيشون فيهاب أفكارهم وأرواحهم "تابعين" للملأ في كل تصرفاتهم كما سيقولون عن أنفسهم يوم القيامة:

(وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ)[1].

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[2].

فموقف التبعية والعبودية الذي يكونون فيه هو الذي يجعلهم يتبعون السادة في رفض لا إله إلا الله. ولو أسلم السادة لأسلم –من توّهم– العبيد!

غير أن هناك عاملين آخرين يضيفان إلى موقف العبيد مزيداً من البعد عن الدعوة الجديدة (إلا القلة القليلة التي يفتح الله بصيرتها) أولهما أن السادة –بما ينزلونه بالمؤمنين من التنكيل والتعذيب، والاضطهاد والتشريد– فإنهم في الحقيقة يفزعون العبيد ويرهبونهم لئلا ينفلتوا من سلطانهم كما انفلتت تلك القلة المؤمنة، وعندئذ يبور ذلك السلطان ويزول. وهذا التنكيل والتعذيب لا يقصد به في أية جاهلية تلك القلة المؤمنة في ذاتها، فهي من حيث العدد لا تشكل خطراً حقيقياً يفزع السادة على سلطانهم. إنما يقصد بها دائماً وقف "العدوى" إن جاز التعبير.. وقف انتشار الدعوة الجديدة، ومحاولة حصرها في ذلك النفر، بل محاولة استرداد أي واحد منهم –إن أمكن– لتخذيل الآخرين:

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ)[3].

([1]) سورة إبراهيم: 21.

([2]) سورة سبأ: 31-33.

([3]) سورة الشعراء: 53-56.

فالخوف من تنكيل السادة هو أحد العوامل التي تصد المستعبدين عن الإيمان بالدين الجديد، ولو تيقنوا أنه هو الهدى الحقيقي:

(وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا..)[1].

أما العامل الثاني فهو أن هذا القطيع البشري في الجاهلية غالباً ما يكون غارقاً في دنس الشهوات. فالجاهلية تحرص دائماً على أن تتيح للقطيع قدراً من المتاع الحيواني غير المنضبط، لينشغل فيه المستعبدون، ولا يفيقوا إلى حقيقة وضعهم الزري الذي لا يليق بكرامة الإنسان. فربما أنهم لو أفاقوا لحقيقة وضعهم الزري لثاروا من أجل إنسانيتهم المسلوبة، ولطالبوا برد حقوقهم المغتصبة إليهم.. فخوفاً من لحظة الإفاقة هذه يُطْلَق القطيع في المتاع الدنس يغرق فيه همومه، فيلهو.. ولا يفيق!

فإذا جاء الدين الجديد يدعو إلى النظافة الحسية والروحية، وإلى السلوك المنضبط بالضوابط الربانية، تراءى للقطيع الغارق في الدنس أن الدين جاء ليحرمه من هذا المتاع لا ليطهره من دنسه! كالدودة الغارقة في الوحل النتن، إذا حاولت إخراجها منه جذبت نفسها بشدة من بين أصابعك لتزداد توغلاً في الطين!

ولا يصدق هذا القطيع أن الدين الجديد جاء لتطهيره لا لحرمانه إلا بعد أن يتذوق حلاوة الإيمان بالفعل، ويتحرر وجدانه من كل العبوديات الزائفة التي كان غارقاً فيها، ومن بينها العبودية للشهوات!

أما قبل ذلك فإن هذه الشهوات الدنسة تقف حائلاً بينه وبين الاهتداء، إلى جانب التبعية للسادة والخوف من التنكيل.

* * *

إذا فرغنا من الحديث عن موقف الجاهلية من قضية لا إله إلا الله، فإن موقف المؤمنين من الاضطهاد والتعذيب يحتاج كذلك إلى إضافة وإن كان المكتوب فيه جيداً على وجه العموم، ويبلغ درجة من الروعة أحياناً، ذلك أن البطولة تستهوي النفوس دائماً، فتتحدث عنها بحرارة وإعجاب..

([1]) سورة القصص: 57.

نريد فقط أن نضيف إلى الكتابات الموجودة بالفعل مقارنة بين هؤلاء الأشخاص أنفسهم في الجاهلية وبينهم حين صاروا مسلمين، لنبرز أثر الإسلام في نفوسهم.

وربما كان نموذج عمر –رضي الله عنه– متداولاً ومعروفاً بما فيه الكفاية، إذ الفرق شديد الوضوح بين حاله رضي الله عنه في الجاهلية، وحاله في الإسلام.. إنما الذي نريده أن نبرز كيف غيّر الإسلام ملامح الشخصية العربية ذاتها، بينما كانت ما تزال في بيئتها ذاتها التي شكلت هذه الشخصية من قبل.

إن علم الاجتماع الجاهلي يقول إن البيئة هي التي تشكل عادات الإنسان وأخلاقه وطريقة تفكيره واهتماماته وأنماط سلوكه. ويجيء التفسير المادي للتاريخ فيزيد القضية تحديداً فيقول إن الطور الاقتصادي الذي يعيش فيه الإنسان هو الذي يشكل العادات والأفكار والأخلاق والسلوك والتنظيمات والمؤسسات. وكلاهما قد يكون صادقاً إلى حد كبير في تفسير أوضاع الناس في جاهليات التاريخ.. ولكن عيبهما أنهما يغفلان دور العقيدة في تشكيل حياة الإنسان. ومن ثم يفشلان في تفسير تاريخ الإسلام منذ آدم ونوح إلى محمد –صلى الله عليه وسلم–.. إلى آخر التاريخ.

وما نقول إن الإسلام يلغي أثر البيئة بالكلية.. فليس ذلك من هم الإسلام. إنما نقول إنه على وجه التأكيد يقوّم انحرافات البيئة، ويجعل من الإنسان –في أية بيئة، وبصرف النظر عن البيئة– "إنساناً صالحاً" ذا مواصفات خاصة يكتسبها من الإيمان بالله واليوم الآخر، سواء كان في السهل أو الجبل، في الصحراء أو في الأرض الزراعية، في الريف أو في المدينة. هذه المواصفات تكوّن الجوهر الحقيقي للشخصية، ولا يهم بعد ذلك في أي صورة خارجية يتلبس. أما حين يتخلى عن الإيمان بالله واليوم الآخر، ويخرج من كيانه ذلك العنصر الوضاء المشع، فهو عندئذ عبد للبيئة، تشكله بشكلها الخاص، باستواءاتها وانحرافاتها معاً بغير ضابط ولا دليل.

ولقد كان في البيئة العربية الجاهلية –كما في كل بيئة جاهلية– بعض الفضائل، ولكنها كانت منحرفة الوجهة بتأثير الجاهلية. فالكرم في أصله فضيلة. ولكن الجاهلية كانت قد حولته إلى شيء يبذل لكي تتحدث بذكره الركبان (أو "رئاء الناس" كما جاء وصفه في القرآن) والشجاعة في أصلها فضيلة. ولكن الجاهلية كانت قد حولتها إلى غارات سلب ونهب لا يتميز فيها الحق من الباطل (أو حمية جاهلية كما وصفت في القرآن) وكذلك التناصر والتكافل (انصر أخاط ظالماً أو مظلوماً!).

ثم كانت هذه رذائل شتى من أنواع متعددة، عبّر الشعر الجاهلي عن كثير منها، بعضها من طبيعة الجاهلية ذاتها حيثما كانت، وبعضها من خصائص الجاهلية العربية بالذات، وذلك كقول الشاعر:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم، ومن لا يظلم الناس يُظْلَم!

أو قول الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضراً فإنما يُرجّى الفتى كما يضر وينفعا!

أو قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد!

أو قول الشاعر:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات: هل أنت مخلدي!

أو قول الشاعر:

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبذلي وانفاق طريفي وتالدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبّد!

ثم جاء الإسلام وما تغير في هذه البيئة شيء! لا طبيعة البيئة المادية ولا أحوالها الاقتصادية.. إنما تغيرت النفوس.. وكان تغيراً هائلاً هزّ قريشا نفسها وهي تضطهد المؤمنين وتعذبهم بكل ما في طوقها يومئذ من صنوف التعذيب!

لقد كان "الخلع" من القبيلة هو عقوبة الإعدام البطيء في هذه البيئة الصحراوية التي تقدس القبيلة وتجعلها محور ارتكاز الحياة كلها: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكانت أقسى عقوبة توجّه لفرد من الأفراد.. ثم ها هم أولاء أفراد من هذه القبائل يهدّدون بالطرد من القبيلة فلا يهز ذلك شعرة في رءوسهم! ويتلقون قرار الطرد باستخفاف كامل، يغيظ قبائلهم فما تدري كيف تفعل بهم! والمسألة في نفوس أولئك الأفراد غاية في البساطة: لقد

خلعوا هذا "الرب" الذي كانوا يتعبدونه في الجاهلية، فما عاد له عليهم سلطان.. فقد آمنوا أنه لا إله إلا الله!

وكانت الحمية والأنفة وإباء الضيم من سمات الحياة العربية في الجاهلية، لا يحتمل العربي أن يلحق به أذى ويسكت عليه. وأبسط إجراء يفعله أن يجرد سيفه للقتال، ولا يعنيه أن يموت في المعركة. فذلك خير لديه من أن يقال عنه إنه سكت على الضيم، ويظل يعيّر بها بقية عمره، وتعيّر بها قبيلته! ثم ها هم أولاء أفراد يصيبهم الأذى الحسي والمعنوي، ثم لا يتحركون لرد الضيم، ولا تتحرك فيهم الحمية والأنفة، وهم في ذات البيئة، لأنهم ملتزمون بأمر ربهم: "كفوا أيديكم" مع صعوبة كف اليد على مثل هذه النفوس.. ولكنها —على صعوبتها- صارت ممكنة في نفوسهم. فإن الرب الذي كانوا يعبدونه في الجاهلية في صورة عرف الآباء والأجداد لم يعد له سيطرة في نفوسهم بعد أن آمنوا بلا إله إلا الله، ولم يبق إلا الشعور الفطري في كل نفس سوية بكراهية الذل، وقد كظموا ذلك الشعور بإرضاء الله.

ثم إنه لم يكن من موروثات هذه البيئة ولا من طبيعتها أن يحتمل الإنسان الأذى من أجل "قيمة" من القيم..

حقاً لقد كان من موروثاتها أن يقدم الإنسان نفسه للموت في المعركة من أجل شرف القبيلة وكرامتها، وكان ذلك سهلاً على نفوسهم. أما أن يعيش في أذى من أجل مبدأ أو قيمة أو عقيدة، فقد كان شيئاً جديداً كل الجدة على هذه البيئة، لا عهد لها به من قبل. ولذلك قابلته بأشد العجب —مع الغيظ!- وكان حديث "الملأ" في نداوتهم حين يتداولون الحديث في شأن هذه الفئة الخارجة عليهم، التي لا تستجيب لتهديد، ولا يثني عزمها إيذاء! ولقد كان هذا من أثر الإيمان بلا إله إلا الله في نفوس لم يكن يخطر في بالها من قبل أن تخوض مثل هذه التجربة على الإطلاق!

ثم لقد نبتت في هذه البيئة قيمة جديدة أخرى، غريبة عليها، ليست نابعة من طبيعة البيئة، بدليل أنها أثارت دهشة قريش وغيرها من القبائل الجاهلية، ثم ظلت تنمو مع المجتمع الإسلامي الوليد، حتى صارت موضع دهشة من العالم أجمع.. تلك هي "أخوّة العقيدة"..

لقد كان الرباط المعروف من قبل في هذه البيئة هو رباط الدم.. كل قبيلة وحدة متكاملة مترابطة كالحلقة المحكمة، يحمي بعضها بعضا، ويعول بعضها بعضا، ويتكافل بعضها مع بعض، ولكنها تقف موقف التحفز والعداء من الوحدات الأخرى المتكتلة مثلها

في صورة قبائل، إلا أن يكون بينها تحالف موقوت على النصرة في الحرب[1].. ثم ها هم أولاء أفراد لا تجمعهم قبيلة ولا عشيرة بل لا يجمع بينهم جنس ولا لون ولا لغة –ففيهم بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، مع عرب من قريش ومن غير قريش– ها هم أولاء يترابطون ويتكافلون، ويتكامل بعضهم في بعض بصورة لا مثيل لها في تلك البيئة. صورة مستغربة من كل من شاهدها أو سمع عنها، مع أنها في أنفسهم هم بسيطة كل البساطة، لأنها من أخلاقيات لا إله إلا الله، ومن ثمرات الإيمان بلا إله إلا الله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[2] إخوة في الله، يتحابون في الله بأشد مما يتحاب المترابطون برباط الدم في بيئة تقدس رباط الدم!

ثم ها هم أولاء يحبون رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حباً يدهش الجاهلية –ويغيظها– فتنطلق تعلن عجبها ودهشتها على لسان أبي سفيان: "ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمداً".

وفيم الحب؟!

لقد كان الناس في الجاهلية يتحابون –في غير رباط الدم– على المصالح، وبقدر هذه المصالح! ولكنهم قط لم يكونوا يتحابون على احتمال الأذى والمغارم في النفس أو المال.. فهنا تظهر البغضاء الكامنة ويذوب الحب ويتلاشى!

فماذا كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يملك لهم في مكة، ولا حول له فيها ولا قوة، ولا ثروة ولا مال؟!

ما كانوا يتلقون –بحساب الأرض– إلا الأذى الواقع عليهم من المشركين والاضطهاد والتشريد والتعذيب جزاء تعلقهم برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك يحبونه هذا الحب الذي لا مثيل له فيما عهدوا من قبل من مشاعر الحب بين الناس كما يقول أبو سفيان. ولكنه سهل في نفوسهم وطبيعي. فهو حب للنبي المرسل من عند الله، الذي هداهم للا إله إلا الله.

([1]) كان حلف الفضول استثناء فريداً في تلك البيئة، ومع ذلك لم يتسع لأفراد المؤمنين في مكة، ولا لبني هاشم حين وقفوا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم–! فهو يذكرنا بلجان "حقوق الإنسان" التابعة لهيئة الأمم! تستنكر أي عدوان يقع على جماعة من البشر في الأرض، إلا أن يكونوا مسلمين!

([2]) سورة الحجرات: 10.

عشرات من المشاعر العالية والآفاق الرحيبة وأنماط السلوك الفذة، تستحق الوقوف عندها من هذه الزاوية: أنها شيء مستحدث في هذه البيئة، التي لم تكن قد تغيرت مادياً ولا اقتصادياً في تلك الفترة. إنما كل ما تغير فيها هو العقيدة الجديدة التي عمرت هذه القلوب فغيرت كل شيء فيها، وأنشأتها خلقاً آخر..

وهذه الوقفة لازمة لعدة أهداف..

لازمة أولاً لبيان ما تصنعه العقيدة من تغيرات حاسمة في نفوس البشر حين تستولي على قلوبهم بصدق وإخلاص. وهذا البيان ضروري في عصر ينكر أثر العقيدة ويصغر من شأنها، لأنه يعيش بلا عقيدة فينكرها ولا يتذوق حقيقتها.

ولازمة ثانياً في وجه التفسيرات الجاهلية للتاريخ، التي تفسر كل شيء بالبيئة أو بالطور الاقتصادي. وليس أدل على فساد تلك التفسيرات من حدوث هذا التغير الهائل في نفوس الناس، بلا تغير واحد في البيئة أو الطور الاقتصادي، إنما بتغير واحد في عقيدة القلوب.

ولازمة أخيراً في وجه الدعاوي التي تقول إن الإسلام هو نتاج البيئة العربية وإفرازها! وإن محمداً –صلى الله عليه وسلم– زعيم "عربي"، لم يزد على أن جمع فضائل البيئة العربية، ووحد راية العرب فانطلقوا يصنعون الأعاجيب!

إن ما شهدته الجزيرة العربية كان ميلاداً جديداً "للإنسان".. الإنسان كله على وجه الأرض، لا الإنسان العربي وحده. ميلاداً ليس من صنع البيئة، وما كان يمكن أن يكون.. إنما هو ميلاد من عند الله، يحدث للإنسان في أي زمان ومكان حين يؤمن بأنه لا إله إلا الله.. وتبقى بعد ذلك بعض الركائز العربية في الشخصية العربية المسلمة، ولكنها ليست بذاتها صاحبة السيطرة والتوجيه.. إنما صاحب السيطرة والتوجيه هو الإسلام.. الناشئ من الإيمان بلا إله إلا الله.. وهو جوهر فعال في كل نفس، عربية أو غير عربية. كما كان فعالاً في نفس صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي، على أعلى مستوى بشري! وكما كان فعالاً فيما تلا ذلك من التاريخ الإسلامي في نفس صلاح الدين الكردي، وقطز المملوكي، ومحمد الفاتح التركي، وغيرهم من عظماء الإسلام!

* * *

وفي مكة –في فترة الاضطهاد– كانت دار الأرقم هي المدرسة التي تربى فيها المؤمنون.

ومما يؤسف له أن الأخبار لدينا قليلة عما كان يجري في دار الأرقم بين الرسول –صلى الله عليه وسلم– والصحابة رضوان الله عليهم، مع أن هذه الأخبار كانت قمينة أن تعطينا منهجاً كاملاً للتربية الإسلامية لا نحتاج معه إلى الاجتهاد!

كل ما نملكه هو أن نستنبط منهج التربية من القرآن أولاً، ومن السنة المطهرة ثانياً، ثم من الحصيلة الفعلية في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، فإن كل ما كانوا عليه من خصال وسمات هو الحصيلة الفعلية للتربية التي تلقوها من الرسول –صلى الله عليه وسلم– على هدى كتاب الله.

ونقول بادئ ذي بدء لو أن محمداً –صلى الله عليه وسلم– كان "زعيماً" بشرياً كما تريد الاتجاهات المنحرفة أن تصنع منه، فقد كانت أمامه عدة بدائل، كلها كان يمكن أن يعطيه "الزعامة"، وكلها كان يمكن أن يعطي "الأمة العربية" قدراًمن الخير، ودفعة إلى الأمام.

كان أمامه أن يكون زعيماً سياسياً يوحد الجزيرة تحت قيادته..

وحقيقة إن هذا أمر كان صعب المنال بالنظر إلى النزاعات القبلية الطاحنة التي كانت تأكل العرب بثاراتها المتأصلة، التي منعت تجمع هذه القبائل في شكل أمة ردحاً من الزمن لا يعلمه إلا الله، برغم وجود كل عوامل التجمع التي يقول علم الاجتماع الجاهلي إنها هي التي تنشئ "الأمة": وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الجنس، ووحدة المعتقدات، ووحدة التراث، ووحدة الثقافة، ووحدة اللغة، ووحدة الجنس، ووحدة المعتقدات، ووحدة التراث، ووحدة الثقافة، ووحدة الاهتمامات.. إلخ. ولكن شخصية محمد –صلى الله عليه وسلم– كانت من العظمة بحيث يمكن أن يخطر في بعض العقول أنه مستطيع أن يوحد بعض القبائل على الأقل، إن لم يكن كلها، ويجعل منها نواة يجبر بها بقية القبائل على الاتحاد![1]

وكان أمامه أن يكون زعيماً قومياً يقود العرب لاسترداد سيادتهم على الأماكن التي يحتلها الفرس والروم من الجزيرة، بعد خلع "العملاء" الذي يمكّنون للفرس والروم في الأرض العربية مقابل المصالح المتبادلة بينهم وبين الدولتين "الامبرياليتين" اللتين كانتا سيدتي العالم في ذلك الحين، ومن ثم يدعو إلى الوحدة "القومية" فيستجاب له!

([1]) نقول هذا من باب الجدل فقط، وإلا فقد قال الله، وقوله الفصل: (لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) [سورة الأنفال: 63].

وكان أمامه أن يكون زعيماً اجتماعياً يناضل لإنصاف الفقراء من جور الأغنياء الذين يطحنونهم طحناً، ويأكلون جهدهم، ويغرقون في الترف الفاجر بينما الفقراء لا يجدون ما يقيم أودهم.. وكان قمينا حين تنجح "الثورة" أن يجعل من أولئك الفقراء جيشاً يستخدمه في توحيد الجزيرة، وفي إقامة لون من العدل غريب على الأرض، وتقدمي في الوقت ذاته!

وكان أمامه أن يكون زعيماً أخلاقياً يدعو العب إلى تطهير أرواحهم من الدنس الذي يعيشون فيه: الخمر والميسر والفواحش، والوقت الضائع الذي ينفق في غير شيء نافع، ويهبط بأصحابه إلى درك من الضياع والتشتت لا يليق بالآدميين. ثم يجمّع الطاقات المتطهرة التي استجابت للدعوة، فيجعل منها قوة بناءة، ترتفع "بالوطن العربي" إلى مستوى يجبر جيرانه على احترامه، بدلاً من نظردة الازدراء الشديد التي ينظر بها كل من الفرس والروم إلى العرب، ويستنكفون أن يتعاملوا معهم معاملة الأنداد!

وربما كانت هناك بدائل أخرى!

ولكن محمداً النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يفعل شيئاً من أولئك جميعاً.. إنما وجهه ربه الحيكم الخبير أن يقول للناس: لا إله إلا اله. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

وعلم الحكيم الخبير أنه من هذا المنطلق وحده تخرج خير أمة أخرجت للناس.

وعلم الحكيم الخبير كذلك أنه من هذا المنطق وحده تتحقق كل الأهداف الأخرى التي تسعى إليها الزعامات البشرية المتفرقة.. تتحقق جميعاً.. وتتحقق على المستوى الأعلى.. مستوى "الإنسان"!

وعِلْمُ الله هو العلم الحق، الذي ينبغي للبشر أن يخضعوا له علمهم، ولا يخالفوه:

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[1].

إن لا إله إلا الله هي الميلاد الجديد للإنسان.

إنها تعيد ترتيب الذرات في الكيان البشري، كما تعيد "المغنطة" ترتيب الذرات في قطعة الحديد، فتنشئ منها شيئاً جديداً، له جاذبية، وله فاعلية، وفيه طاقة تحرّك، وترفع، وتضيء.

(1) سورة الملك: 14.

وكل دعوة جزئية –في مجال من الحياة دون مجال، ومجال من النفس دون مجال– تحدث شيئاً من التغيير في الكيان البشري دون شك، وشيئاً من التغيير في الواقع البشري كذلك، ولكن يظل الاضطراب سائداً في الحياة وفي النفس، لأن التغيير الجزئي لا يصلح الفساد كله، والترميم الجزئي لا يقوّم الانحراف الأصلي..

والفساد الأصلي ينشأ من اتخاذ آلهة من دون الله، واتباع مناهج غير منهج الله. ومن ثم لا يصلحه إلا عبادة الله وحده دون شريك، واتباع منهجه وحده دون غيره من المناهج.. وهذه هي لا إله إلا الله!

ولكي تؤدي لا إله إلا الله وظيفتها تلك في النفس البشرية والواقع البشري، فلا بد أن تأخذ مسارها في القلب البشري حتى أعماقه، بحيث يصفو لها ويَخْلُص، وتنتفي منه الأوشاب التي تعكر الصفو، والأدران التي تحول دون الخلوص..

وتلك كانت التربية التي قام بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في دار الأرقم، والتي أخرجت ذلك الجيل الفريد، الذي لم يتكرر بصورته تلك في التاريخ.

إنها مهمة شاقة، وبطيئة في ذات الوقت.. فالنفس لا تخلص من هواتفها ورغباتها وشهواتها وتطلعاتها بين يوم وليلة. وليس المطلوب على أي حال أن تكبت هذه الرغبات والشهوات. فالكبت ليس هو طريق التربية في الإسلام. وليس هو الطريق الذي يؤدي إلى رفعة النفس وانطلاقها للبناء. إنما هو الانضباط بالضوابط الربانية، وتوجيه الطاقة كلها لله، بحيث تصبح المشاعر لله، والأفكار لله، والأعمال لله.. فيصبح الإنسان "عبداً ربانياً" كما سماه الله.

جهد مجهد.. يحتاج من المربي إلى عظمة روحه، وسعة صدره، وطول صبره، وكل حبه، وكل رعايته.. وكل ذلك أعطاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من نفسه على أعلى مستوى عرفه التاريخ.

وإذ كنت نتحدث هنا عن التاريخ الإسلامي لا عن التربية الإسلامية –رغم تشابكهما– فلا نستطيع هنا أن نتوسع في الحديث عن منهج التربية الذي ربى به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أصحابه، إنما نشير مجرد إشارات[1]:

([1]) انظر بالتفصيل إن شئت كتاب "منهج التربية الإسلامية" بجزئيه.

تحدثنا كتب السيرة أن الصحابة –رضوان الله عليهم- كان كل منهم يظن أنه هو الأثير عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم-! وتلك قمة في التربية لا يبلغها كل مرب ولو اجتهد في ذلك! ولكنها كانت من العطاء الذي تفيض به نفس رسول الله –صلى الله عليه وسلم- على أصحابه. بل إن تسميته –صلى الله عليه وسلم- لتلاميذه وحوارييه بأنهم "أصحابه" لهي ذاتها لفتة تربوية عالية، تبث الثقة في نفوسهم، وتبعث فيهم الحرص على أن يكونوا على المستوى الذي يستحق هذا اللقب العزيز، فالصاحب ند ورفيق، وهنيئاً لهم –وهم "اتباع" رسول الله صلى الله عليه وسلم- أن يرتفعوا إلى مرتبة "الصاحب" و"الرفيق"!

ونتعلم من كتاب الله ومن كتب السيرة كيف كانت تلك النفوس تُوجَّه إلى الله، تذكره آناء الليل وأطراف النهار:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ)[1].

والرسول –صلى الله عليه وسلم- يعلمهم الدعاء الذي يدعون به الله حين يصبحون وحين يمسون، وحين تطلع الشمس وحين يجن الليل، وحين يضعون جنوبهم للنوم وحين يستيقظون، وحين يرون الهلال، وحين يرون النبتة النابتة وحين يرون الطير وحين يرون السحاب المسخر بين السماء والأرض، وحين ينزل المطر وترتوي الأرض، وحين يشربون جرعة الماء، وحين يأكلون لقمة الخبز، وحين يبسط لهم الله في الرزق أو يقدر عليهم.. وحين.. وحين.. وحين.. فيصل بهم إلى أن يصبحوا كما وصفهم الله: (يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ)[2].

وعلى يد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وفي صحبته الكريمة تعلموا "الأخوة" التي ميزت المؤمنين بهذا الدين، يبدؤها بنفسه –صلى الله عليه وسلم-، فيعطي "الأخوة" لكل واحد من أصحابه، فيتعلمون كيف يحب كل واحد منهم "أخاه" ويعطيه من نفسه كما يعطي رسول الله –صلى الله عليه وسلم- من نفسه لكل واحد منهم.

وفي المحنة –محنة التمحيص- تعلموا كيف ينظرون إلى متاع الأرض في حجمه الحقيقي، لا حجمه الضخم الذي يبدو به حين يخلد الإنسان إلى الأرض ويلصق بالطين! وكان القائد الرائد عليه الصلاة والسلام هو النموذج الواقعي الذي يتربون على هديه، ويتعلمون بالأسوة

([1]) سورة الروم: 17- 18.

([2]) سورة آل عمران: 191.

فيه كيف يصبرون على الجوع، ويصبرون على الأذى، ويصبرون على الألم، ويصبرون على الاضطهاد والصد.. ويتوجهون بصبرهم كله إلى الله، ويتطلون إليه وحده أن يخلصهم مما هم فيه من البلاء.

ولنلحظ أن الرسول نفسه –صلى الله عليه وسلم– لم يتلق وعداً واحداً في فترة التربية بمكة بأن يرى النصر والتمكين بشخصه في الحياة الدنيا. إنما كان الوعد الرباني يتنزل بالتمكين لهذا الدين، والقضاء على الكافرين. أما ما يتعلق بشخص الرسول –صلى الله عليه وسلم– فقد كان يتنزل عليه أمثال هذه الآيات:

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ)[1].

(فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)[2].

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ)[3].

فتجرد قلبه خالصاً لله سبحانه وتعالى، وربّى على هذا التجرد أصحابه –رضوان الله عليهم–، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولم يعد يشغلهم حتى أن يتم التمكين في الأرض على أيديهم، وسلموا أمرهم كله لله.. فلما علم سبحانه من قلوبهم أنها تجردت له، وأسلمت له قيادها، مكّن لهم بالهجرة إلى المدينة، بعد أن وجدت النواة التي أخرجت فيما بعد "خير أمة أخرجت للناس".

* * *

ولا يفوتنا أن نقف وقفة في هذا الدرس عند الأمر الرباني للمؤمنين في مكة أن يكفوا أيديهم، ولا يردوا على عدوان قريش.

إن لهذا الأمر حكماً كثيرة، نستنبطها اجتهاداً، لأنها لم تذكر صريحة في آيات القرآن ولا أحاديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– فقد يكون من بينها أن المؤمنين كانوا في مكة عدداً ضئيلاً بانسبة لقوة قريش الباطشة، فلم يكن من الحكمة أن يدخلوا في معركة غير متكافئة يمكن أن يقضى عليهم فيها دون أن تستفيد الدعوة الناشئة شيئاً من هذه المعركة.

([1]) سورة الرعد: 40.

([2]) سورة غافر: 77.

([3]) سورة الزخرف: 41-42.

وقد يكون من بينها تصفية قلوب هذه الفئة المؤمنة من طبيعة كانت غالبة على العرب في الجاهلية هي "إباء الضيم" بمعنى القتال من أجل الكراحة الشخصية أو كرامة القبيلة، ولكن دون اعتبار لأي معنى أو قيمة من القيم تتجاوز الفرد والقبيلة، وهي طبيعة إن كانت لها دوافعها في البيئة العربية الجاهلية فإنها لا تصلح لحمل الدعوة، التي يراد تربية جنودها على التجرد الكامل مما يتعلق بأشخاصهم أو ذوي قرباهم، ليكون انفعالهم لله، وتحركهم لله، وقتالهم لله، ولا يكون لأشخاصهم الثقل في الأمر.

وقد تكون هناك حكم أخرى كثيرة غير ذلك.

غير أنه يلفت نظرنا من بين الآيات القرآنية التي تنزلت ما بين الأمر بكف الأيدي والإذن بالقتال[1]، هذه الآية:

(وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)[2].

تلفت نظرنا حكمة معينة في كف أيدي المؤمنين عن القتال في تلك الفترة، وهي أنه لا بد أن تستبين سبيل المجرمين قبل الدخول في معركة مع أعداء لا إله إلا الله.

ولنتصور أن المؤمنين دخلوا المعركة مع قريش في مكة، قبل أن يتبين الناس حقيقة المعركة، وأنها معركة لا إله إلا الله مع الطاغوت.. معركة من أجل إزالة الآلهة الزائفة وتعبيد الناس لربهم الحق، وتخليصهم من العبودية لغير الله.. فما الصورة التي كان يمكن أن يأخذها الناس عن تلك المعركة؟

ستكون الصورة أنها معركة داخلية بين بعض الأفراد الخارجين على "النظام"، الخارجين على أهليهم وذويهم وأولي الأمر فيهم، وبين "السلطة الشرعية" التي تقوم بتأديبهم لتستتب الأمور على الوضع الذي كان عليه قبل ظهور أولئك المشاغبين الناشزين الذين خرجوا على كل عرف مألوف. ثم تنقلب المعركة –إن طالت– إلى ضارب ومضروب، وغالب ومغلوب، يتحدث الناس بأخبارهم ما بين شامت أو ناقم أو متعاطف أو متفرج من بعيد!

فهل كانت الدعوة تفيد شيئاً من المعركة على هذه الصورة؟

([1]) قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [سورة الحج: 39].

([2]) سورة الأنعام: 55.

أما حين تتضح القضية.. حين تستبين سبيل المجرمين، بعد فترة من "تفصيل الآيات" في جو خال من غبش المعركة، لا يدخل فيه المؤمنون إلا رموزاً للعقيدة الحقة والمنهج الصحيح، فعندئذ تتغير النتائج كثيراً بالنسبة للدعوة، وتتحقق سنن ربانية كثيرة. فقد رأينا أن الصبر العجيب الذي صبره المؤمنون على الاضطهاد والتعذيب والمحاصرة والتجويع –دون أن يردوا– كانت له آثاره في جلب مدد جديد للدعوة، وتوسيع القاعدة المؤمنة، إذ جاء الأنصار من المدينة، وقد آمنوا على ضوء اللهب الذي يصلاه المؤمنون في مكة، فكانت منهم القوة التي جعلت الهجرة إلى المدينة ممكنة وفعالة، والتي جعلت اللقاء مع العدو في المعركة ممكناً كذلك. وكان ثبات المؤمنين في مكة وصبرهم –مع عدم الرد– أكبر مقنع لهؤلاء الأنصار أن الذي يصبر عليه أولئك المؤمنون ليس قضية شخصية –فما يصبر الناس كل هذا الصبر على قضية شخصية!– وأنه لا بد أن يكون حقاً– فما يصبر الناس كل هذا الصبر على باطل!– وأنه مسألة أعلى وأغلى من الأشخاص في ذواتهم، فإنهم يضحون بأنفسهم ولا يضحون بعقيدتهم تلك!

وهؤلاء الأنصار أنفسهم لم يكونوا مجرد "جماهير" متحمسة للقضية بواجدانها! إنما كانوا قوماً آمنوا فجندوا أنفسهم للقضية التي آمنوا بها. وفرق –من جميع الوجوه– بين التحمس بالوجدان وبين تجنيد الإنسان نفسه للعقيدة التي يؤمن بها. ذلك يتمنى النصر من بعيد وهو قاعد، وهذا يقدم نفسه رخيصة حين يدعو الداعي إلى الجهاد. سألهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عما يقدمونه للدين الجديد فقالوا: نقدم أنفسنا! لو خضت بنا البحر خضناه، ولو استعرضت بها الصحراء قطعناها معك! وكانوا صادقين! وهؤلاء هم "الأنصار" الذين تعتز بهم الدعوة، لا مجرد الحماسة الوجدانية التي تجيء في لحظة، وتذهب كذلك في لحظة حين يقع البأس أو يقع اليأس!

وحين تستبين سبيل المجرمين تقع المعركة وقد حدد كل من الفريقين موقفه بلا غبش في الرؤية، ولا غبش في النية ولا في الوجهة: (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ)[1] كما قال رب العالمين.

وعندئذ تتحقق سنة من سنن الله: أن تتغلب الفئة القليلة المؤمنة على أضعافها من الفئة الكافرة، ويدخل كثير من "المتفرجين" في صف الإيمان!

* * *

(1) سورة الأنفال: 42.

إذا فرغنا من هذا الدرس ننتقل إلى المرحلة المدنية من بعثة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، مرحلة قيام المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، بعد أن تكونت الجماعة المسلمة في مكة.

والكتابات الموجودة عن هذه المرحلة وافية في مجموعها، وإن كان لا بأس من بعض إضافات أو توجيهات.

ينبغي أن نتتبع نمو المجتمع المسلم في المدينة على أنه الانبثاق المباشر للإسلام، والثمرة المباشرة للتربية الإسلامية، بما يتنزل من عند الله من التشريعات والتنظيمات والتوجيهات المواكبة لنمو المجتمع وملابساته المتجددة، وبما يصدر عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– من أوامر ونواه وتوجيهات ومواعظ، إلى جانب التربية بالأحداث بجميع أنواعها، سواء أحداث النصر كما في وقعة بدر الكبرى، أو أحداث الهزيمة كما وقع في أحد، وفي حنين في بداية المعركة، أو أحداث الزلزلة كما وقع في وقعة الأحزاب، وفي حديث الإفك، أو المخالفات التي وقعت من بعض المؤمنين كالثلاثة الذين خلفوا في وقعة العسرة، أو أحداث الكيد اليهودي المستمر في المدينة لحين إجلائهم عنها. وكلها دروس تربوية في ذات الوقت الذي هي فيه جزء من التاريخ. فواجبنا ونحن نكتبها للتاريخ أن نكتبها للعبرة كذلك، فدرس التاريخ درس تربوي كما أشرنا من قبل. ولن تظهر العبرة إذا درسنا هذه الأحداث على أنها أحداث مفردة قائمة بذاتها حدثت في فترة البعثة النبوية –وهذا هو الغالب في كتاباتنا للطلاب بصفة خاصة– إنما تظهر العبرة حين ندرسها على أنها سنن ربانية يمكن أن تتكرر كلما تكررت ظروفها.

يقول تعالى في شأن غزوة بدر:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)[1].

ولا تكون هناك عبرة إذا كانت وقعة بدر حادثاً مفرداً قائماً بذاته، غير قابل للتكرار بصورة من الصور. إنما العبرة فيه –كما هي مذكورة في الآية– أن الله يؤيد بنصره من يقاتل في سبيل الله مخلصاً متجرداً كما كان المسلمون في بدر، فينصر الفئة القليلة المؤمنة على أضعافها من الكافرين، ويمكّن للحق حين يكون في الأرض جنود يستحقون هذا التمكين في الميزان الرباني:

([1]) سورة آل عمران: 13.

(الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ)[1].

فلم يكن النصر في بدر إذن حادثاً فردياً، إنما كان سنة. سنة قابلة للتكرار، وإن لم يكن بنفس الصورة التي وقعت في بدر. وهذا هو الدرس الذي ينبغي أن نأخذه من هذه الواقعة التاريخية. أما دراستها كواقعة مفردة –مهما اجتهدنا في إبراز البطولات الفذة التي حدثت، وتصوير روعة المعركة، وهي روعة فائقة الحد –دراستها كواقعة مفردة يبطل مفعولها، لأنه يحولها من سنة متكررة إلى حادثة فريدة غير قابلة للتكرار، فيضيع رصيدها المذخور للأمة المسلمة في تاريخها المقبل كله، وتضيع قوتها الدافعة لأي جيل من أجيال المسلمين يريد أن يستأنف الطريق!

وإبراز السنة الإلهية في هزيمة أحد وحنين لا يقل أهمية عن إبرازها في النصر في وقعة بدر ووقعة الأحزاب وغيرها من الوقائع. فالدروس الإيمانية المستفادة من الهزيمة كالدروس الإيمانية المستفادة من وقائع النصر سواء بسواء، كلها دروس تربوية بمقدار ما تعرف المسلم بالسنن الربانية، وبمقدار ما تربط قلبه بالله. وحين تعرف الأمة المسلمة بأي شيء تحرز النصر، وبأي شيء تقع لها الهزيمة، تكون قد خطت خطوات على الطريق.

لذلك ينبغي أن يكون مرجعنا في دراسة تلك الفترة القرآن، وكتب السيرة، وليس كتب التاريخ وحدها. فالقرآن هو الذي يبين عبرة الحديث ونتائجه، وحكمة الله من تقديره، وهو الذي يعطي الدرس التربوي المقصود. وحين يعيش الدارس لهذه الفترة مع القرآن والسيرة النبوية وسير الصحابة رضوان الله عليهم، فلن يعود تاريخ تلك الفترة في حسه مجرد أحداث ووقائع.. في سنة كذا حدث كذا.. إنما يصبح شيئاً حياً تتنامى معه مشاعره الإيمانية ووعيه الإيماني، وعيه بالسنن الربانية وكيفية فعلها في واقع البشر، ووعيه بحركة تلك الجماعة المؤمنة التي كتبت التاريخ: كيف كان رسوخ الإيمان في قلوبها وكيف يكون الثقل الواقعي للإيمان حين يرسخ في القلوب.

وينبغي أن نبرز من ملامح ذلك المجتمع تلك الأخوة العميقة في الله، التي جمعت بين الأوس والخزرج، بعدما عاشتا سنيناً متطاولة في حرب لا تفتر، والتي منّ الله بها على رسوله –صلى الله عليه وسلم–:

([1]) سورة الحج: 41.

(..هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1].

وجمعت كذلك بين المهاجرين والأنصار في تلك الصورة الفريدة الخالدة في التاريخ، التي يتقاسم فيها الأنصار كل ما يملكون مع المهاجرين، والتي تصل إلى هذه الذروة التي جاء وصفها في كتاب الله:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[2].

كذلك الالتزام العجيب بما أنزل الله، إلى حد التوقف الكامل عن التصرف في الأمر حتى ينزل الله بياناً فيه، أو سؤال الرسول –صلى الله عليه وسلم– عنه، كما ورد في الآيات المبدوءة بقوله تعالى: "يسألونك" أو "يستفتونك" ثم المسارعة بالتنفيذ دون تلكؤ حين يتنزل الأمر الرباني، أو يصدر الرسول –صلى الله عليه وسلم– أمره. كما حدث حين نزل تحريم الخمر إذ أرسل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– منادياً ينادي في طرقات المدينة: أيها الناس! ألا إن الخمر قد حرمت! فمن كان في بيته دنّ خمر أراقه، ومن كان في فمه شربة خمر أراقها! حتى ظلت المدينة أياماً تفوح الخمر في طرقاتها! قارن ذلك بما تبذله المجتمعات "الراقية!" اليوم في مكافحة الإدمان.. والنسبة آخذة في الازدياد! وكما حدث من النساء المؤمنات حين نزلت آية الحجاب، إذ تصف عائشة رضي الله عنها مسارعتهن إلى تنفيذ أمر الله: "والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً بالكتاب ولا إيماناً بالتنزيل. لقد نزلت سورة النور (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل فيها، ما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها، فأصبحن يصلين الصبح معتجرات كأن على رءوسهن الغربان"[3].

إن مجتمع المدينة هو الصورة المثالية للمجتمع المسلم، وهو كذلك التطبيق المثالي للإسلام. ومن ثم ينبغي لنا في أثناء دراسته أن نقوم بشيئين في آن واحد، كل منهما يخدم الآخر: أن ندرس ذلك المجتمع من خلال مبادئ الإسلام، وندرس الإسلام من خلال التطبيق الواقعي في ذلك المجتمع.. فهما صورتان متطابقتان.

([1]) سورة الأنفال: 62-63.

([2]) سورة الحشر: 9.

([3]) رواه الحافظ عن ابن أبي حاتم.

* * *

على أننا لا ينبغي أن تأخذنا مثالية ذلك المجتمع فنقع في غلطة تصويره في صورة غير بشرية! فذلك –فوق مجانبته للحقيقة العلمية التاريخية– أمر ضار لا ينفع! أوأقرب الضرر منه هو صرف الهمة ابتداء عن محاولة الوصول إلى مثل ذلك المجتمع أو قريب منه، على أساس أنه مجتمع فاق مستوى البشر، ونحن إن نحن إلا بشر! وبذلك نكون قد دمرنا أهدافنا بأيدينا من حيث ظننا أننا نخدم تلك الأهداف!

إنه مجتمع فذ، نعم! ولكنه مجتمع بشري، فيه كل خصائص البشر، وفيه أيضاً ضعف البشر وأخطاؤهم وسقطاتهم: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[1].

إن الذي وقع للمجتمع الأول لم يكن خروج ذلك المجتمع عن بشريته وتحوله إلى ملائكة! كلا! وما يكلفهم الإسلام ذلك! والرسول –صلى الله عليه وسلم– سيد البشر جميعاً– يوحى إليه أن يقول للمعاندين من كفار قريش: (سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً)[2].

إنما ارتفع ذلك المجتمع إلى الذروة التي ارتفع إليها بأخذ مندوبات الإسلام ومستحباته كأنها تكليف واجب التطبيق، فتطوعوا بما لم يفرض عليهم، تقرباً إلى الله، وحباً لرسوله –صلى الله عليه وسلم–. وكان اليوم الآخر حاضراً على الدوام في قلوبهم، يعيشونه في كل خطرة فكر وخفقة قلب وحركة جسد، فيظلون يرتقون على مدارج الطاعة حتى يصلوا إلى ذلك المستوى الرفيع الذي وصفهم الله به:

(..يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[3].

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)[4].

([1]) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذي.

([2]) سورة الإسراء: 93.

([3]) سورة آل عمران: 191.

([4]) سورة فصلت: 30.

ولكنهم بعد بشر! تمر عليهم لحظات ضعف أحياناً، وتهتف بهم رغبات الأرض أحياناً، ويميل بهم الهوى البشري أحياناً، بل يقع بعضهم في الخطيئة أحياناً.. ولكنهم سرعان ما يعودون.. وهذا الذي يميزهم:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)[1].

وقد يكون من المناسب تربوياً بالنسبة للدارس الصغير في المراحل الأولى أن نعطيه الصورة البيضاء اللامعة، لأنه –فطرياً– في مرحلة الإعجاب بالبطولة والإعجاب بالنموذج الفذ، فيكون إبراز النموذج الفذ أفعل في تربيته على الفضائل المطلوب تربيته عليها. ولكن الدارس الكبير، والقارئ الناضج يجب أن يكون على بينة كاملة من بشرية ذلك المجتمع، على الرغم من كل النماذج الفريدة التي برزت فيه.

* * *

وحين نفرغ من دراسة المجتمع المسلم في المدينة على هذا النحو الذي يبرز التطابق الكامل بين الإسلام في مفاهيمه ومبادئه، والإسلام في صورته التطبيقية، مع إبراز بشرية ذلك المجتمع في الوقت ذاته، وحدوث الأخطاء البشرية الطبيعية فيه، وتوجيهات القرآن والسنة لتصحيحها أولاً بأول، ننتقل إلى موضوع آخر من موضوعات تلك الفترة، وهو الصراع الذي دار بين هذا المجتمع المسلم وبين الجاهلية في بقية الجزيرة العربية، والذي يُدْرس عادة تحت عنوان "الغزوات".

وقد كتب كلام طيب كثير في وصف هذه المواقع، يرجع السبب الأول في نقائه وسلامته إلى أنه مأخوذ من كتب السيرة، ومن المصادر الإسلامية الأصيلة، لا من مراجع المستشرقين! ولن نضيف إليه إلا إضافة واحدة لها دلالتها الخاصة في دراستنا الهادفة.

قلنا من قبل إن موقف الجاهلية من دعوة لا إله إلا الله لم يكن مسألة شخصية ولا فردية. إنما هي ظاهرة بشرية متكررة حيثما وجدت جاهلية ووجدت دعوة للا إله إلا الله في أي مكان في الأرض وفي أي زمان في التاريخ.

(1) سورة آل عمران: 135-136.

والصراع الذي دار بين الدولة المسلمة في المدينة وبين قريش وبقية القبائل العربية إنما هو تحقيق هذه الظاهرة، وكان لا بد أن يحدث لأنه سنة حتمية من سنن الله في الأرض، في الصراع بين الحق والباطل.

لا تدع الجاهلية دعوة الله تتمكن في الأرض وهي قادرة على خنقها وإبادتها! لم يحدث ذلك في التاريخ كله، ولا يمكن أن يحدث إلا أن يشاء الله ذلك:

(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)[1].

وحتى هنا فإن السنة لم تتغير، سنة محاربة الجاهلية لدعوة لا إله إلا الله، إنما الذي جرت به مشيئة الله هو أن قوم يونس آمنوا، فلم يعودوا إذن جاهليين!

أما الجاهلية المصرة على الكفر فهي في حرب دائمة لا تفتر:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[2].

حتى المهادنة والمسالمة من جانب الدعوة لا يقبلونها!

(وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[3].

إنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أنها دعوة الحق، ويعرفون في قرارة أنفسهم كذلك أنهم على الباطل ولو كابروا وأظهروا غير ذلك:

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً)[4].

([1]) سورة يونس: 98.

([2]) سورة إبراهيم: 13.

([3]) سورة الأعراف: 87-88.

([4]) سورة النمل: 14.

ويعرفون فوق ذلك أن الحق متى استقر في قلوب فئة مؤمنة راسخة الإيمان فهو في طريقه إلى مزيد من القلوب، وهم في طريقهم إلى مزيد من الخسران. لذلك لا يمكن أبداً أن يهادنوا الدعوة إلى الإسلام، ولو لم تتعرض لهم بكلمة واحدة، وطلبت المهادنة كما طلبها نبي الله شعيب!

ثم تكتمل السنة الربانية حين تثبت الفئة المؤمنة على الكيد المستمر، وعلى محاولة الفتنة، وعلى التعذيب والتشريد والاضطهاد، وكل وسائل الضغط والإرهاب.. تكتمل السنة الربانية فيتغير الوضع، ويحدث التمكين.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[1].

* * *

قدر الله لهذا الدين، الذي أرسل به رسوله الخاتم –صلى الله عليه وسلم– ليظهره على الدين كله:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)[2].

قدّر الله له أن يكتمل من جميع جوانبه في حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وحياً من السماء وتطبيقاً واقعياً في الأرض. فإذا كان موسى –عليه السلام– لم يشهد في حياته إقامة الدولة المسلمة في الأرض المقدسة بسبب تقاعس بني إسرائيل عن اقتحام المعركة، وقولهم لنبيهم: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)[3] فإن أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– لم تتقاعس عن اقتحام المعركة ضد كفار قريش وقالت لنبيها –صلى الله عليه وسلم: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون! وهكذا ثبتت الدولة في الأرض، ومكن الله لها في حياة نبيها –صلى الله عليه وسلم–، واستجابت الجزيرة كلها سلماً أو حرباً، فوجدت القاعدة التي يتم الانطلاق منها لنشر الدعوة في فجاج الأرض..

---

(1) سورة النور: 55.

(2) سورة الفتح: 28.

(3) سورة المائدة: 24.

وإذا كان عيسى –عليه السلام– لم يقدر له أن ينشئ الدولة المسلمة ويرعاها في حياته، لأسباب قدرها الله..

فقد قدر الله للنبي الخاتم –صلى الله عليه وسلم– أن يؤسس دولته بنفسه، ويرعاها على عينه.

ثم قدر الله أن يقوم الحكم بما أنزل الله واقعاً معاشاً في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم–، نموذجاً غير مسبوق!

فلئن كان داود وسليمان قد حكما في دولتهما بما أنزل الله فترة من الزمن، فقد كانت حكومة خاصة ببني إسرائيل وحدهم، وشريعة خاصة بهم وحدهم –بصرف النظر عما حدث فيها من تحريفات فيما بعد– ولم تكن دعوة مفتوحة للبشرية كافة، تتعلم منها كيف يطبق حكم الله في الأرض، وكيف تكون الأرض حين يحكمها منهج الله!

أما النصارى فإنهم حين أقاموا دولتهم في القرن الرابع الميلادي كانوا قد حرفوا دينهم، وفصلوا العقيدة عن الشريعة، فلم يحكموا بما أنزل الله، وإنما بأهواء البابوات الذين يحلون لهم ويحرمون من دون الله:

(اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[1].

ولكن الله قدر لدينه الخاتم شأناً آخر..

فبادئ ذي بدء كان اكتمال الدين بهذه الرسالة التي أنزلت على محمد –صلى الله عليه وسلم–:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)[2].

ثم إن هذا الدين نزل للبشرية كافة، وللزمن المقبل كافة.. فهو دعوة مفتوحة للناس كلهم، والناس كلهم مدعوون أن يدخلوا فيه ويصبحوا مسلمين.

([1]) سورة التوبة: 31.

([2]) سورة المائدة: 3.

وكان من تقدير الله –وهو المنعم الوهاب سبحانه- أن يطبق المنهج الرباني تطبيقاً كاملاً في حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم- وتحت إشرافه، ويتدرب عليه صحابته –رضوان الله عليهم- فيقيموا من بعده حكماً إسلامياً كاملاً، يعتبر امتداداً لحكمه –صلى الله عليه وسلم-، ويقيض الله بذلك لهذا الدين تجربة واقعية كاملة، تظل رصيداً للحكم الإسلامي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يرجع إليه المسلمون كلما أرادوا أن يقيموا حكم الله في الأرض..

خصوصيات خص الله بها هذه الدعوة وهذه الأمة، داخلة كلها في قوله تعالى:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...)[1].

وينبغي للدارس أن يتعرف على هذه الخصوصيات وهو يدرس تاريخ هذه الفترة بالذات ليتهيأ لاستقبال تاريخ أمة فريدة ليست كأي أمة في التاريخ! الأمة التي طبقت منهج الله أطول فترة أتيحت لأي أمة في التاريخ!

* * *

فترة صدر الإسلام هي الامتداد الواقعي لفترة البعثة النبوية، والامتداد الواقعي لتطبيق الإسلام في صورته المثالية في واقع البشرية.

إن هذه المثالية الواقعية في هذا الدين، والواقعية المثالية في تطبيق القرون المفضلة له.. لهي كذلك من خصوصيات هذا الدين، وخصوصيات الأمة التي قامت بتطبيقه.

يشير المستشرق الكندي المعاصر ولفرد كانتول سميث Wilfred antwell Smith في كتابه "الإسلام في التاريخ الحديث: Islam in Modern History"إلى هذه الخاصية في مقارنة يعقدها بين الإسلام والنصرانية، فيقول إن النصرانية أرجأت تحقيق ملكوت الرب (يعني نظامه المثالي) إلى الآخرة، على اعتبار أنه مستحيل التحقيق في الحياة الدنيا، لأن الإنسان خاطئ بطبعه، قاصر بطبعه، معوج بطبعه، فلا يمكن أن يستقيم. أما الإسلام فقد اعتبر تحقيق ملكوت الله هو مهمة الإنسان في الحياة الدنيا لا في الآخرة. ولذلك يسعى المسلمون دائماً إلى محاولة تطبيقه، وإلى تقويم عجلة التاريخ كلما انحرفت عن الطريق، ولو ضحوا بأنفسهم في سبيل ذلك، ومن ثم فإن التضحية في الإسلام

([1]) سورة آل عمران: 110.

(يقصد الجهاد وإن لم يسمه باسمه!) له حصيلة إيجابية في واقع الأرض هي محاولة تقويم هذا الواقع وإصلاح ما اعوج منه، بينما التضحية في النصرانية ذات مفهوم سلبي، مؤداه أن يقف النصراني أمام عجلة التاريخ المنحرفة لا ليقوّمها ولكن لتدوسه وهو واقف مكانه، فهو يفضل أن تدوسه العجلة وتقتله على أن يسمح لها أن تتجاوزه وهي منحرفة، ولكنه لا يبذل جهداً لتصحيح مسارها وردها إلى الصراط المستقيم[1].

وهي ملاحظة دقيقة، بصرف النظر عن خبائث هذا المستشرق![2].

إن هذا الدين —على كل مثالياته- نظام واقعي قابل للتطبيق في عالم الواقع، مفصل من لدن حكيم خبير ليكون واقعاً معاشاً في الأرض، لا ليكون شعارات، ولا ليكون مثلاً معلقة في الفضاء.

وهذه الأمة —أو قل بالتحديد قرونها المفضلة الأولى- قامت بتطبيق مثالي لهذا الدين في عالم الواقع، فارتفعت إلى عالم المثل —مع بشريتها الكاملة- وأثبتت في الوقت ذاته واقعية هذا الدين، وقابليته للتطبيق في عالم الواقع.

وتلك هي القيمة الحقيقية لهذه الفترة من التاريخ.

إن هذه الأجيال الأولى —وخاصة الجيل الأول الفريد- قد لا تتكرر مرة أخرى في واقع الأرض[3]. ولكنها تبقى مع ذلك رصيداً واقعياً لهذه الأمة في جميع أجيالها، يحفزها على محاولة العودة إلى التطبيق المثالي للإسلام. وهذه المحاولة ذاتها عمل إيجابي مثمر، ولو لم يصل إلى كل النتيجة المطلوبة.

([1]) اقرأ ذلك في الفصل التمهيدي الذي بدأ به كتابه ص9 من الأصل الانجليزي، طبعة أكسفورد، ط4 سنة 1966.

([2]) هذا المستشرق من أخبث المستشرقين المعاصرين الذين تتلمذوا على مدرسة المستشرق جب (وهو أبرع من أستاذه في الخبث!) ويتلخص خبثه في أنه يقر بأشياء من عظمة الإسلام وتميزه لا نتوقع أن رجلاً غير مسلم يقر بها، حتى إذا تخدر القارئ المسلم على المديح، دس له من السم ما يشاء، فيتناوله وهو مخدور! (انظر كتاب "المسشترقون والإسلام").

([3]) نقول: قد لا تتكرر، ولكنا لا نجزم بذلك لأنه غيب لا يعلمه إلا الله.

تصور إنساناً عند سفح الجبل، يعلم يقيناً أن هنا من صعد هذا الجبل إلى قمته، فهو يحاول أن يصعد مثله، وقد يصل إلى منتصفه وقد يصل إلى ربعه، وقد يفلس جهده بعد أن يرقى بضع درجات..

وتصور إنساناً آخر واقفاً عند السفح يتطلع إلى القمة وهو يقول في نفسه: إن هذا مستحيل! مستحيل أن يفكر إنسان في صعود هذا الجبل الشاهق، فلنكف عن التطلع، ولنرض بالبقاء في السفح!

أيهما أنفع للبشرية؟ وأيهما أفضل في ذات نفسه؟

ثم.. أي دور يؤديه ذلك الذي صعد إلى القمة أول مرة، في حياة كل الذين يجيئون من بعده، ويحاولون أن يصعدوا مثله، ولوا وصلوا إلى المنتصف، ولو وصلوا إلى ربع الطريق.. ولو أفلس جهدهم بعد رقي بضع درجات؟!

إنه دور ضخم في عالم الواقع..

ولهذا نحتفي حفاوة بالغة بذلك الجيل الفريد، وبتلك القرون المفضلة، لأنها المدد الحي الذي يدفع الأجيال كلها إلى محاولة الصعود، بدلاً من أن تنتكس إلى أسفل، وتخلد إلى الأرض عند السفح!

وربما كان هذا هو السبب نفسه الذي يجعل المستشرقين يجهدون أنفسهم لمحاولة تشويه تلك الفترة بالذات،، لعلهم يطفئون بريقها، ويحجبون نورها عن الأجيال المتأخرة، لكي لا تفكر أبداً في معاودة الصعود من جديد.

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1].

ولكنا في احتفائنا بتلك الفترة، وعنايتنا بإبراز عظمتها، للمعنى الذي أشرنا إليه آنفاً، وهو كونها رصيداً حيّاً للأجيال كلها، تحاول أن تستمد منه العزيمة للصعود بدلاً من الانتكاس، فإنه لا يجوز لنا أن نقع في الخطأ الذي كثيراً ما نقع فيه، وهو تصوير تلك الفترة

(1) سورة الصف: 8.

كأنها فترة ملائكية، لا أخطاء فيها ولا انحرافات، كأن البشر صاروا فيها ملائكة مطهرين (..لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[1]!

إننا حين نبالغ –بحسن نية– في تضخيم صورة المجتمع الإسلامي في تلك الفترة وإبراز محاسنه، نتيح الفرصة –دون وعي منا– لردود فعل ضارة يستغلها أعداء هذا الدين استغلالاً ماكراً لتخذيل الناس عن العودة الجادة للإسلام!

فمن ناحية يوحون للناس بأنهم مهما اجتهدوا فلن يستطيعوا تطبيق الإسلام على حقيقته، لأن ذلك يحتاج إلى عينة من البشر لم تعد توجد في واقع الأرض بعد تلك القرون المفضلة!

ومن ناحية أخرى يوحون للناس بأن الإسلام لم يطبق في واقع الأرض إلا ثلاثين سنة على الأكثر (ومن الناس من يختصر المدة إلى أقل من ذلك!) ثم انتهى! وصار المسلمون بعد ذلك بشراً عاديين، كأي أمة لم يتنزل عليها وحي، ولم يرسل إليها نبي! فلا معنى إذن لمحاولة بعث الإسلام من جديد، لأنه غير قابل للتطبيق في عالم الواقع!

وسوف نعالج هذه الإيحاءات المسمومة في الفصول القادمة من الكتاب بشيء من التفصيل، ولكن هذا لا يمنعنا هنا من الإشارة إلى بعض الحقائق:

أولاً: أن الذي قد لا يتكرر[2] من أمور هذه الفترة، هو تطوع تلك القرون المفضلة بما لم يفرض عليهم فرضاً، تقرباً إلى الله، وحباً لرسوله –صلى الله عليه وسلم–، واتخاذهم المندوبات والمستحبات كأنها فروض واجبة التنفيذ.. أما الحد الأدنى الذي فرضه الله فرضاً في هذا الدين، فهو تكليف دائم لجميع أجيال المسلمين، يحاسبون على التقصير فيه، في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً حسب مشيئة الله. وأن هذه التكاليف ليست فوق طاقة البشر لأن الله لا يكلف البشر فوق طاقتهم:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)[3].

([1]) سورة التحريم: 6.

([2]) سبقت الإشارة إلى هذا المعنى في هامشة سابقة.

([3]) سورة البقرة: 286.

بعبارة أخرى، لم يكن الذي تميزت به القرون المفضلة أنها قامت بتكاليف هذا الدين! فهذه —في ذاتها— ليست مزية! وكل القرون مكلفة بذلك، ومحاسبة على التقصير فيه. إنما الذي تميزت به هو الصورة الفذة التي قامت فيها بتنفيذ تلك التكاليف، بالتطوع النبيل بما هو فوق الفرض. وهذا ليس مطلوباً من أحد على سبيل التكليف، وليس شرطاً كذلك لإقامة الإسلام في الأرض! إنما يقوم الإسلام —في صورته العادية— بتنفيذ الحد الأدنى من المفروض من التكاليف، وحين يتحقق الإسلام في صورته العادية، في حده الأدنى، وهو في إمكان البشر في جميع الأجيال، يتحقق قدر كبير من الخير للبشرية جمعاء، لا يحققه أي نظام آخر في الأرض!

ثانياً: أن الصورة العادية للإسلام —التي يتحقق بها من الخير للبشرية ما لا يحققه نظام آخر— قد بقيت مطبقة في الأرض فترة طويلة امتدت إلى بضعة قرون، رغم كل الانحرافات التي وقعت من المسلمين خلال تلك القرون.

ثالثاً: أن النماذج الفذة التي تتطوع بأكثر من التكليف المفروض لم تنقطع أبداً في حياة الأمة بعد القرون المفضلة الأولى، إنما قلت كثافتها حتى صارت ظواهر فردية بعد أن كانت في تلك القرون ظاهرة جماعية، وأن هؤلاء الأفراد هم الإشراقات التي حفل بها التاريخ الإسلامي في كل عهوده، سواء كانوا علماء، أو قادة سياسيين، أو قادة حربيين، أو دعاة ومربين..

فإذا جعلنا في بالنا هذه الحقائق، فلنعد إلى عرض سريع لفترة صدر الإسلام!

ستعترضنا حروب الردة في مبدأ هذه الفترة.. وينبغي أن يكون واضحاً للدارسين من أول لحظة أن هؤلاء لم يكونوا قد أسلموا حقاً، وإنما كانوا قد خضعوا للسلطان القاهر حين أصبح الإسلام هو صاحب السلطان، فلم يكن غريباً أن يرتدوا حين ظنوا أن الدولة الإسلامية ستتقوض بعد وفاة الرسول —صلى الله عليه وسلم—، ذلك أنهم —في جاهليتهم التي كانوا ما زالوا يتلفعون بها أو ببقاياها في نفوسهم— كانوا محجوبي البصيرة عن حقائق هذا الدين الواردة في الكتاب والسنة، وأن الله أنزل هذا الدين ليبقى ويستقر في الأرض، ويظهره الله على الدين كله، وأن هذا الأمر لا يتعلق ببقاء شخص الرسول حياً —صلى الله عليه وسلم— فقد ورد في كتاب الله قوله تعالى لرسوله —صلى الله عليه وسلم—: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)[1] (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ)[2] ولكن ورد فيه إلى جانب ذلك: (هُوَ الَّذِي

(1) سورة الزمر: 30.

(2) سورة الأنبياء:34.

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[1]. كما غاب عن بصيرتهم –المحجوبة عن نور الله– أن الدين الذي قيض الله له مؤمنين على هذه الدرجة العالية من رسوخ الإيمان، لم يكن الله ليكل أمره إلى بضعة نفر يهزونه حين يهتزون هم، أو ينقضون بنيانه حين يخرجون عليه!

ولكنها كانت أزمة رغم ذلك!

وكان الكفء لها أبو بكر –رضي الله عنه!

وإن قصر الفترة التي عاشها أبو بكر –رضي الله عنه– ليغطي أحياناً على عظمتها وعظمة صاحبها –رضي الله عنه وأرضاه–، خاصة حين يعنّ لبعض الناس أن يقارنوه بعمر –رضي الله عنه–، ثم يرجحوا عمر عليه في الميزان[2].

إن أبا بكر –رضي الله عنه– هو أعظم "روحية" بعد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وتكفي مواقفه الثلاثة الشهيرة: موقفه في إيمانه، الذي لقب من أجله بالصديق، وموقفه عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي هزت عمر –رضي الله عنه– حتى جرد سيفه يريد أن يقتل من "يزعم" أن محمداً قد مات! حتى فاء إلى إيمانه، وأنزل الله سكينته على قلبه حين سمع أبا بكر يقول: أيها الناس! من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت! ثم يتلو قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)[3].

ثم موقفه من حروب الردة، التي هزت أهل الرأي من الصحابة –رضوان الله عليهم– فأشاروا على أبي بكر –رضي الله عنه– بتأجيل قتال المرتدين حتى يرجع الجيش الذي أنفذه أبو بكر لقتال الروم تنفيذاً لأمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ولكن الموقف الحاسم الذي وقفه أبو بكر حسم الأمر، حتى قال عمر –رضي الله عنه– أشد من كان معارضاً للقتال: "والله ما إن رأيت أبا بكر شرح الله صدره للقتال حتى علمت أنه الحق"!

([1]) سورة الصف: 9.

([2]) نلمس ذلك واضحاً في كتاب "عبقرية عمر" للعقاد.

([3]) سورة آل عمران: 144.

تلك المواقف الثلاثة كلها كانت سنداً لهذا الدين، أعز الله بها دينه، ومكّن له في الأرض، إلى جانب أعمال كثيرة أخرى قام بها –رضي الله عنه– في فترة خلافته القصيرة، وكلها يستحق الإشادة والتقدير.

كما يجدر أن يعرف الدارس أن أولئك الذين ارتدوا لعدم تأصل الإيمان في قلوبهم، قد عاد كثير منهم إلى الإسلام، وحسن إسلامهم، وشاركوا في معارك الإسلام الكبرى خارج الجزيرة، وماتوا وهم مسلمون.

ثم تأتي فترة عمر –رضي الله عنه– التي امتدت عشر سنوات من أحفل سنوات التاريخ البشري عامة، لا الإسلامي فحسب، وينبغي أن تكون لنا فيها عدة وقفات.

إن عمر –رضي الله عنه– صورة فريدة في التاريخ البشري كله. صورة الحاكم الذي لا يهفو ضميره هفوة في حكمه للناس على مدى عشر سنوات كاملة، في فترة من أصعب فترات التاريخ، فترة بناء الدولة، وملاقاة الأعداء المتربصين في الخارج، الذين يهدفون إلى خنق هذه الدولة قبل أن يستفحل أمرها في الأرض. وهي فترة معاناة شديدة في تاريخ كل الأمم التي رسّخت سلطانها في الأرض، وطالما لجأ الحكام في الجاهلية في مثل تلك الفترات إلى اتخاذ العنف الظالم وسيلة لتثبيت الدولة في وجه ما يقابلها من عقبات. فحين يمر بها عمر –رضي الله عنه– في عدالته لا تتغير، وتواضعه لا يتغير، وزهده في متاع الأرض لا يتغير، واستقامته على الحق لا تتغير.. يكون فذاً ولا شك في التاريخ.

ولكن هناك أمراً في هذا الشأن لا يجوز لنا أن ننساه.. هو أن عمر –بصورته الفذة تلك– هو من صنع الإسلام! فقد عرفنا صورته في الجاهلية.. وهي صورة كانت تؤهله أن يكون جباراً من جبابرة الأرض.. فحين يصبح أعدل حاكم عرفته الأرض فذلك ولا شك من فعل الإسلام.. ولا حرج علينا أن نعرض سيرته على أنه الصورة المثلى للحاكم المسلم. وليكن موضع القدوة الدائمة، حتى ولو يتكرر مثله في التاريخ.

ثم إن أعظم ما في سيرة عمر –رضي الله عنه– وأعظم ما اشتمل عليه شخصه، هو الالتزام الكامل بما جاء من عند الله. ومن ثم فسيرته هي الصورة التطبيقية النموذجية للحكم بما أنزل الله في واقع الأرض، التي يجب على المسلمين أن يسعوا إليها أبداً ويحاولوها أبداً..

فشدة عمر الشهيرة هي شدة في تطبيق حكم الله، على نفسه أولاً، ثم على كل فرد في المجتمع المسلم كبر شأنه أو صغر، وكبر الشأن الذي تعرض فيه لحكم الله أو صغر. ولكنها

ليست شدة ذاتية تشتد بالحق وبالباطل، ذلك أبعد شيء عن عمر المسلم، وأبعد شيء عن الإسلام.

وعمر هذا، المرهوب الجانب بما أضفى الله عليه من هيبة ربما لم تتح لحاكم آخر في التاريخ، هو الذي وقف في المسجد يقول: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا، فيقوم له سلمان الفارسي فيقول له: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة! فلا يغضب ولا يثور، ولا يأمر باعتقال سلمان، ولا يعنفه، ولا يهدده باتخاذ أي إجراء ضده، بحجة أن الحرب قائمة على الحدود في جبهتين اثنتين لا جبهة واحدة، ومع أعظم قوتين دوليتين في وقت واحد، وأنه "لا صوت يعلو على صوت المعركة" كما قال أحد طغاة التاريخ الحديث ليبرر تكميم الأفواه في بلده، ومنع توجيه النقد إليه.. إنما يقول له في التزام الحاكم المسلم: ولمه؟ يستوضحه عن سبب رد السمع والطاعة الواجبين عليه، فيقول سلمان في ثقة المؤمن الحق: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين. فلما بين له عمر أن ابنه عبد الله بن عمر أعطاه برده ليأتزر به قال سلمان: الآن مر! نسمع ونُطِع!

وهذا درس هائل، لا في شَخْصَي عمر وسلمان رضي الله عنهما، وإن كان كل منهما في هذا الموقف قمة من قمم البشرية، وإنما هو درس هائل في الإسلام!

فهذا هو التطبيق الإسلامي في السياسة!

فالشدة الهائلة من عمر في تطبيق شرع الله على الناس يصاحبهما الالتزام الشديد بالخضوع لحكم الله في ذات نفسه. والشدة من جانب الحاكم في تطبيق شرع الله على الناس، تقابلها شدة من الأمة في الرقابة على الحاكم لإلزامه بتنفيذ شرع الله. وهذا هو الإسلام الذي ينبغي أن يحاول المسلمون تطبيقه في كل زمان ومكان..

صحيح أنه لم تكن في ذلك المجتمع المسلم في تلك الفترة "مؤسسات" تُقعد لهذه السياسة وترعاها حتى تصبح تقاليد مرعية تحافظ عليها الأمة، فبدا للناس من أجل هذا أنها تصرفات شخصية من بعض أفذاذ المسلمين لا يقاس عليها، وبدا لبعض الدارسين المتأثرين بالتيارات الحديثة أن الإسلام ليس له نظام محدد للحكم..

وهذا وهم من جميع جوانبه.

فأصول الحكم –التي تحددها "الدساتير" في المصطلحات السياسية المعاصرة– موجودة في الكتاب والسنة[1]. والتطبيق العملي موجود في صورته الصافية في حكم الشيخين رضي الله عنهما. وأقوالهما وتصرفاتهما كلها –بلغة العصر– هي "السوابق الدستورية" التي يُستند إليها عند التطبيق. وأهل الشورى، أو أهل الحل والعقد هم "المؤسسة" التي تقوم بالرقابة على أعمال الحاكم نائبين عن الأمة كلها ومفوضين منها، ومسموعي الكلمة لديها. وهذا نظام مستكمل من جميع جوانبه.. ولكن القضية أن هذا كله لم يكن مكتوباً في هيئة "مواد دستورية" لأن المسلمين كانوا ممتلئين بالإسلام، مطبقين له تطبيقاً حياً في ذوات أنفسهم وفي واقع مجتمعهم، بحيث لم يشعروا –وعندهم كتاب الله وسنة رسوله- صلى الله عليه وسلم- أنهم في حاجة إلى تدوين دستور في هيئة مواد ذات اصطلاحات "قانونية" محددة.

فلما جاءت الفتن بعد ذلك: فتنة مقتل عثمان –رضي الله عنه، ثم فتنة الخلاف بين علي ومعاوية.. لم تكن الهزات التي حدثت في سياسة الحكم ناشئة من عدم وجود دستور مكتوب أو "مؤسسات" تحمي الدستور، كما يتوهم المتأثرون بالديمقرطية في وقتنا الحاضر، والذين يظنون أنه لو كان الدستور قائماً ومؤسساته قائمة ما حدث الذي حدث!

إن الهزات جاءت أساساً من ظاهرة في تاريخ اسلام ربما لم يكن لها مثيل في تاريخ أمة أخرى، هي الانتشار السريع للدعوة، ودخول شعوب بأكملها في الإسلام في سنوات قليلة جداً، لا كانت هناك أمامها فرصة لتتلقى قسطاً حقيقياً من التربية الإسلامية كما تربى المهاجرون والأنصار في مكة والمدينة، ولا كان في طوق كل المربين في الأمة الإسلامية أن يربوهم في تلك السنوات القليلة ليصبحوا على المستوى المطلوب للمجتمع المسلم.

فإذا أضيف إلى هذا مؤامرات المتآمرين على الإسلام من داخله ومن خارجه من اليهود والمجوس وغيرهم، ونفاذهم إلى فئات من "الجماهير" أسلمت ولكن لم تترب بعد على حقيقة الإسلام... سهل علينا أن نفهم كيف حدثت الهزات السياسية التي حدثت في ذلك التاريخ..

أفلو كان هناك "دستور" مكتوب،، و"مؤسسات" قائمة، كان ذلك سيحول دون الهزات التي وقعت؟!

([1]) يضاف إليها الاجتهاد فيما يجد من الأمور استنباطاً من أحكام الشريعة الثابتة وهذا بدأ من أيام أبي بكر رضي الله عنه، ثم استمر..

ومن جهة أخرى هل الدستور المكتوب، والمؤسسات القائمة هي التي تحمي الديمقراطية في البلاد الديمقراطية؟! أم إن "التربية" التي يتلقاها الناس هي التي تجعلهم يحافظون على حقوقهم ولا يقبلون من أحد انتهاكها، ويتيقظون لكل مساس بها فيقفونه عند حده؟!

وماذا يفعل الناس —مع وجود الدستور، ووجود المؤسسات التي تحميه- حين يَنْفُذ اليهود بوسائلهم الملتوية، فيقتلون رئيس الجمهورية[1]، ويرشون أعضاء المجلس النيابي —أو يرهبونهم- لتمرير مصالحهم الملتوية التي لا خير فيها للشعب، ولا يستفيد منها إلا اليهود..[2]؟!

وليس معنى هذا أن نرضى عما وقع من مخالفات أو انحرافات بعد حكم الشيخين، ولا معناه ألا نسعى في الوقت الحاضر لتأسيس "المؤسسات" التي تحوّل المفاهيم السياسية الإسلامية إلى صور تطبيقية واقعية، ولكنا نريد فقط أن نلفت النظر إلى أن هناك شيئاً أهم بكثير من المؤسسات في ذاتها، هو التربية.. وأن المؤسسات من السهل أن تنقلب إلى مؤسسات طغيانية في غيبة الروح الحقيقية، وفي غيبة الجهاد المستمر من قبل الأمة للمحافظة على التطبيق الصحيح للإسلام.

وبهذه المناسبة نقول إن حكم عمر كان على هذا النحو من العظمة في التطبيق الواقعي للإسلام، لأن المجتمع الإسلامي في عمومه كان على ذات المستوى من العظمة، وليس فقط لأن عمر كان عظيماً إلى هذا الحد. فالتطبيق الصحيح للإسلام ليس مهمة الحاكم وحده، ولا هو معتمد على الحاكم وحده، كما يتخيل كثير من الناس. إنما هو مهمة الحاكمين والمحكومين على ذات المستوى من المسئولية. والواقع التطبيقي هو دائماً حصيلة حال الحاكمين والمحكومين معاً في ذات الوقت. ولقد قال أحد الناس لعلي بن أبي طالب —رضي الله عنه- كان عمر يحسم في الأمور وأنت لا تحسم! فقال —رضي الله عنه- كنا نحن جنود عمر، وأنتم جنودي!!

* * *

إذا وصلنا إلى عهد عثمان —رضي الله عنه- فستقابلنا أول فتنة حقيقية في تاريخ الإسلام، إذا أسقطنا من حسابنا فتنة الردة، التي وقعت من قوم لم يكن الإسلام قد تأصل

---

(1) كما قتل كنيدي في أمريكا!

(2) كما يحدث في كل البرلمانات الأوروبية والأمريكية!

في نفوسهم، وتم القضاء عليها في حينها دون أن تخلّف صدعاً في الأمة الإسلامية، بل أسلموا هم أنفسهم واستقاموا على الإسلام..

وقد وقعت في عهد عثمان –رضي الله عنه– هفوات في سياسة الحكم، ولكن ضمير عثمان يجب أن يظل فوق مستوى الشبهات. فما كان الأمر في نفسه استهتاراً بمصالح المسلمين، ولا تفريطاً في واجبات الإسلام، ولا رغبة في متاع شخصي، فما كان عنده يوم قتل شيء مما يحرص عليه عبّاد الدنيا وينحرفون من أجله. إنما كان فرط السماحة في نفس عثمان –رضي الله عنه– وفرط الثقة في قوم من قرابته أساءوا استخدام هذه الثقة وحادوا بها عن خط الالتزام الصارم الذي ألزم أبو بكر وعمر نفسيهما به من قبل، وألزما من يولونهما من الولاة.. ولكن الذي ينبغي إبرازه هو دور اليهود في إثارة هذه الفتنة والوصول بها إلى ما وصلت إليه بالدس والكذب والتشنيع والتهييج. فإن الذي تولى كبر هذه الفتنة هو عبد الله بن سبأ، اليهودي الذي تظاهر بالإسلام ليكيد له من الداخل، بعد أن يئس اليهود من القضاء على الإسلام في مهده في المدينة برغم كل الجهد الشيطاني الذي بذلوه، وأمر الله بإجلائهم فأخرجوا من المدينة ثم من الجزيرة كلها، فلجئوا إلى هذا الطريق الخبيث، فتظاهر من تظاهر منهم بالإسلام، ليعمل من داخل الصف.

وكان عبد الله بن سبأ يطوف الأمصار يشنع على عثمان –رضي الله عنه– بما يهيج خواطر الناس ليستثيرهم ضده حتى تقع الفتنة التي دبرها. وكان أبشع ما صنع هو وفئته أن زوروا خطاباً بخاتم عثمان يأمر فيه بمقتل محمد بن أبي بكر، وكان هذا الخطاب بالذات من أشد ما هيج مشاعر المسلمين.

وأخيراً وقعت الحوادث المؤسفة التي أدت إلى قتل عثمان، وقيام النزاع بين علي ومعاوية، وما تلا ذلك من شروخ في جسم الأمة الإسلامية ما تزال آثارها قائمة إلى هذه اللحظة. وإن كان الكيد الشيطاني قد فُوِّت على أصحابه، فلم ينته الإسلام بهذه الفتنة كما أرادوا، بل بقى كما أراد الله، ومضى قدماً ينتشر في آفاق الأرض.

والوقفات التي نقفها عند دراسة عهد عثمان –رضي الله عنه–:

أولاً: أن الهفوات التي حدثت بكل حسن النية في عهد عثمان رضي الله عنه، تبدو لنا جسيمة لأنها تجيء في الفترة المثالية للتطبيق، بعد حكم الشيخين –رضي الله عنهما– وإلا فإن أضعاف هذه الهفوات قد ارتكب فيما بعد، ومع ذلك فنحن أنفسنا الذين نستهول ما حدث في عهد عثمان نمر بها في سهولة، لا تثير في نفوسنا الكثير!

ثانياً: أن تقويم هذه الهفوات ومحاولة رد الأمر إلى نصابه كان مطلوباً من الأمة المسلمة دون شك (وقد كان علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم يحاولونه) ولو قصروا فيها لكانوا مقصرين في حق من حقوق الله وحق من حقوق الأمة[1]. ولكن العنف الذي حدث، وأدى إلى قتل الخليفة النظيف اليد والسريرة واللسان كان جنوحاً زائداً لا يقتضيه الموقف ولا يرضى عنه الإسلام.

ثالثاً: ضرورة إبراز الدور الحقيقي الذي قام به عبد الله بن سبأ في الفتنة.

رابعاً: أن المد الإسلامي لم ينحسر ولم يتوقف بسبب هذا الحادث العارض –رغم فداحته– لأن حيوية الإسلام كانت أضخم من أن يقفها أي عائق على الإطلاق!

* * *

أما النزاع بين علي ومعاوية فقد كتب في شأنه الكثير في كتب المؤرخين القدامى، سواء من أنصار علي أو من أنصار معاوية، كل يدافع عن صاحبه، ويورد من الوقائع ما يدين به الفريق الآخر، كما كتب "محايدون" حاولوا تمحيص الكوم الهائل من الروايات ليخرجوا بنتيجة يطمأن إليها.

وفي ظني أن خير وسيلة للوصول إلى النتيجة التي يطمأن إليها بشأن هذا النزاع هي اتباع منهج المحدّثين في الجرح والتعديل بالنسبة للرواة، واتباع منهجهم كذلك في محاكمة النصوص بمقتضى فن الرواية والدراية.

وأذكر أنني تناقشت في ذلك مع بعض المتخصصين في التاريخ الإسلامي فقالوا: لو طبقنا هذا المنهج على التاريخ ما بقى في أيدينا شيء يعتد به! وتلك نظرة مشرعة، وأخشى أن أقول متكاسلة، تحجم عن بذل الجهد لأنها تعلم مشقته، فتحكم ابتداء بأنه لن يؤدي إلى نتيجة! وقد بدأت تظهر بالفعل بحوث جامعية تتبع هذا المنهج العظيم، وتغوص به في خضم

([1]) قال لي أحد المتأثرين بالفكر الغربي مرة، لو كانت عند المسلمين يومئذ "مؤسسات" ألم تكن تعزل عثمان؟! وقالت له إن "مؤسسة" أهل الحل والعقد كانت موجودة ولو رأت أن الأمر يستدعي عزل عثمان رضي الله عنه لعزلته –وهي تملك ذلك– ولكن الأمر لم يكن يستدعي هذا الإجراء العنيف!

الروايات المتضارية لتخرج بنتائج معقولة في شأن بعض الوقائع، وهي بحوث تبشر بالخير، وتغري بمواصلة الجهد[1].

المهم عندنا أن نصل بقدر الإمكان إلى التصور الصحيح للأحداث التي جرت في ذلك النزاع. ليس همنا تجريح أحد من الصحابة –رضوان الله عليهم–، فقد نهينا عن ذلك. وليس همنا أن نتعصب لفريق معين فنلوي دلالات الأحداث لتوافق هوى معيناً في نفوسنا.

وليس همنا أن نثير نزاعات جديدة لا يستفيد منها الإسلام بشيء.

إنما نعرف ما وقع بالفعل، لنعرف كيف ترتب عليه ما ترتب فيما بعد.

لقد كانت –بكل المقاييس– زلزلة عنيفة ارتج لها المجتمع الإسلامي، وخلفت آثاراً ما زال بعضها باقياً حتى اليوم، ووقعت فيها مآس ما كان ينبغي أن تحدث..

ولكنا –من جانب آخر– لا مصلحة لنا في أن نقف طويلاً عند الزلزلة، نتحسر على ما وقع فيها.

إنها أحداث "بشرية" على أي حال، قابلة لأن تقع من البشر، خاصة حين تنزغ بينهم الشياطين.. وقد كانت الشياطين جاهزة للعمل، متلهفة على إشعال الفتنة، ناشطة فيها بأقصى جهدها، وكان عبد الله بن سبأ على رأسها يخطط ويدبر ويجمّع الأجناد!

ولكن الذي يجدر بنا أن نقف عنده أن الزلزلة مرت، فإذا المد الإسلامي الكاسح يتوسع في أرجاء الأرض كأن لم يحدث شيء، وكأن الدوامة ابتلعت ما وقع فيها من أشخاص وأحداث، ثم هدأت العاصفة فعاد التيار يتدفق في مجراه كما كان!

طبعاً تغيرت أشياء، وحدثت في المجرى انحناءات..

ولكن الذي يلفت النظر أن أحداثاً كهذه لو وقعت في مكان آخر، وفي نظام آخر، فلربما أودت به وطمست معالمه.. أو حولت مجراه تحويلاً جذرياً فأصبح شيئاً آخر غير الذي كان.

([1]) خذ سبيل المثال "مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري" رسالة ماجستير للطالب يحيى بن إبراهيم اليحيى، جامعة المدينة، طبع دار العاصمة بالرياض 1310هـ، وفي الطريق بحوث أخرى.

ولكنا حين نحقق تحقيقاً دقيقاً نجد أن الذي تغير من ملامح المجتمع المسلم قليل جداً بالنسبة لما بقى على حاله. ثم نجد انطلاقة هائلة للإسلام في ربوع الأرض تمتد من الهند شرقاً إلى المحيط غرباً ثم تنطلق وراء الحواجز لتبدأ جولة في الأندلس تستمر ثمانية قرون!

وسنتكلم عن المد الإسلامي في الفصل القادم. ولكنا نشير هنا فقط إلى هذه الظاهرة الفذة التي تلفت النظر، وهي الحيوية الهائلة التي بعثها الإسلام في هذه الأمة، والتي بلغ من قوتها ألا تقفها الزلازل ولا العواصف ولا الدوامات، بل تنطلق في طريقها، كأن أصحابها يندفعون في الهواء اندفاعاً ولا يضعون أقدامهم على الأرض!

إن هذا شأن العقيدة.. والحركة التي تنبثق من العقيدة..

وحين تكون العقيدة هي لا إله إلا الله.. وحين تكون راسخة في قلوب أصحابها كما كانت هذه العقيدة، فإن الطاقة التي تنشأ عنها تكون شيئاً ضخماً يفوق التصور، ويتجاوز المعتاد في مقاييس البشر.

إن قوماً من الناس تهولهم الزوبعة التي غشيت المجتمع المسلم بالنزاع بين علي ومعاوية، وبمقتل عثمان من قبل، فيحسبون أن الإسلام قد توقف، أو انتهى عند هذه النقطة.

ولكن الواقع أوقع من الظن!

الزوبعة حقيقة لا شك فيها.. والمد الإسلامي بعدها حقيقة لا شك فيها كذلك! فما بالنا نقف عند الزوبعة ولا نلتفت إلى المد؟!

إنها معجزة هذا الدين.. أن يستوعب الصدمة المدمرة، ثم يقوم معافىً يستأنف نشاطه كأن لم يصبه شيء! ولا يحدث هذا في واقع الناس حين تكون القوة محدودة والحيوية ضئيلة. إنما يحدث حين تكون كل ذرة في الكيان منطلقة بكامل شحنتها. فحين تفقد بعذ الذرات شحنتها –لحادث يصيبها– فإن الشحنة المذخورة في بقية الذرات سرعان ما تعوضها، فتبدو كأن لم يُفْقد منها شيء.. وهذا هو الذي ينبغي أن يتنبه له دارس هذه الفترة من التاريخ، ويتنبه إلى أنه من آثار قوة هذه العقيدة في نفوس الناس.. فإن القوم الذين تهولهم الزوبعة يتساءلون: أين إذن أثر العقيدة؟ ولماذا لم تمنع حدوث ما حدث؟! ونقول –كما قلنا من قبل– إن العقيدة لن تغير بشرية البشر! والبشر –دائماً– عرضة للانحراف والهبوط:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)[1].

(..وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً)[2].

"كل بني آدم خطاء.."[3].

ولكن المؤمنين يقومون من كبوتهم فيرجعون. وهذا هو الفارق بينهم وبين غيرهم من الناس. وهو كذلك الذي يفسر المد الهائل الذي حدث بعد الزلزال..

* * *

وقبل أن نغادر فترة صدر الإسلام، نقف لنلخص أبرز الجوانب التي يجب أن نركز عليها في أثناء دراسة هذه الفترة من التاريخ.

إننا –لأسباب كثيرة قد تتشابه في نفوسنا وقد تختلف– تتعلق بدراسة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي –رضي الله عنهم– أكثر مما تتعلق بدراسة المجتمع ذاته على اتساعه. بعضنا قد يعتبر هؤلاء عنواناً للمجتمع فيكتفي بدراستهم عن دراسته. وبعضنا بحكم انطباع الدراسة الطويل قد لا يعنيه إلا التاريخ السياسي للإسلام، أي تاريخ الحكام، وبعضنا قد يكون أكثر تأثراً بالفرد الممتاز منه بالجموع المبهمة التي تيكون منها المجتمع.. وقد يكون لبعضنا أسباب غير ذلك جميعاً.

ولكن أيًّا كانت الأسباب فيجب أن يتضح للدارس أن الإسلام بالذات ليس شأن الحكام وحدهم، ولكنه شأن كل واحد من المسلمين. كل إنسان فرد مكلف بإقامة الإسلام في نفسه، ومكلف كذلك بدعوة الآخرين إلى إقامته في أنفسهم.

وقد تكون النظم كلها كذلك من الناحية النظرية. أما من الناحية العملية التطبيقية فالأمر يختلف. ويظل الإسلام متفرداً بمزيته، بحكم أنه عقيدة، ونظام قائم على العقيدة، ومن ثم يصبح الجانب الشخصي في إقامته أضخم كثيراً منه في أي نظام آخر.. وقد تكون الديمقراطية "الليبرالية" هي التي تخطر على البال للمقارنة في هذا الجانب، ففيها دور واضح للفرد، وما لم يتمسك الأفراد بحقوقهم الديمقراطية، ويؤدوا واجبهم في إقامتها فلن تقوم في

([1]) سورة طه:115.

([2]) سورة النساء: 28.

([3]) سبق ذكره.

النهاية. ولكن يظل هناك فارق بين القيام "بواجب" يحسن بالإنسان أن يؤديه، ولكن لا تثريب عليه إن لم يقم به، وبين القيام بتكليف متعلق بالعقيدة، يأثم الإنسان على تركه، ويحاسب عليه بين يدي مولاه يوم القيامة..

كل فرد في الإسلام مكلف بإقامة الإسلام في ذات نفسه بمعنى التحاكم إلى شريعة الله، فيحل ما أحل الله ويحرم ما حرم الله، وإلا خرج من "الدين"[1] ومكلف كذلك بتغيير المنكر بدرجة من درجاته الثلاث، حسب موقعه من المجتمع، وحسب قدرته، وإلا خرج من الدين[2]. وليس كذلك أي نظام من النظم الأرضية التي لا ترتبط بالعقيدة في الله.

وهذه الحقيقة.. وهي كون التطبيق الواقعي للإسلام مهمة لا تتعلق بالحاكم وحده، ولكن تتعلق بكل فرد مسلم مكلف، هي التي حفظت هذا الدين –بقدر من الله– قروناً طويلة جداً رغم فساد الحكام المتزايد، الذي سنتعرض لدراسته في الفصل القادم.

لذلك يجب دراسة تاريخ الإسلام دائماً في المجتمع المسلم، إلى جانب دراسته في الحكومة المسلمة، مع التركيز على المجتمع بأكثر من التركيز على الحكومة، لأن الحكومة قد تفسد ويظل المجتمع مسلماً، أما إذا فسد المجتمع فلا إسلام!

ولذلك أيضاً لا يجوز أن تصرفنا الشخصيات الفذة –وخاصة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعمر بصفة أخص– عن الاهتمام بتتبع التطبيق الإسلامي في واقع المجتمع المسلم، فهذه هي الصورة الأكثر دلالة. وما الحكومة الإسلامية إلا جانب من جوانب الصورة الإسلامية، ولكنها وحدها ليست هي الصورة.

وحين ندرس المجتمع المسلم في صدر الإسلام فستبرز لنا فيه مجموعة من السمات:

([1]) لقوله تعال: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [سورة المائدة: 44] أي: من لم يحرّم الحرام ويحلّ الحلال، وشرع بغير ما أنزل الله. وهذا بخلاف المعصية، التي لا تتعلق بالتشريع، إنما تتعلق بالمخالفة في التنفيذ مع الإقرار بأصل التحاكم إلى شريعة الله دون غيرها من الشرائع، فهذه لا تخرج الإنسان من الدين.

([2]) لقوله–صلى الله عليه وسلم–: "فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل" (رواه مسلم) على تفصيل بطلب في كتب الفقه.

أولاً: أنه –في عمومه– مجتمع مسلم بكامل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق لتعاليم الإسلام بجدية واضحة والتزام ظاهر، وبأقل قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التاريخ. الدين بالنسبة له هو الحياة، وليس شيئاً هامشياً يفيء الناس إليه بين الحين والحين. إنما هو حياة الناس وروحهم، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية يحرصون على أدائها على وجهها الصحيح، وإنما في أخلاقياتهم، وتصوراتهم، واهتماماتهم، وقيمهم، وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار، والبيع والشراء، والضرب في مناكب الأرض والسعي وراء الأرزاق، وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكام والولاة..

ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق في الحياة الدنيا، ولا في أي مجتمع من البشر. وقد كان في مجتمع الرسول –صلى الله عليه وسلم– كما ورد في كتاب الله– منافقون يتظاهرون بالإسلام وهم في دخيلة أنفسهم من الأعداء، وكان فيه ضعاف الإيمان، والمعوّقون، والمثّاقلون، والمبطّئون، والخائنون.. ولكن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم وزن في ذلك المجتمع، ولا قدرة على تحويل مجراه. لأن التيار الدافق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقي الإيمان، المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، الملتزمين بتعاليم هذا الدين.

ثانياً: أنه المجتمع الذي تحقق فيه على أعلى مستوى المعنى الحقيقي "للأمة".

فليست الأمة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة المصالح.. فتلك هي الروابط التي تربط البشر في الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهي أمة جاهلية.

أما الأمة –بمعناها الرباني– فهي الأمة التي تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون.. ومصالح الأرض القريبة.. وهذه لم تتحقق في التاريخ كله كما تحققت في الأمة الإسلامية.

فالأمة اليهودية أمة عرقية –ولو جمعت بينها عقيدة– بل إنها عرقية متعصبة، تلوي التعاليم الربانية لتفصّلها على مصالحها العرقية الخاصة، فقد نزل بها أمر بتحريم الربا نصه في ثوراتهم –المعربة– "لأخيك لا تبع بربا" فجعلوه مقصوراً على التعامل بين اليهود بعضهم وبعض. أما غيرهم فيباح امتصاص دمه عن طريق الربا كما جاء في كتاب الله عنهم: (..ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)[1] وكما قالوا هم عن تلمودهم: الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار! ونزلت لهم أوامر كثيرة ألا يفسدوا في الأرض، ولكنهم —من أجل أن يعيشوا هم- ينشرون الفساد في الأرض كما قال الله عنهم: (..وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)[2] ويستندون في إفساد من يسمونهم "الأمميين" على ذات القاعدة: "ليس علينا في الأميين سبيل، على أساس أن أمتهم — العرقية- هي شعب الله المختار.

أما الأمة النصرانية فقد جمعها رباط العقيدة ذات يوم —لفترة قصيرة- ولكن الخلافات المذهبية فرقتها فرقاً متعادية متباغضة كما قال الله عنهم: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)[3]. ولما اعتنق قسطنطين النصرانية بدا لفترة من الوقت أنه على الأقل قد وحّد الموافقين على مذهبه في أمة تربطها عقيدة. ولكن البناء السياسي للدولة الرومانية لم يكن يحقق معنى الأمة في صورتها الربانية، فقد كانت هناك دولة أمّ، وبقية الدولة مستعمرات رومانية مهمتها خدمة الدولة الأم.. وهذا لا يحقق "الأخوّة" التي تحكم رباط الأمة.. ثم تفرقت الإمبراطورية ذاتها في قوميات مختلفة، فانفصمت كل الروابط، ولم يعد يربط الأمة النصرانية رباط إلا عداؤها الصليبي للإسلام، فهنا فقط تجتمع وتتوحد ويقوم التآزر بينها على أتمه! وأما في غير ذلك فلا اتفاق!

والأمة الإسلامية هي التي حققت معنى الأمة أطول فترة من الزمن عرفتها الأرض.. أمة لا تقوم على عصبية الأرض ولا الجنس ولا اللغة ولا اللون ولا المصالح الأرضية.. إنما هو رباط العقيدة، يربط بين العربي والحبشي والرومي، والفارسي، ويربط بين البلاد المفتوحة والأمة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة في الدين.

ولئن كان معنى الأمة قد حققته هذه الأمة أطول فترة عرفتها الأرض، فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترة تحققت فيها معاني الإسلام كلها، بما فيها معنى الأمة، على نحو غير مسبوق.

([1]) سورة آل عمران: 75.

([2]) سورة المائدة: 64.

([3]) سورة المائدة: 14.

ثالثاً: أنه مجتمع أخلاقي، يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته. وهي قاعدة لا تشمل علاقات الجنسين وحدها، وإن كان هذه من أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خال من التبرج، ومن فوضى الاختلاط، وخال من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشارة، وخال من الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق.

ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين. فهي تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير.. فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس في المجتمع قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحب.. لا غمز ولا لمز ولا نميمة ولا قذف للأعراض..

رابعاً: أنه مجتمع جاد.. مشغول بمعالي الأمور لا بسفسافها. وليس الجد بالضرورة عبوساً وصرامة! ولكنه روح تبعث الهمة في الناس وتحث على النشاط والعمل والحركة. كما أن اهتمامات الناس هي اهتمامات أعلى وأبعد من واقع الحس القريب. وليست فيه سمات المجتمعات الفارغة المترهلة، التي تتسكع في البيوت وفي الطرقات، تبحث عن وسيلة "لقتل الوقت" من شدة الفراغ!

خامساً: أنه مجتمع مجند للعمل.. في كل اتجاه. تلمس فيه روح الجندية واضحة، لا في القتال في سبيل الله فحسب، وإن كان القتال في سبيل الله قد شغل حيزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع.. ولكن في جميع الاتجاهات. فالكل متأهب للعمل في اللحظة التي يطلب منها فيها العمل.. ومن ثم لم يكن في حاجة إلى تعبئة عسكرية ولا مدنية، فهو معبأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة، وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط في كل اتجاه.

سادساً: أنه مجتمع متعبد. تلمس روح العبادة واضحة في تصرفاته. ليس فقط في أداء الفرائض، والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضاة الله. ولكن في أداء الأعمال جميعاً. فالعمل في حسه عبادة، يؤديه بروح العبادة. الحاكم يسوس رعيته بروح العبادة (وفي القمة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما) والجندي المقاتل في سبيل الله يقاتل بروح العبادة. والمعلم الذي يعلم القرآن ويفقه الناس في الدين يعلم بروح العبادة. والتاجر الذي يراعي الله في بيعه وشراءه يفعل ذلك بروح العبادة. والزوج يرعى بيته بروح العبادة. والزوجة ترعى بيتها بروح العبادة، تحقيقاً لتوجيه الرسول– صلى الله عليه وسلم–: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1].

([1]) متفق عليه.

* * *

تلك سمات بارزة في ذلك المجتمع، لا تساق هنا على سبيل الحصر.. وهي التي جعلته مجتمعاً مسلماً في أعلى آفاقه. وهي التي جعلت هذه الفترة هي الفترة المثالية في تاريخ الإسلام. كما أنها هي التي ساعدت في نشر هذا الدين بالسرعة العجيبة التي انتشر بها. فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح في التاريخ كله، بحيث شملت في أقل من خمسين عاماً أرضاً تمتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً، وهي ظاهرة في ذاتها تستحق التسجيل والإبراز، وكذلك دخول الناس في الإسلام في البلاد المفتوحة بلا قهر ولا ضغط.. وقد كانت تلك السمات التي اشتمل عليها المجتمع المسلم هي الرصيد الحقيقي لهذه الظاهرة، فقد أحب الناس الإسلام لما رأوه مطبقاً على هذه الصورة العجيبة الوضاءة، فأحبوا أن يكونوا من بين معتنقيه.

* * *

كذلك ينبغي لفت نظر الدارس إلى مواقف أهل الكتاب من الإسلام منذ عهده الباكر.

فأما اليهود فقد صنعوا ما صنعوا في المدينة لمحاولة القضاء على هذا الدين في مهده، مما تحفل به كتب السيرة وكتب التاريخ.

وأما النصارى فقد كانوا هم البادئين بالعدوان قبل أن يتحرك الإسلام من الجزيرة على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم-. وهم الذين قتلوا رسول رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فجهز عليه الصلاة والسلام لحربهم ذلك الجيش الذي توفي عليه السلام قبل أن يغادر المدينة، وعلى رأسه أسامة بن زيد، ابن الرسول الذي قتله الروم، فأنفذ أبو بكر الجيش متمماً لعمل الرسول –صلى الله عليه وسلم-.

فإذا اجتمع في ذهن الدارس كيد اليهود ودورهم في فتنة عثمان وفتنة القتال بين علي ومعاوية، وكيد النصارى وتحرشهم بالمسلمين حتى قبل أن يتحرك المسلمون لقتالهم، فقد وضحت له البذور الأولى –القديمة جداً- للمخطط الصليبي الصهيوني، الذي حارب الإسلام في القرون الأخيرة بغية القضاء عليه، ولم يفاجأ بهذا المخطط حين يعرف تفصيلاته في مكانها من التاريخ الحديث والمعاصر.

* * *

وفي النهاية نقول إن دراسة هذه الفترة من التاريخ ينبغي أن تترك انطباعاً لا يمحي في نفس الدارس. انطباعاً بأن الإسلام دين واقعي قابل للتطبيق في عالم الواقع بكل مثالياته. فهي ليست مثاليات معلقة في الفضاء لمجرد التأمل أو التمني. ولكنها مثاليات واقعية، في متناول التطبيق إذا حاولها الناس بالجدية الواجبة، وأعطوها حقها من الجهد.

ثم انطباعًا بأن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى، لأن البشر هم البشر. وقد استطاع البشر أول مرة أن يصعدوا إلى تلك الآفاق العالية، فعلى البشر دائماً أن يحاولوا الصعود مرة أخرى. وسيصعدون حين يعزمون، وسينالون على ذلك النصر والتمكين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[1].

([1]) سورة النور: 55.

المد الإسلامي

هذه الفترة من تاريخ الإسلام، التي امتدت في الزمن قرابة عشرة قرون، من القرن الأول إلى القرن العاشر الهجري، وامتدت في الأرض فشملت قسما كبيرا من أفريقيا، وجزءا عظيما من آسيا، وجزءا غير قليل من أوربا، أشد حاجة إلى المراجعة والتمحيص وتصحيح المنهج من الفترة السابقة، وذلك لاعتماد المؤرخين المحدثين فيها على كتب المستشرقين أكثر من السابقة.

وإذا كنا قد رأينا أن الفترة السابقة، التي يعتمد فيها هؤلاء المؤرخون اعتمادا أكبر على المصادر الإسلامية الأصيلة، لم يخل ما كتب عنها من ثغرات، وأنها في حاجة إلى إضافات ومراجعات، فهذه الفترة أولى أن نجد فيما كتب عنه ثغرات أوسع، ونجدها في حاجة إلى مراجعات أشمل.

وقد سبق أن أشرنا في الفصل السابق إلى الإيحاءات التي تُعطى للدارس –بحسن نية أو بسوء نية– من أن الإسلام قد انتهى بعد فترة صدر الإسلام، ولم يعد له وجود فاعل في الأرض، وأن الحكم بما أنزل الله لم يطبق بعد الخلفاء الراشدين.

وتجد كثيرا من الناس، من المثقفين خاصة، يهزون رءوسهم –أسفا إن كانوا من الطيبين– وسخرية– إن كانوا ممن أفسد الغزو الفكري قلوبهم وأرواحهم– ويقولون لك: الإسلام؟! أين هو الإسلام؟! لقد انتهى منذ عصر الخلفاء الراشدين!

فأما الذين يتحذون بحسن نية، فهؤلاء هم الذين يلمؤهم الإعجاب بالعصر الذهبي للإسلام، عصر التطبيق الصحيح لكل مفاهيمه، الذي كان المجتمع فيه –بصفة عامة– يسير على الجادة، ويكتب أروع سطور التاريخ، والحكام يلتزمون بما أنزل الله، فيتعاون الحكام والمحكومون على تسطير تلك الصفحة الرائعة من صفحات التاريخ البشري.. يملؤهم الإعجاب بهذا العصر، فيصدمون بما حدث بعد ذلك من انحراف، ويقولون –بحسن نية– قولتهم تلك التي يغمرها الأسف على ضياع تلك الصورة الوضاءة التي كانوا يتمنون لها الاستمرار عبر القرون.

وأما الذين يتحدثون بسوء نية فهم يستغلون ما حدث من انحراف في التطبيق –في سياسة الحكم بصفة خاصة– ليشفوا حقدهم على الإسلام، وليخذلوا الداعين إليه، بتلك القولة التي يتظاهرون فيها بأنهم أصحاب عقلية "علمية" لا تصدر عن اندفاع في العاطفة ولا سطحية في التفكير!

وهؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى وقفة علمية صحيحة هادئة، يراجعون فيها الحصيلة الواقعية لذلك التاريخ.

* * *

تشمل تلك الفترة كما قلنا قرابة عشرة قرون من الزمن، وبقعة واسعة من الأرض، منها ما بقي فيه الإسلام حتى اليوم، ومنها ما انحسر عنه —في أوربا خاصة- وتشمل في التاريخ السياسي الخلافة الأموية كلها، والخلافة العباسية كلها، وقسما من الخلافة العثمانية التي بدأ في عهدها الانحسار.. وتشمل كذلك أعرض تاريخ لأية أمة من أمم الأرض في التاريخ كله، برغم ما فيها من هزات وذبذبات، ورغم الانحرافات التي ظلت تتزايد حتى أودت بدولة الإسلام.

والأسماء والوقائع والشخصيات في هذه الفترة المديدة أضخم من أن تحصى. وتلك إحدى مصاعب الدراسة التفصيلية فيها. إذا أضيف إليها تداخل التقسيمات السياسية في الزمن وفي الأرض، والتداخل العقدي والفكري والحضاري في كل فترة تقريبا من فترات ذلك التاريح.

وقبل الدخول في الحديث عن التصحيحات والمراجعات الخاصة بالمنهج، تقول إنه ربما أمكن تيسير هذه الصعوبة الدراسية —ولو بقدر- لو أننا عممنا استخدام الأطالس التاريخية المقسمة إلى فترات زمنية متقاربة- خمسين سنة مثلا لكل فترة، تزيد أو تنقص- فيكون لدينا ما يقرب من ثلاثين خريطة للتاريخ الإسلامي كله، يبين في كل خريطة منها مدى انتشار الإسلام في الأرض، والدولة الحاكمة في كل بقعة من الأرض الإسلامية، وتاريخ تأسيس الدولة الحاكمة وتاريخ انتهائها، مع تخصيص خريطة قائمة بذاتها لكل واحد من الخلفاء الراشدين.

ونضرب أمثلة توضح طريقة العمل في هذه الأطالس..

الخريطة الأولى للخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، يكون عنوانها: الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه من 11-13هـ. ويرسم فيها العالم الإسلامي القائم يومئذ مع أجزاء من الأرض المجاورة التي لم يكن الإسلام قد وصل إليها بعد. ثم يلون القسم الخاص بالعالم الإسلامي باللون الأخضر مثلاً، وتترك بقية الأرض بغير تلوين، فتستطيع عين الرائيي أن تميز لأول وهلة حدود العالم الإسلامي في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

والخريطة الثانية والثالثة والرابعة على ذات النسق، واحداة لكل من الخلفاء الراشدين بعد أبي بكر، بتواريخ حكم كل واحد منهم، مع إضافةٍ بظلٍّ خاص في خريطة علي رضي الله عنه تبين منطقة النزاع بينه وبين معاوية.

والخريطة الخامسة للخمسين السنة الأولى تقريباً من الخلافة الأمورية، يلون فيها العالم الإسلامي كما سبق بلون معين، مع رسم أجزاء حوله من الأرض التي لم يكن الإسلام قد وصل إليها بعد غير ملونة للتميز بينهما. ويكتب العنوان على الخريطة: الخلافة الأموية من 41-132هـ (أي مدة الخلافة كلها بصرف النظر عن الفترة الزمنية التي تمثلها الخريطة) ثم تحدد الفترة الخاصة بالخريطة هكذا: العالم الإسلامي من سنة 41هـ إلى سنة كذا..

والخريطة السادسة على نفس النسق، وبذات العنوان: الخلافة الأموية من 41-132هـ، ويحدد عليها الزمن الخاص بها: العالم الإسلامي من سنة كذا إلى سنة 132هـ.

ولا بأس في الأطالس الأكثر تخصصا أن نقرب المسافات الزمنية بين الخرائط، وأن نحدد على كل خريطة بألوان مختلفة حدود العالم الإسلامي في عهد كل حاكم من الحكام على حدة، مع تحديد مدة حكمه في هوامش الخريطة.

أما الخريطة السابعة فستكون مختلفة، وعلى نسقها تكون بقية الخرائط. فسيكون لدينا خلافتان في وقت واحد: الخلافة العباسية في الشرق، والخلافة الأموية في الشمال الأفريقي والأندلس. وسنستخدم لونين متميزين في هذه الخريطة، وألوانا أكثر فيما بعد، كل لون يبين حدود كل خلافة على حدة، وبعض الخرائط التالية ستكون أكثر تعقيدا حيث توجد في داخل كل من الخلافتين دول مستقلة تماما أو شبه مستقلة تحتاج إلى التمييز بلون خاص كالدولة الأخشيدية والدولة الطولونية في مصر والدولة السلجوقية في سوريا والعراق وآسيا الصغرى، ودولة المماليك في مصر والشام.. إلخ.

هذا الأطلس ذو الخرائط الثلاثين تقريبا –أو أكثر من ذلك للمتخصصين- سييسر على الدارس كثيرا فيما أعتقد، وسيعينه على تصور الأحوال السياسية والجغرافية في أية فترة من فترات التاريخ الإسلامي. وهو عمل يحتاج إلى كثير من الجهد، ولكنه يبذل مرة واحدة وتظل فائدته باقية على مر الأجيال[1].

(1) قام الدكتور حسين مؤنس بعمل أطلس تاريخي جيد ونافع للمتخصصين في دراسة التاريخ الإسلامي، ولكنا ندعو إلى عمل أطالس مبسطة للدارس المبتدئ وللقارئ العام.

* * *

أما من حيث الموضوع فإننا نحتاج إلى إزالة غبش كثير، وإلى تحديد واضح لكثير من معالم التاريخ.

يحرص المستشرقون كما قلنا على تشويه معالم التاريخ الإسلامي عامة، لأكثر من سبب واحد..

فهم أولا يشعرون بالحقد والغيظ من اعتزاز المسلم بإسلامه، أو ما يمكن أن نسميه "استعلاء الإيمان". يقول توينبي في محاضرة له عن "الإسلام والغرب": "من المؤكد أننا لم نكن نحب التركي التقليدي المسلم الذي كان يثير حنقنا عندما ينظر إليه من عل.. وبما أن التركي التقليدي القديم كان يعتبر نفسه من طينة خاصة حاولنا أن نحط من كبريائه بتصوير هذه الطينة الخاصة شيئاً ممقوتاً.."[1].

ومن ثم يكون طبيعيا أن يعمل هؤلاء المستشرقون –وهم الجناح الثقافي للمخطط الصليبي الصهيوني– على محاولة قتل هذا الاعتزاز في نفوس المسلمين. ولما كان التاريخ الإسلامي في أمجاده الباهرة على امتداد تاريخه من أهم أسباب هذا الاعتزاز في نفس المسلم، فمن الطبيعي أن يلجأ المستشرقون إلى محاولة تشويهه بشدة، لعل ذلك يطفئ لمعانه، ويذهب بروعته وبهائه، فلا يعود سببا من أسباب الاعتزاز، بل يصبح –إن أمكن– سببا من أسباب النفور ودواعي الانسلاخ!

وإذا كانت محاولاتهم لتشويه صورة التاريخ الإسلامي قد امتدت إلى العصر الذهبي للإسلام –بكل قممه الشامخة وآفاقه الرحيبة –بل امتدت في تبجح إلى شخص الرسول– صلى الله عليه وسلم– أعظم من حملته الأرض في تاريخها كله، فلن نستغرب إذن محاولاتهم لتشويه ما تلا ذلك من التاريخ، الذي يحوي بالفعل أخطاء وانحرافات واقعية. يمكن أن يُستند إليها في التشويه والتمويه، حين تجسم وتكبر، وتُعطي من الدلالات ما يخدم أهواء ذوي الأهواء!

ثم إن للمستشرقين هدفا آخر من تشويه معالم التاريخ الإسلامي إلى جانب قتل "استعلاء الإيمان" الذي يثير حفيظتهم لأنه يصعب مهمة القضاء على شخصية المسلمين وتمييعها.. ذلك الهدف هو محاولة القضاء على الصحوة الإسلامية الخطرة التي تؤذن بعودة

([1]) تعريب الدكتور نبيل صبحي بعنوان "الإسلام.. والغرب.. والمستقبل" –طبع بيروت– ص51.

الإسلام إلى الوجود والسيطرة كما كان من قبل، وهو أشد ما تفرع منه الصليبية والصهيونية كما بيّن ولفرد كانتول سميث في كتابه "الإسلام في التاريخ الحديث Islam in Modern History"[1] و"نثروب" في كتابه "السيف المقدس The Second Sword" والعديد غيرهما من المستشرقين[2].

ولما كانت أمجاد التاريخ الإسلامي من أشد الأدوات التي تستخدمها الدعوة الإسلامية تأثيرا في وجدان الناس، لأنها تذكرهم بهذا التاريخ العظيم الذي انقطعوا عنه، فتحفزهم إلى محاولة استئنافه من جديد، فمن الطبيعي بالنسبة لأصحاب المخطط –والجهازه الثقافي بصفة خاصة– أن يحرصوا على تشويه ذلك التاريخ، لعلهم يبطلون مفعوله بالنسبة للدعوة الجديدة. فحين يشوهون صورته على النحو الذي يقومون به لا يكون دافعاً من دوافع الحركة، بل لعلهم إن أمعنوا في تشويهه يحدثون حالة من اليأس إزاء الحركة الجديدة، كأنما يقال لهم: أهذا هو التاريخ الذي تتحدثون عنه وتدعوننا لاستئنافه؟! لقد انتهى الإسلام بعد الخلافة الراشدة، فانفضوا أيديكم من المحاولة، ولنعش في القرن العشرين بأدوات القرن العشرين! ولنأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها، فلا أمل يرجى في بعث الإسلام من جديد، وقد انتهى منذ أربعة عشر قرنا من الزمان!!

* * *

تلك أهدافهم، وهذه وسائلهم..

ثم يجيء "المؤرخون العرب" فيأخذون سمومهم بلا تحفظ، فرحين مستبشرين أن وقعوا على تلك "الكنوز" التي كشفت الغاشية عن عيونهم، فأبصروا ما كان خافياً عليهم من حقائق هذا التاريخ!

وقد يغرهم ما تلجأ إليه المدرسة الحديثة من المستشرقين –وعلى رأسها جب، وولفرد كانتول سميت، وجرونيباوم –من مزج السم بالعسل، فيظنونهم مخلصين للحق، نزيهين نزاهة "علمية"! فيأخذون عنهم بلا تحفظ.. يقول قائلهم: إن هؤلاء كتاب منصفون، يبدون إعجابهم بما يرونه في الإسلام مستحقا للإعجاب، فلولا أن المآخذ التي يذكرونها مآخذ حقيقية ما ذكروها! وقد كانت هذه الأمور خافية علينا من قبل لأننا متأثرون بعاطفتنا نحو

(1) سبقت الإشارة إليه.

(2) انظر "المستشرقون والإسلام" .

الإسلام، وينبغي لنا أن نتخذ "الروح العلمية" ونتجرد من العاطفة لمصلحة البحث العلمي ذاته!

أفليس هذا ما قال عنه رب العالمين:

(وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[1])[2].

أفما كان يجدر بنا بعد هذا البيان الرباني الهادي ألا نأخذ حقائق ديننا عن أعداء هذا الدين؟!

* * *

حين نراجع تاريخ هذه الفترة المتطاولة من الزمان فسنجد ولا شك انحرافا تدريجيا عن حقيقة الإسلام. ولكن حجم هذا الانحراف يجسّم عن عمد، ويكبّر حتى يملأ فراغ الصورة، ويصغّر إلى جانبه أو يُخفي ما بقي في دنيا الواقع من معالم الإسلام الأصيلة، لإعطاء هذا الإيحاء المسموم في النهاية: أن الإسلام قد انتهى بنهاية عصر الخلفاء الراشدين (أو حتى قبل ذلك!) فلا فائدة ترجى من محاولة بعثه من جديد..

وحين نراجع ما كتب عن تاريخ هذه الفترة لتصحيح منهج كتابته، فلن تكون وسيلتنا هي التغطية على خط الانحراف، فذلك مخالف للمنهج الرباني:

(..وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)[3].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ..)[4].

كلا! لا نلجأ أبدا إلى تزوير التاريخ.. بل إننا في حاجة إلى دراسة خط الانحراف بأمانة كاملة وبتركيز. فهذه هي الأخطاء التي ارتكبها المسلمون في أثناء سيرهم الطويل على درب الإسلام، وقد تراكمت حتى سدت الطريق، وأوشكت في الأخير أن تقضي على هذه الأمة

([1]) سورة آل عمران: 72.

([2]) في كتاب "المستشرقون والإسلام" بيان لأحوال هذه المدرسة من المستشرقين.

([3]) سورة الأنعام: 152.

([4]) سورة النساء: 135.

وتمحوها محوا من الوجود. فنحن –في محاولتنا الجديدة لاستئناف السير في الطريق– في حاجة شديدة إلى تبين هذه الأخطاء ودراستها، واستيعاب عبرتها، حتى نتجنبها في محاولتنا الجديدة، لكي لا تتعثر كما تعثرنا من قبل، ولكي ننقذ أنفسنا من البوار حين نعلم أي شيء أصابنا بالبوار.

نحن إذن في حاجة "تربوية" إلى دراسة خط الانحراف. ولكن هناك فرقاً واضحاً بين دراسته لاستخلاص العبرة منه، ودراسته للإيحاء بأن الإسلام لم يطبق إلا فترة وجيزة، وأنه –من ثم– نظريات جميلة غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع!

هنا حق يراد به حق، وهناك حق يراد به باطل، فضلا عما في الطريقة التي يقدم بها هذا الحق من تهويل وتضخيم وتحريف!

* * *

حين نبدأ بالفترة الأموية فسنجد في سياسة الحكم انحرافا عن الصورة المثالية التي طبقت في فترة الخلفاء الراشدين، أبرز معالمها تحول الحكم من الخلافة إلى الملك العضوض كما أخبر الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "الخلافة بعدي ثلاثون عاما ثم يأتي الملك العضوض"[1].

صحيح أنه لا يوجد نص يحدد شكل الحكم في الدولة الإسلامية، فقد جاء النص على أمرين رئيسيين: الشورى، والحكم بما أنزل الله:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)[2].

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)[3].

(وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[4].

(وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ)[1].

([1]) رواه أحمد والترمذي.

([2]) سورة الشورى: 38.

([3]) سورة آل عمران: 159.

([4]) سورة المائدة: 44.

ولكن لم يرد نص يحدد شكل الحكم: خلافة أم ملك؟ مدى الحياة أم لمدة محددة؟ إلى غير ذلك من التفصيلات الإجرائية التي ترك أمرها لاجتهاد الأمة المسلمة عند التطبيق. ولكن الذي نص عليه حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم– ووقع في عهد بني أمية بالفعل –هو انتقال الحكم من الخلافة إلى "الملك العضوض"، بما يوحي به التعبير من وقوع المظالم على الناس.

ولا بد من دراسة العوامل التي أدت إلى حدوث هذا التغيير أولا، ثم استقراره في حياة المسلمين بعد ذلك.. ولكن الزعم بأن الإسلام قد انتهى بسبب ذلك التغيير –أو ذلك الانحراف– زعم مخالف للحقيقة، مبالغ فيه كثيرا بقصد أو بغير قصد.

فلننظر أولاً في أسباب حدوثه، ثم لننظر ثانيا في حجم هذا الانحراف على وجه التحديد.

من الواضح أن الفتنة التي أحدثها عبد الله بن سبأ، وانتهت بمقتل عثمان رضي الله عنه، ثم قيام النزاع بين علي ومعاوية، وظهور الخوارج الذين دفعهم تفكيرهم المعوج إلى محاولة قتل أطراف النزاع جميعا، كأنما كان ذلك سيحل المشكلة! (بل كان سيزيدها تعقيداً!) كل ذلك كان من أسباب التمكين لهذا النظام الذي وصفه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بأنه ملك عضوض.. فقد هزت الفتنة وجدان المسلمين هزا عنيفا حتى تمنوا أن ينتهي الصراع على أية صورة، وأن يعود المجتمع المسلم إلى الاستقرار، ولو على حساب بعض المثل الإسلامية الرفيعة، وكان هذا من الأسباب التي دعت فريقا من أجلّة الصحابة رضوان الله عليهم أن يتحاشوا الدخول في الصراع مؤيدين عليا أو معاوية، خشية أن يزيد تدخلهم من حدة الصراع بدلا من أن يحسمه.

ومن جانب آخر كان الفتح الإسلامي –الذي لا مثيل له في سرعته في التاريخ كله– قد أدخل في الإسلام شعوبا بأكملها، وكتلا بشرية لا عداد لها، لم يتح لها بعد فرصة التعمق في الإسلام، أو تلقي التربية الإسلامية المتكاملة الجوانب، التي تجعلها حريصة على مُثُل الإسلام الرفيعة لا تفرط فيها.

هذان العاملان معا: الخوف من اتساع الفتنة والرغبة في إطفائها على أية صورة، وحداثة عهد العدد الكبير من الناس بالإسلام، هما اللذان مكنا للحكم الأموي العضوض. وإلا.. فقد كان المفروض بعد أن تستقر الزوبعة التي أحدثتها الفتنة، والتي جعلت الصحابة

([1]) سورة المائدة: 49.

رضوان الله عليهم يرضون بالتضحية –مؤقتا– ببعض المثل الإسلامية الرفيعة في سبيل الاستقرار.. كان المفروض أن يستأنف المسلمون حياتهم الإسلامية الرفيعة التي مارسوها أيام الخلفاء الراشدين.

ولقد عمل الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على تصحيح الأوضاع، والرجوع بها إلى الصورة المثالية الرفيعة التي كانت عليها زمن الخلفاء الراشدين، فتنازل عن الحكم الذي ورثه ممن سبقه، ورد الأمر للناس ليختاروا إمامهم اختيارا حرا ببيعة حرة لا إكراه فيها ولا قيد.. فاختاره الناس بالإجماع لما رأوا فيه من سمات الخلافة وتجريدهم هم مما كانوا قد استولوا عليه بسلطان الملك، وقال بعضهم لبعض: ذوقوا مغبة تزويجكم لآل الخطاب! أن كان نسب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ينتهي بالمصاهرة إلى آل الخطاب!!

وهكذا استمر "الملك العضوض" في طريقه حائلا دون استمرار عملية التصحيح، وظلت المعاملة العنيفة للمعارضين والمعترضين تجعل جمهرة الناس يقبعون في داخل أنفسهم، ويتركون "الاشتغال بالسياسة" وينصرفون إلى غيره من ألوان النشاط.

وإلى هنا يكون قد وقع من الحكم الأموي انحرافان في عالم السياسة، أيا كانت الأسباب التي استندوا إليها لتبريرهما. الأول هو تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامي، الذي تتمثل فيه روح الإسلام كاملة، وهو الخلافة، واستبدال الملك العضوض به، والثاني محاولة إسكات الناس بالقوة عن مراقبة أعمال الحاكم، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وصرفهم بالعنف عن أداء واجبهم الإسلامي في هذا الشأن، الذي تعلموه في فترة الخلافة الراشدة، وهو أن قضية الحكم مهمة مشتركة بين الراعي والرعية، وليست أمرا يستقل به الراعي دون الرعية[1].

وتبدو جسامة الآثار التي ترتبت على هذين الانحرافين حين نرى العهود التالية تأخذهما كأنهما مبادئ مقررة، مما أدى إلى استقرار لون من الاستبداء السياسي في حياة المسلمين كأنه أصل من أصول الحياة السياسية الإسلامية، فيما عدا الفترات التي يأخذ العدل فيها

([1]) يحتاج هذا الأمر إلى دراسات متخصصة تبين حقيقة "النظرية السياسية الإسلامية" لأن التطبيق الواقعي في حياة المسلمين بعد فترة الخلافة الراشدة قد غشّى كثيراً على حقيقتها. وينبغي أن تؤخذ أصول النظرية من كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– وتؤخذ تطبيقاتها الصحيحة من فترة الخلافة الراشدة.

مجراه بدافع ذاتي من الحاكم، لا بطلب من الأمة، ولا بسعي من جانبها، وتستقيم أحوال الرعية بتطوع نبيل من الجالس في مقعد السلطة. لا أخذاً على أيدي الظالمين، ولا بأطرهم على الحق أطراً كما أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–[1].

وقد كان لهذا الأمر آثار خطيرة في حياة الأمة، إن لم تظهر بوضوح في العهد الأموي، فقد كانت أوضح في العهد العباسي ثم العهد العثماني، وسنتكلم عن هذه الآثار في مكانها في فصول الكتاب[2].

وثمت انحراف ثالث وقع فيه الأمويون ثم ظلت رقعته تتزايد في العهود التالية.. ذلك هو البحبحة في بيت المال.

لقد كان أبو بكر رضي الله عنه لا يدور في خلده أن يأخذ درهما واحدا من بيت مال المسلمين، حتى جعل له المسلمون راتبا ضيئلا يعيش عليه، حين رأوه صبيحة توليه الأمر ذاهبا إلى السوق فسألوه: إلى أين؟! فقال: أتكسب لأعيش!! فقالوا له إن هذا الأمر لا يصلح مع ذاك! فقال في براءة نفسه الطاهرة الصافية: ومم أعيش؟! فتشاوروا فجعلوا له ذلك الراتب الضئيل.

وكان عمر –رضي الله عنه– يشتد على نفسه وأهله، فلما وفرت له زوجه من قوت كل يوم فضلة صنعت له بها فطيرة في نهاية الأسبوع، قال لها: ما دمت استطعت توفيرها فهي زيادة.. رديها إلى بيت المال!

ولما تبحبح عثمان رضي الله عنه في بعض المال، لا لنفسه ولا لمنفعته الخاصة، فلم يكن في بيته يوم قتل أكثر من دريهمات، وهو الذي كان يملك الألوف ومئات الألوف أنفقها كلها في سبيل الله، وإنما كان برا ببعض ذوي قرباه، ثارت مشاعر الصحابة رضوان الله عليهم وعاتبوه في ذلك.. حتى إذا جاء علي –رضي الله عنه– أعاد سيرة الشيخين في الحرص على أموال المسلمين.. رآه أصحابه يوماً في الكوفة وعليه قطيفة قديمة، فقالوا له: إن الله قد وسع عليك من بيت المال، فقال رضي الله عنه: والله ما أرزؤكم شيئا! إن هي إلا قطيفتي خرجت بها من المدينة!

([1]) يقول عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده لتأطرنهم على الحق أطرا ولتقصرنهم عليه قصرا" رواه أبو داود والترمذي.

([2]) تحدثت عن بعض هذه الآثار في كتاب "واقعنا المعاصر". والحديث هنا في هذا الكتاب لازم كذلك.

أما الأمويون فقد أباحوا لأنفسهم الإنفاق من بيت مال المسلمين لشراء الأنصار وتثبيت الملك، متأولين ذلك بأنه من باب تأليف القلوب! وقد جعل الله الإنفاق من الزكاة لتأليف القلوب للإسلام، لا لتأييد البيت الحاكم والتمكين له!

تلك مجمل الانحرافات التي وقعت في العهد الأموي..

ولكننا حين نعيد كتابة هذه الفترة ينبغي أن نكون على بينة من عدة محاذير..

المحذور الأول أن معظم ما نتداوله في مدارسنا وفي دراساتنا عن هذه الفترة مكتوب بأيد شيعية أو سبأية، همها الأول التشنيع على بني أمية، وتجسيم أخطائهم وإبرازها، وإخفاء الحسنات أو تفسيرها تفسيرا ملتويا يذهب بما فيها من الخير، ويعرضها كأنها من السيئات!

وعلاج هذا الأمر –كما أشرنا في الفصل السابق– هو اتباع منهج المحدّثين، لتمحيص الروايات المدسوسة والضعيفة والملتوية، للوصول إلى الحقائق الصاقية بقدر ما يتاح للمؤرخ المسلم الملتزم بالحيدة العلمية التي هي أصل من أصول هذا الدين:

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)[1].

والمحذور الثاني في المقابل هو محاولة الدفاع عن بني أمية بنفي كل التهم الموجهة إليهم على أساس أنها موجهة من الخصوم السياسيين فهي باطلة لأول وهلة، ولا بد من الاجتهاد في دحضها وإثبات عكسها!

والمحذور في هذا المسلك أنه –أولا– مخالف للمنهج الرباني الذي سبقت الإشارة إليه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)[2].

ثم هو ثانيا يوشك أن يوقعنا في محذور أشد هو اتهام الإسلام بأن مثله الرفيعة غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع، وأننا لا بد أن نحيد عنها لمواجهة الواقع العملي! وهي دعوى ما أيسر

(1) سورة الإسراء: 37.

(2) سورة النساء: 135.

أن يتخذها الطغاة سندا لإيقاع المظالم بالناس والتنكيل بالمعارضين الذين يقفون في وجه استبدادهم وظلمهم.

وليس كل تفسير قابلا لأن يكون تبريرا لما حدث بالفعل. فالتفسير مهمته أن يبين لنا كيف حدث الأمر على النحو الذي حدث به، ويبين لنا العوامل التي وجهت الحدث وجهته، سواء أكانت قوى قاهرة أم كانت من أهواء النفوس. أما التبرير فلا يكون صحيحا إلا حين يسقط من اعتباره التأويلات الفاسدة وأهواء النفوس.

ولنضرب مثالا مبسطا يوضح الفرق بين التفسير والتبرير..

حين نقول إن فلانا كان يكره فلانا لأنه نافسه أو وقف في طريقه وهو يسعى للوصول إلى هدف معين، فلما نجح في الوصول إلى مركز السلطة بطش به، فنحن نفسر الحدث، ونبين العوامل التي وجهته. ولكننا —في التفسير الإسلامي للتاريخ– لا نجعل من هذا التفسير تبريراً للبطش، لأننا نخالف بهذا التبرير "قيمة" من القيم الإسلامية هي قوله تعالى في كتابه المنزل:

(وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[1].

وقوله تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا)[2].

كما نسقط "قيمة أخرى" من القيم الإسلامية هي أن الإنسان قد ميزه الله عن الحيوان بأن زوده بجهاز نفسي يكبح به أهواءه، ويضبطها بالضوابط الربانية التي سماها الله "حدوداً" وقال عنها:

(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا)[3].

(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)[4].

([1]) سورة المائدة: 8.

([2]) أخرجه مسلم.

([3]) سورة البقرة: 229.

([4]) سورة البقرة: 187.

وجعل مقياس إنسانية الإنسان مدى التزامه بهذه الضوابط وتزكية نفسه بالتزامها:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[1].

وجعل الجزاء الأخروي مرتبطا بهذه التزكية أو التدسية، المرتبطة بدورها بالالتزام —أو عدم الالتزام– بالضوابط الربانية:

(فَأَمَّا مَن طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[2].

وتلك كلها معايير إسلامية، نسقطها حين نأخذ كل تفسير على أنه تبرير، كما يفعل التفسير المادي للتاريخ، والتفسير الغربي (الليبرالي)، وكلاهما يسقط القيم الروحية والقيم الأخلاقية من حسابه، وهو أمر يجب أن نتحاشاه ونحن نقدم للناس التفسير الإسلامي للتاريخ سواء فيما يتعلق بتاريخ الإسلام أو تاريخ البشرية عامة[3].

وسنجد حين نلتزم بتلك الضوابط جميعا أننا نستطيع أن نفسر ونبرز كثيراً من أعمال معاوية التي قام الشيعة والسبئيون بتشويهها لهوى في أنفسهم. ولكننا لا نستطيع أن نبرر كل ما فعله معاوية، دون أن نجني على قيم إسلامية أصيلة.

وليست القضية شهوة في تجريح معاوية، ولا شهوة في الدفاع عنه وتبرئته.. فكلتاهما حَيْدٌ عن الطريق.

إنما القضية هي الأمانة الواجبة لهذا الدين قيمه ومعاييره، والرسالة التي نزل ليؤديها في حياة الناس.

فلنحرص على تكريم الأشخاص الذين يستحقون التكريم، ولكن فلنحرص أكثر على بيان نقاء هذا الدين ورفعته، ورفضه لأي انحراف يقع في التطبيق.

([1]) سورة الشمس: 7-10.

([2]) سورة النازعات: 37-41.

([3]) انظر تفصيل إن شئت في كتاب "حول التفسير الإسلامي للتاريخ".

والبشر يخطئون... (كل بني آدم خطاء)[1] ويغفر الله بواسع رحمته لمن يشاء من عباده، ولكن تظل قواعد الدين ومعاييره ثابتة لا تُلْوي مجاملة لمن يخطئ أو ينحرف في التطبيق.

ثم إنه يجب علينا أن نتذكر أن ما ينطبق على شخص معاوية وظروفه لا ينطبق بالضرورة على شخص يزيد وظروفه[2]! ولا ينطبق بالضرورة كذلك على بقية حكام بني أمية، بحيث تصبح براءة معاوية مما نسب إليه كله أو بعضه شهادة تبرئة لكل حكام بني أمية بالتبعية! لا لأننا نجامل معاوية دون يزيد أو غيره، ولكن لأن ظروف الفتنة التي جاء فيها معاوية غير ظروف الاستقرار النسبي التي جاء فيها الآخرون، ولأن تصرفات معاوية أقرب إلى الانضباط بضوابط الإسلام من تصرفات من خلفوه، فيما عدا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذي ضاقوا به ذرعا لشدة تمسكه بضوابط الإسلام! وكون حكام بني أمية في عمومهم أكثر حنكة في أمور السياسة من غيرهم لا يبرر لهم ما أخطأوا به في حق الإسلام! وهكذا ينبغي أن يكتب تاريخهم بلا تحامل ولا محاباة.

* * *

على أن الأمر الذي يجب التركيز عليه كثيرا هو الحجم الحقيقي للانحراف الذي وقع في عهد بني أمية بالقياس إلى ما بقي من حقيقة هذا الدين في عالم الواقع.

إن هناك –كما أشرنا مرارا من قبل– وهْما يُجسِّم عن قصد وغير قصد، مفاده أن الانحراف الذي وقع في عهد بني أمية –فضلا عما بعده– قد قضى على هذا الدين! وهو وهم يكذبه الواقع! وأبسط ما يقوله الواقع أن هذا الدين ما زال باقياً في الأرض إلى هذه اللحظة –بدليل الصحوة الإسلامية– بعد وقوع انحرافات بني أمية بأربعة عشر قرناً على وجه التقريب!

وشهادة الواقع تكفي..

ولكن الذي نريده هنا هو محاولة تحديد حجم ذلك الانحراف بالقياس إلى ما بقي سليما من الصورة.

([1]) سبقت الإشارة إليه.

([2]) يدافع كثير من الناس عن يزيد لتبرير اختيار معاوية له وليا للعهد، لا اقتناعا منهم بأن يزيد بريء مما يريدون تبرئته منه!

لقد حدث دون شك هبوط عن الذروة التي كانت على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشدين من بعده. وهذا الهبوط عن تلك الذروة هو ذاته أحد أسباب الوهم الذي يتجسد في أذهان بعض الناس من أن الإسلام قد انتهى منذ ذلك الحين!

فنحب أن نقرر باديء ذي بدء أن تلك الذروة –بكل روعتها– لم يكن يفترض أن تدوم في الأرض كثيراً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن وجوده بشخصه عليه الصلاة والسلام كان عاملا مهما فيها، كما أن أثر النشأة الجديدة كان عاملا مهما فيها كذلك، وهما عاملان –بطبيعتهما– لا يتكرران ولا يدومان![1]

ونحب أن نقرر كذلك أن الجيل الذي ارتفع إلى تلك الذروة قد ارتفع إليها تطوعا لا تكليفا، وأن الله لم يفرض على البشر أن يرتفعوا إلى تلك القمم الشاهقة فرضا، وإن كان قد حبب إليهم ذلك بكل تأكيد. وإنما ارتفع ذلك الجيل الفريد إلى تلك الذروة بأنه أخذ المندوبات والمستحبات كأنها فروض، وألزم بها نفسه تطوعا لا تكليفا.

ونضرب بعض الأمثلة التي توضح ذلك..

لقد قرر الله أخوّة المؤمنين بعضهم لبعض فقال جل شأنه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[2] وفرض التكافل بين القادرين وغير القادرين فرضا عن طريق الزكاة، وترك ما فوق ذلك للتطوع بقدر ما تجود به النفس. أما الذين قال الله فيهم: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[3] فقد تطوعوا من عند أنفسهم بدرجة أعلى من تطوع القادرين، فهم لم يتطوعوا عن سعة بعد أن استكفوا لأنفسهم، بل آثروا على أنفسهم مع كونهم في حالة خصاصة، وتلك قمة لا يقدر عليها كل الناس، ولم يفترضها الله على أحد من الناس!

وقرر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن "الحلال بين والحرام بين، وبينهما متشابهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه"[4] فوجه المسلمين إلى اتقاء الشبهات. أما الذين قالوا عن أنفسهم: "كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام" فقد تطوعوا من عند أنفسهم بما لم يفرضه الله ولا رسوله، تقربا إلى الله وحبا في مغفرته ورضاه..

([1]) راجع إن شئت فصل "نظرة إلى الجيل الفريد" من كتاب "واقعنا المعاصر".

([2]) سورة الحجرات: 10.

([3]) سورة الحشر: 9.

([4]) أخرجه الشيخان.

وبهذا وذاك وأمثاله تفرد ذلك الجيل الفريد.. ولكنا لا نحاسب أحدا بمقتضى ذلك التطوع النبيل. ولا نحاسب بني أمية ولا بني العباس ولا آل عثمان ولا غيرهم من الحكام بتلك القمم الشاهقة التي وصل إليها أفراد في المجتمع المسلم في عهد الذروة، كان على رأسهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم. إنما نحاسبهم بما فرضه الله عليهم فرضا، وجعل النكول عنه ذنبا يساءلون عنه أمام الله يوم القيامة، فيغفر سبحانه لمن يشاء ويؤاخذ من يشاء.

أي أننا لا نحاسب بني أمية –ولا غيرهم– بعدل عمر رضي الله عنه، ولكن نحاسبهم بما وقع في "الملك العضوض" من مظالم لا يرضى الله عنها. ولا نؤاخذهم بعفة الخلفاء الراشدين –الخمسة–[1] في التعامل مع بيت مال المسلمين، ولكن نؤاخذهم بتأولهم الفاسد في الإنفاق من بيت المال لتأليف قلوب الناس لحكمهم ولأشخاصهم بينما قرر الله أن يكون الإنفاق من الزكاة لتأليف القلوب للإسلام. ونؤاخذهم بضرب كل المعارضين بالعنف، بينما كان بعض المعارضين يحتجون على مخالفات بني أمية ولا يسعون إلى الحكم لمجرد إزاحة بني أمية عن السلطان، وكان العلاج الصحيح للأمر هو عدول بني أمية عن أخطائهم لا ضرب المعارضين الذين احتجوا على تلك الأخطاء.

خلاصة القول إذن أن الهبوط عن مستوى الذروة الأولى لا يعتبر في ذاته انحرافا، إنما هو الأمر الطبيعي المتوقع بعد غيبة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وبعد أن ينتهي أثر النشأة الجديدة في نفوس الناس، ولا يؤدي ذلك الهبوط كذلك إلى انتهاء الإسلام من الأرض، فقد جعل الله في المستوى العادي للإسلام –أي الذي يلتزم بما فرضه الله فرضا ولا يزيد عليه– سعادة أهل الأرض جميعا لو أنهم اتبعوه والتزموا به، بما لا يتحقق من أي نظام جاهلي يجري تطبيقه في الأرض، وجعل جزاءه في الآخرة هو الجنة.

وإنما الذي يؤاخذ عليه بنو أمية وغيرهم –كما أسلفنا– هو الانحراف عن هذا المستوى الملزم إذا هبطوا عنه. وقد حدث هذا الانحراف بالفعل، فما حجمه؟ وما أثره في التطبيق الواقعي للإسلام على عهد بني أمية؟

يكفي أن نسجل فقط حركة الانسياح الإسلامي في الأرض، التي تمت في عهد بني أمية، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين!!

([1]) كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شديد الحساسية تجاه بيت المال. فقد كان يجلس في الليل لقضاء حوائج المسلمين وقد استضاء بشمعة من بيت المال، فدخل عليه ابنه يحدثه، فلما تبين أنه جاء يحدثه في أمر خاص أطفأ الشمعة لكي لا تستهلك في أمر خاص!!

إن حركة الفتح الإسلامي ليست مجرد توسع في الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار.

إنما هي أكبر حركة "هداية" للناس في التاريخ، وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور، وقد يبدو هذا الكلام في حس "المثقفين" لأول وهلة مجرد تشابه مع دعوى كل "دولة عظمى!" أنها نشرت الحضارة في الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة!

فلننظر إذن في تاريخ "الإمبراطوريات" في القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية. الإمبراطورية الآشورية. الإمبراطورية الفينيقية. الإمبراطورية الرومانية. الإمبراطورية الفارسية. الإمبراطورية الهندية. الإمبراطورية الصينية.. الإمبراطورية البريطانية. الإمبراطورية الفرنسية. الإمبراطورية الأمريكية. الإمبراطورية الروسية.. إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التي يعج بها تاريخ الأرض..

كيف قامت أولا؟ وماذا نشرت في الأرض؟

فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدماً لتلك الدولة الأم يمدونها بالرجال المقاتلين، ويمدونها بمختلف الخيرات لتنتفش هي وتشبع وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فأمر لا أحسبه يحتمل المراء..

وأما الذي نشرته في الأرض فلا مراء كذلك في أنها نشرت بعض الخير، ونشرت إلى جانبه كثيراً من الفساد، لأن حياتها هي ذاتها —وهي لا تهتدي بمنهج رباني– لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه!

ولقد تبدو الحضارة الغربية القائمة اليوم استثناء من هذا العموم الذي ذكرناه! فنود أن نذكّر المخدوعين بها بما كان من فظائع الاستعمار الذي صاحب تلك "الحضارة"، من احتلال أراضي الشعوب بالقوة ونهب خيراتها وإذلال أهلها، وأن نذكرهم كذلك بأن آخر إفرازات هذه الحضارة، الذي يسمى "النظام العالمي الجديد" إن هو إلا نوع جديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، ومن أبرز "مآثره" التخطيط للتحكم في الدول المنتجة للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول في مدة أقصر، وطرحه في الأسواق بسعر أقل، لكي تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء

فقرا وذلا وضياعا باسم "النظام العالمي الجديد"! ومن مآثره كذلك إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صدّ العدوان!

وأما أصحاب الرسالات السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا في الأرض؟

فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببني إسرائيل، لا يحبون نشره في الأرض لكي يبقى الإله خالصا لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس! وأما النصارى فمنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع. فأي شيء نشروا؟

لقد نشروا باديء ذي بدء دينا وثنيا بدلا من الدين الرباني الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم. دينا يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله:

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)[1].

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ)[2].

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)[3].

ونشروا دينا يدعو إلى الرهبانية وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه، فنشأ عنه تعطل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ رد فعل أسوأ: انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة!:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)[4].

([1]) سورة المائدة: 72.

([2]) سورة المائدة: 73.

([3]) سورة آل عمران: 79-80.

([4]) سورة الحديد: 27.

ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتي يتمثل في الكنيسة ورجالها وعلى رأسهم البابا، يمارس ألوانا من الطغيان البشع في جميع نواحي الحياة، ويعادي الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمي التجريبي أو النظري، فتأخرت الحياة في كل جانب، ثم حدث رد فعل أسوأ، تمثل في الإلحاد وإقامة الحياة على مبعدة من الدين، بل في عداء مع الدين!

وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلا من الإصلاح، سواء في الفترة التي كانت تمارس سلطانها على الناس، أو في الفترة التي انقلب فيها الناس على سلطانها ورفضوا الخضوع للدين!

وفي مقابل ذلك كان الانسياح الإسلامي في الأرض شيئا فريدا في التاريخ.. شيئا غير التوسع "الإمبراطوري" الذي مارسته الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذي مارسته النصرانية المحرفة وهي تتوسع في الأرض..

في تلك الحركة الفريدة في التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى في مكان الضلال. ينشرون النور في مكان الظلام. ينشرون العبودية الصحيحة لله في مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان. ويحررون المستعبدين في الأرض، ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق "بالإنسان"

وكانوا ينشرون قيما من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل ولا رأتها من بعد في غير الإسلام.

وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم في الأرض، بل يستظل بظلها النصارى في الأندلس وشرق أوروبا، واليهود في مختلف بلاد العالم الإسلامي، والوثنيون عباد البقر في الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان..[1]

لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار "سيادتهم" عليها واستعلاءهم على أهلها.. إنما دعوهم أولاً إلى الخير –وهو الإسلام– فإن استجابوا فهم إخوة في الدين. وإن أبوا طلبوا منهم جزية

(1) انظر في هذا إن شئت كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" فصل "أمة التوحيد بين الماضي والحاضر" –لمحات من التاريخ ص135 –ص177.

تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافيا بلا غبش.. فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما لإزالة "مراكز القوى" التي تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته.. فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحرارا في ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون[1].

إن حركة الفتح الإسلامي: دوافعها، وخصائصها، وآثارها الواقعية لهي فصل أساسي في كتاب التاريخ الإسلامي، لا بد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتتلمذ عليهم من "المؤرخين العرب"[2]... وإن كنا نوردها هنا من زاوية معينة: هي دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامي في نفوس الأمة التي تتحرك به، فلن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة وهي نفسها خاوية منه، أو غير ممتلئة به حتى أعماقها!

وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين في هذا الشأن –لفرط هشاشته– قول من قال إن الدوافع الاقتصادية هي التي دفعت حركة الفتح الإسلامي! إن الذي تدفعه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس –أول ما يدعوهم– إلى الإسلام! فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه! وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه في الخير الرباني الذي هداه الله إليه! ويحهم! كم يفترون الكذب على التاريخ!

وتسقط الدعاوى الأخرى تباعا.. وتبقى حقيقة مهمة هي أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التي أخذتها بالفعل إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة في نشره في آفاق الأرض.. فقد أشرنا في أكثر من كتاب إلى أن "القوة" وحدها لا تفسر ما حدث في هذه الحركة من العجائب.. فكم استخدمت القوى الطاغية في الأرض قوتها للتوسع في الأرض، فلم تصنع ما صنعته الحركة الإسلامية! إن السيف –كما قلت في أكثر من موضع– يمكن أن يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح القلوب! والذي حدث في حركة الفتح الإسلامي لم يكن مجرد التوسع في الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان –في كثير من الأقطار– اتخاذ لغة الدين الجديد لغة "قومية"، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات! حتى الذين بقوا على دينهم.. بغير إكراه!

([1]) راجع بالذات من بين الصفحات المشار إليها آنفا ص153-163 من فصل "أمة التوحيد بين الماضي والحاضر".

([2]) مما يؤسف له أن يتتلمذ مؤرخون "مسلمون" على أعداء هذا الدين، ينقلون عنهم، ويتعصبون لأقوالهم، غير شاعرين بما يبثه هؤلاء من السموم!.

لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقاً، بمعنى الإيمان بهذا الدين، وممارسته في عالم الواقع، والتمكن منه عقيدة وسلوكا وحركة، ما حدثت هذه العجائب في الفتح الإسلامي.

وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها.. إنها في غالب الأحيان لم تكن هي الأكبر عددا وعدة وخبرة حربية.. إنما كان العدد والعدة والخبرة في الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام "قوة" المسلمين! فلو لم يكن هناك عنصر آخر –غير مادي– في جانب الفاتحين ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم في فنون الحرب، كما يفوقونهم في العدد والعدة سواء. ذلك العنصر هو العقيدة الحية التي تملأ القلوب..

وهذه هي الدلالة التي نركز عليها هنا في وجه الدعاوي التي تقول إن انحرافات بني أمية قضت على هذا الدين وهو بعد في المهد! وتلك نقطة ينبغي أن نقف عندها طويلا حتى نقوّمها في نفوس الدراسين.

ينبغي أن نلغي من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود. ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامي بأمانة كاملة وبدقة كذلك، بانحرافاته واستقاماته معاً في وقت واحد. وسيتبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات أن الحصيلة المتبقية ضخمة جدا رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالي فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره في التربة وتعمقها، بحيث يُجْتثّ منها ما اجتثته الدولة الأموية ثم تبقى منه هذه الحصيلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية التي تسعى لنشر الدين في الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التي قام بها المسلمون في العهد الأموي بالذات، سواء في أثناء قيامهم بالحكم في المشرق، أو بعد انتهاء دولتهم في المشرق واستمرارها في المغرب والأندلس بعد ذلك، واقتحامها جنوب أوربا في أكثر من موضع..

وينبغي في الوقت ذاته –بعد التأكيد على هذا المعنى وطرد تلك الأسطورة الخبيثة من الأذهان –ألا نهوّن من الانحرافات التي وقعت من الأمويين. إنها انحرافات. وينبغي أن يظل في حسنا أنها انحرافات. وكل تهوين من أمرها هو تهوين من القيم الإسلامية ذاتها، وضرورة إبقائها في التطبيق الواقعي ناصعة وضيئة تشهد لهذا الدين..

وهذا درس تربوي لازم لنا في دراستنا الهادفة، التي تلتزم في الوقت ذاته الحقيقة العلمية كاملة بغير تزييف.

* * *

ولنلق نظرة على "المجتمع الإسلامي" بصرف النظر عن انحرافات بني أمية في التطبيق.. هل تغير؟ وكم تغيّر؟

ولنعد إلى السمات التي وصفنا بها المجتمع الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين في الفصل السابق، لنرى مدى القرب أو البعد من ذلك الجيل الفريد..

قلنا إنه –في عمومه– مجتمع مسلم، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق لتعاليم الإسلام بجدية واضحة والتزام، وبأقل قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التاريخ.

وإنه المجتمع الذي تحقق فيه على أعلى مستوى المعنى الحقيقي "للأمة".. أمة العقيدة.

وإنه مجتمع أخلاقي، يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة، مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته.

وإنه مجتمع جاد، مشغول بمعالي الأمور لا بسفسافها.

وإنه مجتمع مجند للعمل في كل اتجاه.

وإنه مجتمع متعبد..[1] .

فما الذي تغير من هذه السمات في المجتمع الإسلامي في عهد الأمويين؟

أما الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة في بعض أفراد المجتمع، أو قل –إن شئت– في كثير منهم. ولكنا أوضحنا من قبل أن هذا لا يعتبر في ذاته انحرافا، إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا في العهد الذي شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما في العصر الذي يليه. ولكن فلنذكر جيدا تزكية رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لذلك الجيل من الناس: "خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[2]. فنحن إذن ما زلنا مع القرون المفضلة. وليس بعد شهادة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– شهادة من بشر!

([1]) راجع ص114–ص117 من الكتاب.

([2]) أخرجه الشيخان.

صحيح أننا الآن مع المستوى "العادي" للإسلام، ولكنا بينا أن ذلك المستوى رفيع في ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التي وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر. والذي تحقق للناس على عهد الذروة لم يكن الخير مجردا، إنما كان درجة مثالية من الخير غير معهودة في حياة البشر. والحق أنه قد بقي في مجتمع بني أمية أفراد على ذلك المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها – حتى في عصر الانحطاط– من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملحوظ أن كثافة تلك النماذج في مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجيا مع مرور الزمان..

ولكن يجب علينا –من باب الأمانة للحق– أن نقول إن شيئا ما قد حدث في ذلك المجتمع، بتأثير الفتنة أولا، ثم بتأثير العنف الذي مارسه الأمويون في ضرب المعارضين، ذلك هو التضاؤل التدريجي في اشتغال الأمة بالرقابة على أعمال الحاكم، وتقديم النصيحة له، والأخذ على يده حين يخطئ كما أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والانصراف التدريجي إلى الشئون الخاصة، سواء كانت أداء للشعائر التعبدية، أو ضربا في مناكب الأرض وراء الرزق، وهو بدء منزلق خطير سترى آثاره واضحة فيما تلا ذلك من العهود[1].

* * *

إن خطورة الانحرافات السياسية التي وقعت من بني أمية، والتي أخذت تنعكس رويدا رويدا على المجتمع المسلم في عهدهم، لا تكمن في "درجة" تلك الانحرافات، فلم تكن درجتها خطيرة بالقياس إلى الأحداث التي وقعت في ذلك الحين، وكانت تبدو في نظر كثير من الناس مستساغة بالقياس إلى تلك الأحداث، أو على الأقل لها ما يبررها. ولكن الخطورة فيها أنها أصبحت "سوابق" تؤخذ كأنها أصول مرعية في سياسة الحكم! يجيء كل حاكم – إلا من رحم الله– فيسير فيها على نهج سلفه، مبررا لنفسه الأمر بأنه هكذا فعل أسلافه حين آلت إليهم السلطة، فلا حرج عليه أن يفعل كما فعلوا.. بل لا حرج عليه أن يزيد!

لذلك قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ".. ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء"[2].

([1]) نقرر للأمانة التاريخية أن الانشغال بالجهاد ظل حيا في النفوس، وأن الحكم الأموي حرص على إحيائه وتغذيته.

([2]) أخرجه مسلم.

لقد كان من قدر الله أن الفتنة عاجلت المجتمع المسلم وهو بعد في بدايته، فلم يتح للمثل الإسلامية الرفيعة في عالم السياسة أن تتأصل بحيث تصبح هي "السوابق". وهي "الأصول المرعية" التي يأتي كل حاكم فيسير على نهجها ويحافظ عليها.. ومن ثم اعتبرت كأنها تصرفات خاصة، تستمد نبلها من نبل الأشخاص الذين قاموا بها، وهم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، بينما هي في حقيقتها "أصول إسلامية" منصوص عليها نصا صريحا في كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– ولئن كان للخلفاء الراشدين نبالاتهم الخاصة في تطبيقها، فذلك –كما قلنا– بأنهم أخذوا المندوبات والمستحبات كأنها فروض ملزمة، فالتزموا بها واجتهدوا في الوصول بها إلى أقصى الغاية. ولكن ذلك لا ينفي أنها أصول إسلامية، وأن الأسس التي قامت عليها فروض ملزمة للحاكم المسلم، وليست متروكة للتطوع النبيل.

لقد ألجأت الفتنة المسلمين إلى الأخذ بفقه "الضرورة". وفي الإسلام –كما في كل نظام للحكم بين الناس– فقه يستخدم للضرورة. ولكن الضرورة حالة استثنائية تزول بزوال مسبباتها، ويعود الناس إلى الأصل.

وليس المأخوذ على بني أمية أنهم استخدموا فقه الضرورة حين دعت إليه الحاجة عقيب الفتنة، إنما المأخوذ عليهم أنهم –فيما عدا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه– جعلوا الاستثناء كأنه الأصل، رغم حالة الاستقرار النسبي التي أدى إليها استخدام فقه الضرورة في مبدأ الأمر. فنسي الناس الأصل، أو اعتبروه نبلا خاصا من الخلفاء الراشدين، وليس أمرا أساسيا في سياسة الحكم في الإسلام.

وأيا كان الأمر فقد جاء العباسيون، فيما يمكن أن نسميه "الانقلاب العباسي"، فأخذوا "سوابق" بني أمية في عالم السياسة على أنها أصول مرعية، بل أضافوا إليها من عند أنفسهم إضافات!

إن خط الانحراف يبدأ دائما قريب الصلة بالخط المستقيم، فالناس لا يتقبلون الطفرة سواء في الإفساد أو الإصلاح! وإنما تزداد الزاوية انفراجا، ويزداد خط الانحراف بعدا عن الأصل كلما مر الزمن دون إصلاح.

وإنه من أجل هذا جعل الله خيرية هذه الأمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أساس من الإيمان بالله:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[1].

لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الأدلة العملية لحفظ المجتمع من الانحراف، ولإصلاح الأمر ورده إلى الصورة الصحيحة إذا وقع الانحراف بالفعل.

ومن أجل ذلك أيضا جعل الله اللعنة على الأمة الملعونة لعدم قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ، كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)[2].

وقد أسلفنا أن المجتمع على عهد الأمويين –بتأثير الفتنة أولا، ثم بتأثير عنف بني أمية في ضرب المعارضين– قد أخذ ينصرف تدريجيا عن مراقبة أعمال الحكام والأخذ على أيديهم حين يخطئون. فلا عجب أن يزداد الانحراف في العصر العباسي، وأن يزداد الناس انصرافا عن طلب الإصلاح.

الانحرافات الثلاثة التي وقعت من بني أمية بقيت، وزادت سوءا: الملك العضوض بدلا من الخلافة العادلة –البحبحة في بيت المال– العنف في ضرب المعارضين. ثم جدت انحرافات جديدة لم يكن لها وجود في عهد الأمويين، كان من أبرزها الترف الذي أخذ يَغشى قصور الخلفاء ثم الأمراء والوزراء ثم التجار والأغنياء ثم أفراد الشعب في المدن في النهاية..

كان الأمويون –رغم تحويلهم الخلافة إلى ملك– يحرصون على أن يختاروا أصلحهم ليتولى الحكم. فأما العباسيون فقد جعلوا الوراثة بالدور، حتى إذا جاء الدور على طفل ولوه!

أما العنف، فربما يكفي في بيان حقيقته ومداه أن يطلق على مؤسس الدولة لقب "السفاح" من كثرة ما سفك من الدماء!

وأما البحبحة في بيت المال فالأمثلة فيها أكثر من أن تحصى، فكم من مرة جاء أحد المتسكعين من الشعراء المداحين، الذين أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يُحثى في وجوههم التراب، جاء ليمتدح الخليفة ببضعة أبيات فقال الخليفة: أعطوه مائة ألف!!

([1]) سورة آل عمران: 110.

([2]) سورة المائدة: 78-79.

مائة ألف من بيت مال المسلمين، المحدد المصارف بنص صريح من كتاب الله! وكم من مرة غنت إحدى المغنيات[1] "صوتا" أعجب الخليفة وهو ثمل أو غير ثمل فقال: أعطوها مائة ألف أو أكثر أو أقل! ثم زادت ثم زادت بدعة جديدة هي إنشاء "بيت مال خاص" تتجمع فيه وفورات أموال الخليفة مما يستولي عليه من الموارد العامة، ثم لا ينفق منه الخليفة –على الأقل– على الشعراء الذين يمتدحونه بأشعارهم أو المغنيات اللائي يطرب لغنائهن، إنما يُنْفَق على تلك المعاصي من بيت مال المسلمين، ويظل بيت المال الخاص يتضخم عاما بعد عام!

تلك هي الانحرافات التي أسسها بنو أمية، ولم تكن في وقتهم بادية الخطر لأن حجمها كان ضئيلا، و"الظروف" تشكل ستارا تختفي وراءه المخالفات.. ولكنها حين بقيت بغير إصلاح من رقابة الأمة –التي كلفها الله بالأمر بالمروف والنهي عن المنكر، وجعل خيريتها مرتبطة بذلك الأمر –زاد حجمها واتسع، حتى أخذت مداها في دولة العباسيين.

أما الانحرافات الطارئة فقد كان في مقدمتها ذلك الترف المدمر الذي أشرنا إليه آنفا، والذي لا يصيب أمة من الأمم ثم تبقى على تماسكها وترابطها وجديتها. لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً)[2].

إنه كالحمض الأكال الذي ينخر في جسم المادة فيذهب بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها في الصدام.

وقد كانت وفرة المال في أيدي الناس في الدولة العباسية هي الباب المؤدي إلى الترف بطبيعة الحال. ولكن هذا –كما قلنا من قبل– يفسر ولا يبرر. فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله.

وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر رضي الله عنه ولكنه تصرف بشأنه بما يمنع الفساد، فمنع الصحابة رضوان الله عليهم من الخروج للتجارة حتى لا تتكون منهم طبقة تملك المال في أيديها وتملك السلطان "الأدبي" على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلا عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد

([1]) سيرد ذكر الجواري المغنيات بعد قليل.

([2]) سورة الإسراء: 16.

مشورتهم حين تترهل نفوسهم. وإلى جانب ذلك –وقبل ذلك– أخذ عمر رضي الله عنه نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس!

أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولي الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدي إلى نتائجة المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال في ذاته هكذا يصنع، ولكن لأن الجهد البشري المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل فتنفرد الآفة وحدها بالسلطان. وآفة المال الترف. وعلاجها في يد ولي الأمر، بالتصرف في المال الزائد عن الحد في يد الأغنياء بما يعود على الفقراء بالخير، ويعود على الأمة كلها بالنفع، وينشر روح الجد في المجتمع، وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك في أيدي الناس بلا ضابط – مع وجود فئة تعمل جاهدة على إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس[1]– فالنتيجة هي ما قررته السنة الربانية التي جاء بيانها في كتاب الله.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[2].

والترف مُعْد ككل آفة.. فحين لا يعالج ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد. وحين يكون مبتدؤه في قصور الخلافة فأمره أسوأ، لأن الحكام دائما قدوة.

وقد كان الأمويون –برغم وجود الترف بينهم– أقل فسادا بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالا بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى. فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسري بينهم سريعا، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد[3]. ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم من التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير. وشيئا فشيئا غلب الفساد على عاصمة الخلافة في بغداد.. وشيئا فشيئا كذلك تبعتها العواصم الإسلامية الأخرى في دمشق والقاهرة وغيرها من العواصم، بما تصفه قصص ألف ليلة وليلة، مع احتساب الزيادات والتهويلات التي يمكن أن يضيفها إلى الواقع خيال الفنان. فقد يكون ما كتب عن قصور الخلفاء العباسيين مبالغا فيه إلى حد كبير (وهو أمر ينبغي تمحيصه وخاصة بالنسبة لهارون الرشيد الذي شوهت صورته عمدا في كتب التاريخ الشيعية

(1) سيأتي الحديث عن دور الفرس في إفساد الأخلاق في المجتمع العباسي.

(2) سورة الروم: 41.

(3) سيأتي الحديث عن دور الفرس في إفساد الأخلاق في المجتمع العباسي.

من ناحية وكتب المستشرقين من ناحية أخرى وهو الذي يروي عنه أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً.. فأنى له اللهو والعبث الذي وصف به!) وقد يكون الخيال قد لعب فيه دوراً "فنيا" ثم أدخل في التاريخ على أن وقائع تاريخية وليس أقاصيص مكتوبة لتسلية الناس وإمتاعهم بالغرائب.. كل ذلك جائز. ولكن الترف —كحقيقة تاريخية– أمر لا شك فيه. وسريانه — بالعدوى– من قصور الخلفاء والأمراء والوزراء إلى قصور التجار والأغنياء أمر كذلك لا شك فيه. وانتشار مجالس الطرب والشراب في تلك القصور أيضا حقيقة تاريخية.

هذا واحد من الانحرافات الطارئة في المجتمع العباسي، وهو من أخطرها، ولكنه ليس وحده الخطير.

فقد جاءت الفتوحات الإسلامية الواسعة بسبايا حرب من الشقراوات "الفاتنات!" من صقلية وإيطاليا وغيرهما من "بلاد الروم"، وألحق منهن بقصور الخلفاء والأمراء عدد غير يسير، وهنّ يهوديات أو نصرانيات لم يسلمن، وبقي في صدورهن الكيد لهذا الدين، واتخذن من قصور الخلفاء والأمراء مجالا لهذا الكيد، أهونه شغل الخلفاء والأمراء بهن عن شئون الدولة العليا، فتتسلم هذه الشئون منهم أيد غير أمينة وغير مأمونة، وأخطره إثارة الخلافات والشقاقات في الأسرة الحاكمة، وإثارة المطامح التي تنتهي بقيام الأمراء بحرب بعضهم بعضا، واستخدام جيوش الإسلام في هذه النزاعات المنحرفة بدلا من استخدامها في الجهاد في سبيل الله..

ثم كانت هناك فتنة أخرى تتعلق بالجواري، هي فتنة "الجواري المغنيات" اللواتي أصبحن من أدوات الطرب في القصور المترفة، وصار تعليمهن الغناء وتدريبهن على الموسيقى صنعة من صناعات المجتمع العباسي الرابحة، تدر على أصحابها الألوف ومئات الألوف، وقد تدر الملايين إذا صادفت إحداهن هوى في قلب واحد من كبار الفارغين المترفين!

وفي هذا الجو الموبوء عاث الفرس فسادا بشعرائهم وأدبائهم وخلعائهم ومتحلليهم وزنادقتهم لفتنة المجتمع الجاد عن جدية الإسلام ورفعة أهدافه، وشغله بسفاسف الأمور، وشغله عن صفاء عقيدته بالعقائد المنحرفة.

لقد حقد الفرس على الإسلام، وعلى العرب الفاتحين حقدا شديدا كظموه في ظاهر الأمر، ولم يجدوا مجالا لتنفيسه في العهد الأموي. ولكن الفرصة أتيحت لهم على نطاق واسع في العصر العباسي.

لقد كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى وأشرف وأكثر علما وحضارة من العرب. وكان بعض العرب في الجزيرة خاضعين لنفوذهم العسكري والسياسي. فلما جاء الإسلام، وجاء الفتح الإسلامي، أزال ملك كسرى الذي كانوا يعتزون به، وأخضع البلاد للفتح الإسلامي – العربي– فكبر ذلك عليهم وأسروا الحقد في قلوبهم، وتمنوا زوال الإسلام –إلا من أسلم صادقا وأخلص للعقيدة الصحيحة ونزع من قلبه عبادة النار وعبادة الشيطان.. ولكن الضغط الذي مارسه الأمويون عليهم لم يدع لهم مجالا للتحرك ضد الإسلام. فلما جاء "الانقلاب العباسي" آزروه ودخلوا في ثناياه، لا حبا في العباسيين ولكن انتقاما من الأمويين، ووجدوا عن هذا الطريق وسيلة يثبتون بها أقدامهم، وينفّذون ما أضمروا في أنفسهم من الفساد في المجتمع الإسلامي.

انظر إلى مهيار الديلمي[1] –المسلم– يفخر بفارسيته أضعاف فخره بالإسلام:

أعجبــــت بي دون باقـــي حيّنـــا	أم ســـعد فمضـــت تســـأل بي
لا تخـــــالي نســــيا يخفضــــــني	أنا مـــن يرضـــيك عنـــد النســـب
قـــومي اســـتولوا علـــى الـــدهر فـــتى	ومشــــوا فـــوق رءوس الحقـــب
عممـــــوا بالشـــــمس هامـــــاتهمو	وبنـــــوا أبيــــاتهم في الشـــــهب
وأبي كســــــرى علـــــى إيوانـــــه	أيـــن في النـــاس أب مثـــل أبي!
قـــد أخـــذت المجـــد عـــن خـــير أب	وأخـــذت الـــدين عـــن خـــير نـــبي
فجمعــــت المجـــــد مــــن أطرافـــه	ســـؤدد الفـــرس وديـــن العـــرب!

فما بال الزنادقة أمثال بشار بن برد وأبي نواس ومن لف لفهما من الشعراء والأدباء، وما بال تجار الطرب وتجار اللهو والشراب؟!

* * *

ثم كانت فتنة الغزو الفكري الثقافي الإغريقي متمثلا في المنطق والفلسفة وما أدي إليه من ظهور الفرق وعلم الكلام.

إنه لون من الترف.. الترف العقلي إن صح التعبير..

([1]) شاعر فارسي عاش في العصر العباسي الثاني.

فحين يفرغ الناس من المشاغل الجادة، ويجدون في أنفسهم فضلة من طاقة، يصرفونها فيما دون الجد من الأمور.. حتى ينتهي بهم الأمر في الأخير إلى موت الطاقة ذاتها والإخلاد إلى الضياع.

جاءت العدوى من دراسة المسلمين للغة اليونانية (واللاتينية) من أجل التعرف على العلم الموجود عند البيزنطيين[1].

وفي الطريق عثروا على الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي فظنوهما أداة نافعة يمكن أن يفيدوا بها الإسلام. وسرعان ما أصبح التمنطق والتفلسف هو "مودة" العصر! ولم يعد "المثقف" يعتبر مثقفا حتى يكون قد اطلع على المنطق الإغريقي والفلسفة وتكلم بهما في المجالس! وزاد الأمر سوءا أن "الخلفاء" ابتدعوا بدعة حمقاء، هي أن يدعوا من اليهود والنصارى في مجالسهم من يقوم بإطراء دينه ومهاجمة الإسلام، ثم يدعوا علماء المسلمين ليردوا عليهم دعاواهم ويفحموهم!!

ولما كان المنطق والفلسفة هما الأداة المستخدمة في لاهوت اليهود والنصارى، فقد كان على علماء المسلمين أن يجيدوهما ليدحضوا كلامهم بذات الأدوات التي يستخدمونها هم في عرض عقيدتهم.

وقد كان..

ولكن "اللوثة" أصابت أولئك "المثقفين" فألفوا "لاهوتا إسلاميا" يعرضون فيه العقيدة الإسلامية ممثلا في علم الكلام! وكان هذا هو المزلق الخطير الذي رشح لظهور الفرق الزائغة عن الإسلام!

وينبغي لنا ونحن ندرس انحرافات تلك الفترة أن نبرز ذلك المعنى، وهو أن الإسلام لم يكن في حاجة –بعد البيان القرآني الناصع الواضح المبين –أن نلجأ إلى الفلسفة– إغريقية أو غير إغريقية– لبيان عقيدته، فنعقّدها وهي واضحة، ونغشّي عليها وهي وضاءة، ونولّد فيها مشاكل ذهنية لا وجود لها في الأصل، لنشغل أنفسنا بحلها بعد أن نوجدها! إنما كان ذلك من جراء الغزو الفكري اليوناني الذي جاء بغير قصد في أثناء البحث عن العلوم.

*   *   *

(1) سنتكلم عن الحركة العلمية بعد قليل.

وأخيرا وليس آخرا جاء انحراف الصوفية..

لقد جاء التصوف رد فعل لكثير من الانحرافات في آن واحد.

رد فعل للترف بادئ ذي بدء.. فإن المتطهرين الذين أرادوا أن ينجوا بأنفسهم من فساد المجتمع وتحلله، قد اعتزلوا ذلك المجتمع الفاسد ولجأوا إلى "الذكر" يرضون به عواطفهم الدينية، ويبتعدون به عن الدنس والأقذار.

ورد فعل كذلك لجفاف الدراسات الفقهية من ناحية، وجفاف علم الكلام بمعاظلاته الذهنية من ناحية أخرى، فإن "التخصص العلمي" قد قسم الدين إلى تخصصات يكاد ينفصل بعضها عن بعض تمام الانفصال. فالفقه –وهو بطبيعته علم عقلاني –تخصص قائم بذاته، منفصل في دراسته عن الجوانب السلوكية التي تشعر بتكامل هذا الدين وشموله، ودارسوا العقيدة على طريقة علم الكلام، أو على طريقة الذين يناقشون انحرافات علم الكلام مناقشة ذهنية فلسفية –ليردوا عليهم بمنطقهم- لا يجدون في دراستهم نداوة العقيدة وشفافيتها وإشباعها لتطلعات الوجدان الحي وحاجة الروح. فتظل جوعة الروح قائمة يبحث طلابها عن ملجأ لإشباعها، فتقدم لهم الصوفية ذلك الملجأ، فينخدعون فيه، ويظنونه هو الملاذ!

والعامة بصفة خاصة –حين فقدون إشباع وجدانهم الديني عند الفقهاء، وعند علماء العقيدة العقلانيين- ما أسهل أن ينزلقوا إلى الصوفية يجدون عندها ما يخيل إليهم أنه مهرب دافئ من برودة الدراسات ذات الصبغة العقلية الجافة، وبرود من يتصدون لتعليم العقيدة من خلال قضايا علم الكلام ومعاظلاته الذهنية..

وأيا كانت الأسباب التي أدت إلى انتشار الصوفية فهي انحراف من أخطر ما وقع في العالم الإسلامي من انحرافات، سواء من ناحية الأفكار الإلحادية الهندية والفارسية التي تسربت إليها كنظرية الحلول ووحدة الوجود، أو من ناحية سلبيتها وتواكلها وقعودها عن العمل الإيجابي في واقع الحياة.

وحين تراكمت هذه الانحرافات وبلغت مداها خلال أربعة قرون أو خمسة، جاء الصليبيون، ثم جاء التتار!

* * *

هنا –مرة أخرى- قد يظن ظان أن الإسلام قد انتهى ولم يعد له وجود.

ولك الحقيقة لم تكن كذلك..

فمن ناحية كانت داخل هذه القرون التي حدثت فيها تلك الانحرافات حركة حية موارة في كل اتجاه، نخص بالذكر منها الحركة العلمية الإسلامية، والحركة الحضارية الإسلامية، وهما حركتان فريدتان في التاريخ.

ومن ناحية أخرى لم تكن الهزائم المتكررة التي أصابت المسلمين في الشرق والغرب، وقضت على الدولة الإسلامية في الأندلس وعلى الخلافة العباسية في بغداد، نهاية الوجود الإسلامي في الأرض، بل كانت عثرات في الطريق، تبعتها انطلاقة جديدة تمثلت في الدولة العثمانية، وما قامت به من جهود جبارة في التحرك بهذا الدين في فجاج الأرض، ونشره في أوربا خاصة.

وتلك من عجائب هذا الدين التي لم تكرر في غيره.

فلو أن نظاما في الأرض أصابه ما أصاب الدولة الإسلامية من عثرات وضربات لانتهى من الوجود، كما انتهت كل "إمبراطوريات" الماضي في ظروف أقل شدة.. وكما انتهت في الحديث الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية والإمبراطورية الروسية لأسباب أقل حدة.

إنما يكمن السر في أن الإسلام ليس مجرد نظام سياسي تسنده قوة مادية. إنما هو قبل كل شيء عقيدة ينبثق منها نظام.. وذلك فارق أساسي ينبغي الالتفات إليه والتركيز عليه، في مقابل موقف الجاهلية المعاصرة من الدين، وإصرارها على إقامة الحياة بعيدا عن الدين، والسياسة بصفة خاصة، والزعم بأن هذا هو الأصوب والأفضل لبني الإنسان! وفي مقابل فتنة المخدوعين من "المسلمين" بالأنظمة العلمانية الحديثة، والظن بأنها أكثر أصالة وثباتا ونفعا من الإسلام!

كلا! إن الأنظمة التي لا تستند إلى الدين –وخاصة تلك التي تعادي الدين– هشة مهما بدا من صلابتها الظاهرية، وعرضة للانهيار السريع حين تتراكم فيها الأمراض –والترف بصفة خاصة– لأنها صناعة بشرية بحتة، بأفكارها ومعتقداتها وممارساتها وتطبيقاتها، فليس لها ما تستند إليه من القيم الثابتة التي يرجع إليها البشر حين تأخذهم الدوامات وتفقدهم صوابهم!

أما أصحاب العقيدة فليسوا كذلك.. فهناك دائما ما يشدهم –ويسندهم– حين تأخذهم الدوامات، فلا يذهبون بعيدا ما دام الحبل مشدود إلى أوساطهم، ويظلون يقاومون فلا تهلكهم الدوامة ولا تبتلعهم في طياتها. وذلك فضلا عن كون العقيدة أمرا يلتزم به كل فرد التزاما ذاتيا لا علاقة له بالدولة ولا بالسلطة، لأنه ميثاق بينه وبين الله. ومن ثم يمكن أن تفسد السلطة الحاكمة –لفترة غير قصيرة– دون أن يفسد الناس، ويظل المجتمع متماسكا بما بينه وبين الله من مواثيق العقيدة، وإن تحللت الدولة وتراخت قبضتها على الناس.

صحيح أنه على مر الزمن لا بد أن يتأثر المجتمع بفساد الحكم، لأن التفلت من التكاليف طبع بشري. ولله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عثمان رضي الله عنه. فإذا اختل السلطان لفترة طويلة فإن النفوس الضعيفة التي كان وازعها السلطان وحده تفقد وازعها فتنحرف. وحين يزيد الانحراف دون إصلاح تنفذ في الناس سنة الله..

ولكن الذي يسترعي الانتباه في تاريخ الإسلام هو أن المجتمع الإسلامي ظل متماسكا فترة طويلة رغم انحراف الحكم العباسي، وأنه حين انهارت الدولة في النهاية بعد أن تراكمت الانحرافات فيها عدة قرون، لم تكن "الأمة الإسلامية" هي التي انهارت، إنما بقي في الأمة من الرصيد ما أنشأ دولة جديدة مكان الدولة المنهارة، ظلت تحمل الإسلام ورسالته عدة قرون.. ولذلك توضع الفترة العباسية دائما في فترة المد الإسلامي، ولا توضع في فترة الانحسار، على الرغم من كل ما حدث فيها من انحرافات.

*　*　*

قلنا إن الفترة العباسية كانت فترة حركة موارة في كل اتجاه، وإن أبرز ما فيها كان الحركة العلمية والحركة الحضارية.

وقد كتب الكثير سواء في الكتب العربية أو كتب المستشرقين عن هاتين الحركتين في العصر العباسي. ولكنا نحسب أن هناك نقطة هامة في كلتا الحركتين لم تأخذ حظها من التقدير، لأن كتب المستشرقين خاصة لا تشير إليها، ومن ثم يغفلها كذلك الذين ينقلون عنهم ويتأثرون طريقتهم من المؤرخين "العرب".

إن المستشرقين يعالجون كلتا الحركتين –في معظم كتاباتهم– على أنهما حلقة من حلقات التاريخ البشري، زاهية، نعم. ثرية، نعم. متعددة الجوانب، نعم. باهرة في منجزاتها، نعم ولكنها –ككل حلقة أخرى من حلقات التاريخ البشري– نشاط بشري متوقد، لمع فترة من الزمن ثم خبا، وأخذ دوره –كغيره– في ركن من أركان متحف التاريخ!

والذي نريد أن نبرزه بصفة خاصة ليس هو مقدار الثراء في كلتا الحركتين، ولا عظم إنجازاتهما، بقدر ما هو صلة كلتا الحركتين بالإسلام.. فهذا الذي يميزهما، ويجعلهما متفردتين، سواء وقت نشاطهما المتوقد، أو بعد أن أصبحا جزءا من ذاكرة التاريخ.

فحين نقول عن الحركة العلمية الإسلامية إنها بدأت بالتتلمذ على علم الإغريق (وغيرهم ممن كان عندهم شيء من العلم) ثم سرعان ما التقطت الحاسة العلمية فصارت لها أصالتها العلمية، فبدأت تصحح ما وجدته من أخطاء في العلم الإغريقي، ثم بدأت تضيف علما جديدا لم يكن قائما ولا معروفا من قبل، وإن أبرز إنجازاتها كان هو المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي قام عليه التقدم الحديث كله في ميدان العلوم.. لا نكون قد قلنا كل شيء عن تلك الحركة الفذة، ولا نكون قد قلنا شيئا عن ميزتها الكبرى التي تفردت بها بين الحركات العلمية في التاريخ.

إنما الذي تفردت به أنها انبثقت من العقيدة، ونمت وترعرعت في ظل العقيدة، ولم يحدث قط صراع بينها وبين العقيدة، وتلك المزية هي التي لا نقدرها حق قدرها، والتي نرى ضرورة إبرازها حين نعيد كتابة التاريخ.

ومن أجل أن ندرك قيمة هذه المزية، بل قل هذه النعمة التي تفردت بها الحركة العلمية الإسلامية، فلننظر إلى الحركة العلمية المعاصرة في الغرب.

لقد قامت هذه الحركة على عداء مع الكنيسة منذ البدء، وعداء مع الدين. والمراجع الأوربية ترجع هذا العداء إلى خوف الكنيسة على نفوذها حين ينتشر العلم وتنحسر الخرافة، فقد كانت الخرافة هي التي أعطت رجال الدين ذلك السلطان الرهيب على قلوب الناس. كما ترجعها إلى أن العلم قد خالف ما جاء في التوراة من معلومات عن تاريخ الكون، وعن أن الأرض منبسطة لا كروية، وأن الأرض –لا الشمس– هي مركز الكون.. فقامت الكنيسة تهدد المخالفين لعلمها "المقدس" بالتحريق والتعذيب والقتل إن أصروا على ما يقولون، وعلى رأسهم كوبرنيكوس (كوبرنيق) وجوردانوا برونو وجاليليو، فنشأ الصراع منذئذ بين العلم والدين.

وهذا الذي تقوله المراجع الأوربية صحيح. ولكن هذه المراجع تسقط عمدا –ولأسباب مفهومة– سببا رئيسيا من أسباب ثورة الكنيسة على الحركة العلمية في بدء النهضة، وهو أن تلك الحركة كانت في الحقيقة مستمدة ومنقولة من المدارس الإسلامية في الأندلس والشمال الأفريقي والمشرق الإسلامي، ومن كتب العلم الإسلامية التي كانت قد بدأت تترجم إلى اللاتينية –لغة العلم في أوربا يومئذ– وكانت تحمل معها روح الإعجاب الشديد بالإسلام

والمسلمين، ومن ثم خشيت الكنيسة من انتشار النفوذ الإسلامي مع الحركة العلمية، فهاجت هيجتها وقامت بما قامت به من الأعمال الوحشية لوقف ذلك النفوذ[1].

وأياً تكن الأسباب فقد وقع العداء بالفعل بين العلم والدين في أوربا، وسار كل منهما في طريقه، وتمزق بينهما كيان الإنسان، فقد أصبح لزاما عليه إن أراد العلم أن يترك الدين، وإن أراد الدين أن يترك العلم، بينما الدين والعلم كلاهما من خطوط الفطرة السوية. فالرغبة في عبادة الخالق فطرية، والرغبة في المعرفة فطرية. كلتا النزعتين أوجدهما الخالق العليم الخبير في نفس الإنسان ليقوم بمهمة الخلافة في الأرض:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا)[2].

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[3].

(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[4].

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا..)[5].

وحين يكون الإنسان على فطرته السوية في أحسن تقويم كما خلقه الله، تكون هاتان النزعتان الفطريتان عاملتين معا في داخل النفس وفي واقع الحياة، فيؤمن الإنسان بعالم الغيب، ويبذل نشاطه في عالم الشهادة بلا تعارض ولا تناقض ولا انفصال:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[6].

([1]) يجب علينا نحن المسلمين عند إعادة كتابة التاريخ أن نبرز هذه الحقيقة بمقدار ما تخفيها المراجع الأوربية، لأنها جزء من تاريخنا نحن في الحقيقة.

([2]) سورة الأعراف: 172.

([3]) سورة الروم: 30.

([4]) سورة النحل: 78.

([5]) سورة البقرة: 31.

([6]) سورة الملك: 15.

(اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[1].

ولكن حماقة الكنيسة الأوربية بذرت الشقاق والنزاع بين هاتين النزعتين الفطريتين فأفسدت جانبا كبيرا من كيان الإنسان، ثم جاءت الحماقة الأخرى حين صحت في النفس الأوربية مع بدء النهضة جذور الجاهلية الإغريقية القديمة، التي كانت في أساطيرها تنشئ صراعا حادا بين الله (أو الآلهة) وبين الإنسان، وتصور العلاقة بينهما علاقة عداء مستحكم، الآلهة تريد أن تبطش بالإنسان –المتطلع إلى مشاركة الآلهة في سلطانهم!- والإنسان يصارع الآلهة لإثبات ذاته! وبمقدار ما يَعْصي تلك الآلهة يكون إثباته لذاته! كما تقرر أساطير تلك الجاهلية أن "العلم" كان نهبة انتهبها الإنسان من الإله على كره منه، لأنه –أي الإله- لا يريد للإنسان أن يشاركه في "المعرفة" بل يريد أن يختص بها وحده![2].

ومن صحوة هذه الروح في النفس الأوربية كما يقول جوليان هكسلي في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" أحس الأوربي الحديث –كما أحس سلفه الإغريقي القديم- بأن العجز والجهل وحدها هما اللذان أخضعا الإنسان في الماضي لله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله![3]

ومن هاتين الحماقتين معا نشأ العداء الحاد بين الدين والعلم في الغرب، فقامت حركة علمية جبارة، ولكنها في خصام مع العقيدة، تنفر من ذكر الله وتضع بدلا منه الطبيعة![4] وتنفر من ذكر الدين في أي حديث عن العلم، وتعتبر ذلك خلطا لا يجوز!

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)[1].

([1]) سورة الجاثية: 12-13.

([2]) راجع في الأساطير اليونانية أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة!

([3]) انظر كتاب جوليان هكسلي "الإنسان في العالم الحديث"Man in the Modern World من منشورات الألف كتاب بوزارة التعليم العالي بالقاهرة سنة 1957.

([4]) يقول دارون "الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق".

ولما كان العلم –بنظرياته وتطبيقاته– ذا جاذبية عنيفة للعقول والنفوس، وذا ضغط واقعي هائل، بما يحدثه في الحياة العملية من تيسيرات وما يقدمه من خدمات، فقد انتهى الأمر –كما كان لا بد أن ينتهي– إلى نبذ الدين جملة وعبادة العلم! ونبذ ما يحيط بالدين وينبثق منه من قيم روحية وأخلاقية، بل استعمل العلم ذاته وسيلة لنشر الفساد ونشر الإلحاد!

أي نعمة إذن تتمثل في قيام حركة علمية كاملة وشاملة، لا نقول في غير عداء مع العقيدة، بل في ظل العقيدة وبدافع منها؟!

أي راحة وطمأنينة يحسها الإنسان مع تلك الحركة وهو يشبع رغبته الفطرية في المعرفة في ذات الوقت الذي يشبع فيه رغبته الفطرية في عبادة الله؟!

أي شعور بالتوحد والتجمع والترابط النفسي والعقلي والروحي يملأ نفس الإنسان حين يتعبد وهو عالم، ويتعلم وهو عابد، فلا يحس بالحيرة والتمزق حين يدخل المسجد وعلومه في رأسه، أو يدخل المعمل التجريبي وذكر الله في قلبه؟!

ألا إنها نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا من يتأمل حال الناس في ظل الجاهلية المعاصرة التي تمزق كيان الإنسان، وصدق عمر رضي الله عنه وهو يقول بفكره الثاقب: "لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية"!

ثم إن قيام الحركة العلمية الإسلامية في ظل العقيدة وبدافع منها، ومن قاعدة أن طلب العلم "فريضة" يتقرب بها الإنسان إلى الله، قد صان هذه الحركة عن أن تستخدم في إفساد العقيدة أو إفساد الأخلاق كما تستخدم الحركة العلمية القائمة اليوم في الغرب، سواء في تقديم نظريات "علمية!" تنفي صدور الخلق عن الخالق! أو أخبار "علمية!" تزعم أن الإنسان خلق خلية حية! أو فلسفات "علمية!" تسخر من الدين والأخلاق، ومن فكرة "الثبات" في القيم على الإطلاق! كما أن جو "الفريضة" التي يُعبَد بها الله، ويتقرب بها إليه، قد منع أن يستخدم العلم الإسلامي في التدمير والشر، كما يستخدم اليوم علم الذرة الذي وهبه الله للإنسان، فإذا هو يستخدمه –أول ما يستخدمه– في نشر الخراب الشامل والدمار الرهيب، وكما تستخدم جيوب منع الحمل في نشر الفاحشة وإفساد اخلاق!

(1) سورة الزمر: 45.

نعمة لا تقدر قدرها في كل ما يكتب عن الحركة العلمية في كتب المستشرقين وكتب "المستغربين"!

ونحن في كتابتنا للتاريخ الإسلامي من جديد يجب أن ننبه بتركيز واف إلى مجموعة من الحقائق:

أولا: أن المسلمين هم الذين أنشأوا المنهج التجريبي في البحث العلمي بتوجيه من الإسلام.

فلا العرب قبل الإسلام كانوا أمة علم تعنى بالبحث العلمي واستخلاص الحقائق العلمية منه، ولا العلم الإغريقي الذي وجده المسلمون حين انبعثوا –بوحي الإسلام– يطلبون العلم كان علما تجريبيا مبنيا على الملاحظة والاستنباط وإجراء التجارب المعملية. إنما كان علما نظريا فلسفيا معنيا باستخلاص الكليات النظرية أكثر من عنايته بإجراء التجارب على الواقع الملموس.

والإسلام هو الذي بعث المسلمين لطلب العلم أولا، ثم إلى النظر العملي الواقعي لاستخلاص الحقائق.

فالتوجيهات القرآنية المتكررة إلى الكون المشهود، وما يجري في داخله من حركة الليل والنهار والأفلاك والسحاب والمطر والرعد والبرق والنبات والحيوان وخروج الحيّ من الميت وخروج الميت من الحي كان مقصودا بها توجيه الحس البشري أولا إلى عظمة الخالق وقدرته، وصدور الكون كله عن مشيئته، خضوعه لإرادته وهيمنته، بما يقرر أنه الخالق الذي لا خالق غيره، ومن ثم فهو صاحب الأمر الذي لا أمر لأحد سواه: (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)[1]. وإذن فلا إله غيره ولا معبود يستحق العبادة سواه.

ثم كان المقصود بتلك التوجيهات كذلك حث الإنسان على التعرف على هذا الكون، للاستفادة مما سخّر الله للإنسان منه في عمارة الأرض وتزيينها وتجميلها:

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً)[2].

([1]) سورة الأعراف: 54.

([2]) سورة الإسراء: 12.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)[1].

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[2].

(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ، وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)[3].

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[4].

إلى عشرات من هذه الإشارات في القرآن الكريم، تحث الإنسان على النظر في ملكوت السموات والأرض، والتعرف على هذا الكون، والتعرف على قدرة الله من خلاله، والتوجه إلى تسخير ما يعرفه الإنسان من مكنونات هذا الكون في تعمير الأرض:

(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[5].

وهذه التوجيهات وأمثالها هي التي دفعت المسلمين ابتداء إلى طلب العلم، ثم أدت بهم إلى عدم الاقتصار على العلم النظري الفلسفي الذي وجدوه عند الإغريق، بل اتجهوا بالبحث إلى الناحية العملية التطبيقية فأنشأوا المنهج التجريبي في البحث العلمي، وساروا به خطوات

(1) سورة البقرة: 189.

(2) سورة الرعد: 3-4.

(3) سورة النحل: 80-81.

(4) سورة النمل: 60-61.

(5) سورة هود: 61.

فتقدم على أيديهم الطب وعلم وظائف الأعضاء والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات ذلك التقدم الذي تشهد به مراجع التاريخ.

ثانياً: أن الحركة العلمية الأوربية الحديثة تستمد كل أصولها من الحركة العلمية الإسلامية. ولا ينفي هذا أن أوربا بذلت جهداً علمياً فائقاً توصلت به إلى آفاق لم يكن يحلم بها الإنسان من قبل، وأن الجلد والمثابرة وعبقرية التنظيم كانت كلها مؤهلات إيجابية عند أوربا مكنتها من الوصول إلى تلك الآفاق. ولكن الذي ينبغي تسجيله أنه بمثل هذا الجهد تفوق المسلمون في وقتهم، ووصلوا في آفاق من العلم كانت تعد في زمنهم فتوحا عظيمة، مع فارق لحساب المسلمين يجب التنويه إليه، أن أوربا حين بدأت نهضتها العلمية وجدت رصيدا جاهزا استمدت منه وبنت عليه، سواء في منهج البحث أو في العلوم ذاتها، بينما المسلمون حين بدأوا لم يكن لديهم مثل هذا الرصيد في منهج البحث وإنما أنشأوه إنشاء من عند أنفسهم بتوجيه دينهم، كما أنشأوا علوما جديدة لم تكن لها أصول سابقة كعلم الجبر مثلا، وعلم الخرائط الجغرافية (وهذا بالإضافة إلى علومهم الدينية الخاصة التي لا مثيل لها بطبيعة الحال عند غيرهم من الأمم كعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه والأصول.. الخ).

ثالثا: ما أشرنا إليه آنفا من أن الحركة العلمية الإسلامية نشأت في ظل العقيدة على غير خصام معها. وأن هذه المزية التي تفردت بها الحركة الإسلامية هي المنهج الصحيح في العلم، الذي استمده المسلمون من منهجهم الرباني، فسعدت به البشرية حينا من الزمان غير قصير. وأن البشرية حين فقدت ذلك المنهج الصحيح –في واقعها المعاصر– شقيت كثيرا واضطربت أحوالها، وأصابها التمزق النفسي والاضطراب العصبي، وأصبحت كما جاء في المثل القرآني: "رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ" وأن ما حققته الحركة الإسلامية من الشمول والتوازن والترابط ليس قضية تاريخية انتهت بانتهاء تلك الأجيال النشيطة من المسلمين. إنما هو منهج لكل البشرية، ولكل الزمن. وأنه كلما كانت تلك الأجيال من المسلمين رائدة في ذلك الأمر –ككل أمر– فإن الصحوة الإسلامية المعاصرة مكلفة أن تبرز هذا المعنى –من خلال الممارسة العملية– في وجه الجاهلية المعاصرة التي اختلت موازينها فضلت وأضلت، وأشقت البشرية. ومكلفة –من خلال النموذج العملي والقدوة الواقعية –برد البشرية إلى صوابها في هذا الأمر –ككل أمر– وأن هذا جزء من رسالتها تسأل عنه أمام الله يوم القيامة:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[1].

([1]) سورة البقرة: 143.

وبهذا وذاك لا ندرس الحركة العلمية الإسلامية كجزء من التاريخ انتهى ولم يعد له اليوم وجود، وإنما كمنهج دائم، مارسناه ذات يوم، ونحاول استعادته في واقعنا المعاصر، وندعو البشرية كلها أن تفيء إليه. وبذلك تخرج الحركة من "متحف التاريخ" إلى واقع الحياة، ومن كونها "ذكرى" تبهت كلما مر عليها الزمن، إلى رسالة جادة للحاضر وللمستقبل من أجل رقي البشرية.

* * *

والذي قلناه عن الحركة العلمية الإسلامية يصلح بذاته لوصف الحركة الحضارية الإسلامية.

إن كثيرا من المستشرقين تكلموا عن الحضارة الإسلامية في العهد العباسي في المشرق، وفي الأندلس وصقلية وغيرهما من البلاد الأوربية التي دخل فيها الإسلام وحكم البلاد فترة من الوقت.

ولكن عن أي شيء يتكلمون، ثم ننقل نحن عنهم ما يكتبون؟

إن أهم ما في الحضارة –أية حضارة– ليس هو عدد المدن التي بناها أصحاب تلك الحضارة، ولا الطرق التي شقوها، ولا الصناعات التي برعوا فيها.. وإن كان هذا داخلا بطبيعة الحال في مفهوم الحضارة، ويحدث التفاوت فيه بين أمة وأمة، وتختلف الدرجات.

إنما الحضارة القيم.. فبالقيم تنشأ الحضارات، وبالقيم تعيش، وحين تفقد القيم تئول إلى السقوط.

ولكن الغرب بصفة عامة حين يتكلم عن الحضارة Civilization يتكلم عن الجوانب المادية الحسية أكثر، ويترك القيم للكلام عن الثقافة culture، على خلاف بين الكتاب والمؤرخين عندهم في مدى العلاقة بين هذه وتلك، ومدى التداخل بينهما.

أما نحن فيجب أن تكون لنا معاييرنا الذاتية المستمدة من مفاهيم هذا الدين..

إن العمارة المادية للأرض مطلوبة، وهي جزء من مهمة الخلافة المنوطة بالإنسان في الأرض، وترد إليها إشارات واضحة في كتاب الله. وإذا قصر الإنسان فيها –وهو قادر– فهو مقصر في تكليف مطلوب منه.

ولكن العبرة ليست بتلك العمارة المادية التي قد يتساوى فيها الكافر والمؤمن، بل قد يتفوق فيها الكافر على المؤمن أحيانا لتركيزه جهده كله في الحياة الدنيا وزينتها:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)[1].

إنما العبرة "بالإنسان".. هل حقق غاية وجوده؟ وما غاية وجوده؟

إنه هنا تختلف "القيم"، وبالتالي تختلف "الحضارات"..

وحين نأخذ هذه النقطة في الاعتبار، تبدو الفروق التي يركز عليها الباحثون في "الحضارات" –من طرز معمارية، أو طرق لبناء المدن، أو ملابس، أو أوان، أو أثاث، أو حلي، أو زخارف– ثانوية جدا، وهامشية جدا بالنسبة لذلك السؤال الرئيسي: هل حقق الإنسان غاية وجوده؟ وما غاية وجوده؟

وليس المقصود أن نهمل في دراساتنا تلك الجوانب أو نلغيها من حسابنا، ولكنا –على وجه اليقين– لن نعطيها العناية التي يعطيها إياها دارسو الحضارات الذين يدرسون على مناهج الغرب في الوقت الحاضر..

إن غاية الوجود البشري في حس الغرب مختلفة اختلافاً أساسيا عن الغاية التي حددها الله ورسوله في هذا الدين.

فالإنسان في حس الغرب قد خلق لأمرين رئيسيين، ليثبت وجوده في "صراع البقاء"، وليستمتع بما في الأرض من متاع.

وأحيانا تغالط أوربا نفسها وتزعم أن حضارتها ذات صلة بالدين! فتتمحك بالمسيح، وتسمي حضارتها "الحضارة المسيحية Christian Civilization"وليس هناك ما هو أكذب من هذا على الواقع! فالمسيح عليه السلام قد دعا للترفع عن متاع الأرض من أجل خلاص الروح، وقال: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أراد أن يأخذ ثوبك فأعطه الرداء أيضا!" وما أبعد الواقع الأوربي عن دعوة المسيح عليه السلام. فهي لا تدير خدها الأيسر لمن ضربها على خدها الأيمن، بل هي تضرب، وتنهب، وتسلب، وتغتصب برغبة عدوانية خالصة دون أن يمسها أحد! إنها ليست وريثة دعوة المسيح، إنما هي وريثة الجاهلية الرومانية التي تسعى إلى القوة لتذل بها الآخرين وتقهرهم، وتستعبدهم لمصالحها

(1) سورة هود: 15.

الخاصة، والتي تسعى إلى تزيين الحياة الدنيا بكل زينة من أجل أن تغرق في المتاع! والذين يقولون عن الحضارة الغربية المعاصرة إنها إغريقية رومانية Greco- Roman هم أصدق بكثير، وأصرح بكثير، من الذين يزعمون لها أي صلة بالمسيح عليه السلام..

وكونها إغريقية رومانية في أساسها، هو الذي رشحها أن تتقبل التفسير الحيواني للإنسان الذي ابتدعه دارون، وأن تتبنى للإنسان فكرة صراع البقاء التي فسر بها دارون حياة الحيوان وسلوكه. ورشحها كذلك أن تفسر المتاع ذلك التفسير الحيواني الذي تمارسه في الفوضى الجنسية التي تعيشها في وسائل إعلامها وفي واقع حياتها.

ولقد قال دارون إن الإنسان حيوان متطور. ولكنه ركز تطوره في أمرين رئيسيين: كبر دماغه بعد أن استقام في وقفته على قدميه، فصار رأسه معتمدا على الجذع وليس معلقا في الفضاء، فأتيح لمخه أن يكبر، فنطق، وزاد ذكاؤه. وتطور إبهام يده بصورة مكنته من الإمساك بالأدوات واستخدامها فيما يدفعه ذكاؤه إلى عمله..

وإذا كان هذا هو الإنسان، وتلك أهدافه.. فالتفسير الغربي للتاريخ والحضارة يركز على أمرين رئيسيين: أدوات الصراع، وأدوات المتاع..

كان الحيوان يصارع بقوته الجسدية. أما الحيوان المتطور –الذي صار إنسانا– فهو يستخدم عقله كذلك، ومن ثم تغيرت أدوات الصراع إلى سياسة وحرب وعلم وتكنولوجيا..

وكان الحيوان يمارس المتاع بجسده صرفا. أما الحيوان المتطور –أي الإنسان– فهو يستخدم "الفن" إلى جانب الممارسة الجسدية البحتة ليحقق المتاع..

وهكذا يكن التركيز في دراسة "الحضارات" عند الغرب على القوة السياسية والقوة الحربية والتقدم العلمي والتقدم التكنولوجي، وعلى طرز العمارة والملابس والأواني والحليّ والزخارف.. إلخ.

أما هذا الدين فله في هذه القضايا كلها موقف آخر..

فأما غاية الوجود البشري فقد حددها الله سبحانه وتعالى تحديدا واضحا في كتابه الكريم:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[1].

ويفصل الله في كتابه المنزل تلك العبادة ويوحض أبعادها، فهي ليست شعائر تعبدية فحسب، بل شيئا يشمل كل الحياة:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ..)[2].

ويزيدها سبحانه تفصيلا، فإذا هي تشمل أمورا كثيرة:

1- الاعتقاد بأنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

2- التوجه بالشعائر التعبدية لله وحده بلا شريك.

3- تطبيق شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع.

4- التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله.

5- عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، لا بمقتضى أي منهج سواه.

وبذلك تصبح العبادة شاملة لكل نشاط الإنسان في الأرض، وداخلة في كل أمر من أمور الحياة.

كذلك ذكر الله المتاع بوصفه جزءا من غاية الوجود البشري:

(وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[3].

ولكنه جعل لذلك المتاع حدودا ترفعه عن أن يكون متاعا حيوانيا هابطا، ورفعه إلى المستوى اللائق "بالإنسان":

فجعل الجنس سكنا ومودة ورحمة:

([1]) سورة الذاريات: 56.

([2]) سورة الأنعام: 162-163.

([3]) سورة البقرة: 36.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)[1].

وجعل المال للإنفاق في الخير، لا في الترف ولا في السرف ولا المخيلة.

(قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ)[2].

وجعل القوة للجهاد من أجل إعلاء كلمة الله لا للبطش والقهر والإذلال:

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)[3].

وهكذا وهكذا في كل اتجاه وفي كل مجال..

ومن ثم صار التركيز في التفسير الإسلامي للتاريخ والحضارة على هذا الشأن العظيم بالنسبة للإنسان: هل حقق غاية وجوده؟ وما الوسائل التي حقق بها غاية وجوده؟

وتصبح السياسة والحرب والعلم والتكنولوجيا والفنون مجرد أدوات لتحقيق ذلك الوجود0لا غايات قائمة بذاتها- منضبطة بالضوابط الربانية، ومقيسا صلاحها أو فسادها بتلك الضوابط، ولم تعد هي في ذاتها أهدافا ولا معايير.

فحين نفاضل بين حضارة وحضارة لا نسأل بادئ ذي بدء: كما بنى هؤلاء من المدن وكم بنى هؤلاء!! وكم شقّوا من الطرق؟ وكم صنعوا من الأسلحة؟ وفي كم معركة انتصروا؟ وكيف كان طراز معمارهم؟ وكيف كانت حليهم وزخارفهم! وكيف كانت حفلاتهم وملاهيهم!

إنما هذه كلها أسئلة نسألها –إن شئنا- بعد أن ننتهي من السؤال الأول: هل عبدوا الله حق عبادته أم زاغت قلوبهم فعبدوا غير الله؟ ويتفرع من هذا السؤال أسئلة: هل حكّموا شريعة الله أم غيرها من الشرائع؟ هل كان منهج تفكيرهم وسلوكهم منضبطا بالضوابط الربانية

(1) سورة الروم: 21.

(2) سورة البقرة: 215.

(3) سورة النساء: 74.

أم كان منلفتا من هذه الضوابط مستندا لغير ما أنزل الله؟ هل تخلقوا بأخلاق الله أم بأخلاق الشيطان؟

ثم يجيء السؤال الخاص بالأدوات، ولكنه ليس شقا واحدا كما ينظر إليه مؤرخو الغرب، إنما له شقان في آن واحد، أحدها يسأل عن الأدوات في ذاتها، في ماهياتها، في درجة تقدمها ودقتها وبراعتها.. إلخ، والآخ يسأل عن مجالات استخدامها: هل استخدمت لإعلاء كلمة الله وخدمة دينه؟ أم استخدمت في مصية الله والكفر بأنعمه؟

إذا أدركنا ذلك فقد صار لدينا مفهوم واضح عن "الحضارة" في المصطلح الإسلامي، وفي حدود هذا المصطلح نتحدث عن الحركة الحضارية الإسلامية في العصر العباسي.

إن أبرز ما فيها أنها "إسلامية".. انبثقت من العقيدة، وعاشت في ظلها، وظلت تعبيرا صادقا عنها إلى أن انحرفت عنها فأصابها ما أصابها من البوار.

لقد أنجزت إنجازات رائعة في الجانب المادي والتنظيمي، سواء في إنشاء المدن، أو شق الطرق، أو جمال العمارة، أو تقدم الصناعات، أو توزيع الاختصاصات والتنسيق بين شتى المرافق.. ولكن هذا –كما قلنا- قدر مشترك بين كثير من "الحضارات" –أو قل بين كل "الحضارات"[1]- وإن تفاوتت الأقدار، وتفاوتت البراعات..

ولكنا قبل أن نتجه إلى الحديث عن تلك الروائع –وهو ما نفعله الآن متأثرين بمنهج الغرب- يجب أن نتجه إلى الحديث عما تفردت به الحضارة الإسلامية بين الحضارات.

ولكي ندرك ذلك –كما فعلنا بالنسبة للحركة العلمية الإسلامية- فلننظر إلى الحضارة الغربية المعاصرة، أو بالأحرى إلى "الجاهلية المعاصرة"[2]..

إن هذه الجاهلية قد أنشأت من العمارة المادية للأرض –في جميع الاتجاهات- ما لا مثيل له في التاريخ. وقد مكنها التقدم العلمي والتكنولوجي من القيام بإنجازات رائعة لم يكن يحلم بها الإنسان.

([1]) نتكلم عن "الحضارة" هنا بالمفهوم اللغوي البحت أي فعل أهل الحضر مقارنا بفعل أهل البادية، لا بالمعنى الاصطلاحي بما يحمل من القيم.

([2]) نتكلم عن "الجاهلية" بالمصطلح القرآني. انظر إن شئت "تمهيد في معنى الجاهلية" ص 13-29 من كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر".

ولكن أين "الإنسان" في هذا الجاهلية؟

لقد حقق "الإنسان" ذاته.. واستمتع..

فبأي معيار حقق ذاته.. وعلى أي مستوى كان متاعه؟!

فأما بمعيار الأسطوة الإغريقية فقد حقق ذاته! بمعصية الله، وتحدي أوامره، والابتعاد المقصود عن توجيهاته، والانسلاخ قدر الوسع عن الدين وقيمه وأخلاقياته.

وأما بمعيار الحيوان الدارويني المتطور فقد استمتع! بالإغراق في ملذات الحس حتى تستوعب الجهد والوقت والحياة..

وأما بمقياس "الإنسان" الذي كرمه الله.. فلا!

يقول تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[1].

ومن التكريم أنه نفخ فيه من روحه، فمنحته النفخة العلوية شفافية روحانية أضاءت عتامة الطين الذي سُوِّي منه:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[2].

وصار من لحظة خلقه كائنا ماديا روحانيا في ذات الوقت، لا تنفصل فيه نفخة الروح عن قبضة الطين. يعرف ربه على وعي، ويؤمن بعالم الغيب على بصيرة، ويمشي بجسده على الأرض وروحه معلقة بالسماء.

وهذا هو الإنسان" في أحسن تقويم..

([1]) سورة الإسراء: 70.

([2]) سورة ص: 71-72.

فأين من ذلك إنسان الأسطورة الإغريقية المتمرد على الله، وأين منه الحيوان الداروني المتطور؟!

انظر إلى النموذج السوي في الحضارة الإسلامية: إنسان عامل بكل قواه في عالم الشهادة، ينشئ المدن، ويشق الطرق، ويجوب آفاق الأرض ليستكشف مجاهيلها، ويفلح الأرض، ويصنع الخامات، وينظم مرافق الحياة، ويتعلم كل ما يتاح له في وقته أن يتعلمه، ويجتهد لفتح أبواب جديدة من العلم.. وهو في ذلك كله مؤمن بربه، مؤمن باليوم الآخر، ملتزم في حركته الوسعة بما أنزل الله، طامع في رضاه..

أي نعمة توحد كيان الإنسان وتجمّعه، وتقيه من التمزق والحيرة والضياع؟!

إن هذا "الخليفة" الذي جعله الله في الأرض ليعمرها، مفطور على الحركة والنشاط بحكم النوازع التي أودعها الله في كيانه:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..)[1].

ومفطور كذلك على التوجه إلى الخالق وعبادته:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا)[2].

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[3].

وهو –بنزعتيه معاً –متوازن مترابط متناسق، لا يجنح مع قبضة الطين، ولا يجنح مع نفخة الروح. يتحرك بقبضة الطين ولكن بلا غلظ ولا عتامة، مضيئاً بإشراقة الروح..

وتلك هي الحركة السوية التي أنشأت الحضارة الإسلامية الفذة، وذلك تفردها بين الحضارات.

([1]) سورة آل عمران: 14.

([2]) سورة الأعراف: 172.

([3]) سورة الروم: 30.

وعلى ذلك الجانب ينبغي أن نركز في حديثنا عن هذه الحضارة، ولا يستهوينا منهج الغرب في التركيز على النمائم والزخارف والمسكوكات وطرز العمار وطرز الملابس وأدوات الزينة..

لا أقول نهملها.. ولكن لا نركز عليها.. لأنها ليست أثمن ما في "الحضارة".

إن عقد الصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، والحياة للدنيا والحياة للآخرة، وعقد الصلة بين الجسد والروح. بين الحسيات والمعنويات. بين النشاط العملي والقيم الأخلاقية.. لهو أعظم ما يصل إليه الإنسان في الأرض. وعندئذ، وعندئذ فقط يكون "متحضر" بالمعنى الحقيقي للحضارة.

لذلك فإن هذا المعنى هو الذي يستحق التركيز عليه. وتأتي بقية الجوانب لتكمل الصورة. أو لتضع التفصيلات على الأطر القائمة لتنبض بالحياة.

إن أول ما يستوقفنا في "المدينة الإسلامية" –قبل مبانيها وطرزها المعمارية وشوارعها وضخامة حجمها وتنظيم مرافقها– أن مركزها الذي تتفرع عنه وتمتد هو المسجد الجامع.

انظر إلى المدينة "المعاصرة" لترى الفرق.. إن مركز المدينة الحديثة هو السوق.. أو هو الملاهي! وذلك يدلك على اتجاه اهتمامات الناس! أو على الوجهة التي يراد للناس أن يوجهوا اهتمامهم إليها!

بينما كان أهل المدينة الإسلامية يبدأون يومهم بالتوجه إلى الله، ثم ينتشرون في الأرض يقضون مصالحهم وهم على ذكر من ربهم الذي بدأوا يومهم بذكره، والذي يعودون إلى ذكره خمس مرات في اليوم والليلة، ولا ينسونه فيما بين ذلك.

وانظر إلى البيت الإسلامي.. إنا أول ما يستوقفنا فيه– قبل طرازه المعماري، ونوع الحجر الذي بني فيه، ونوع الملاط الذي استخدم لربط أحجاره بعضها ببعض، ونوع الزخارف التي استخدمت لتجميله، ونوع الأثاث الذي وضع فيه –أنه بني بطريقة تسمح لأهل البيت من النساء أن يتحركن بحرية ويقضين مصالحهن المنزلية دون أن تقع عليهن عين الأجنبي الذي لا يجوز له شرعا أن يطلع على "الحرم المصون" في داخل البيت. وهو معنى ديني أخلاقي يفتقده "البيت الحديث" الذي تبرز فيه حجرة النوم أقصى ما يتاح لها من البروز، وتتكشف فيه ربة البيت أقصى ما يتاح لها من التكشف!

ثم انظر إلى "التنظيمات" الحضارية الإسلامية ودلالتها..

إن "ديوان القضاء" إنجاز إسلامي أصيل، وأهم ما فيه حصانة القاضي وعدم تعرضه للعزل بسبب ما يصدر عنه من أحكام قد لا تكون على هوى صاحب السلطان!

و"ديوان الحسبة" إنجاز إسلامي أصيل، لتنفيذ الأمر الرباني- الذي جعل الله فيه خيرية هذه الأمة –وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاطمئنان إلى التزام الناس بالحلال والحرام:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)[1].

و"ديوان الأوقاف" دليل على ما كان في نفوس الناس من حب للخير، والإنفاق في سبيل الله.

ومجانية التعليم كانت سبقا حضاريا سبقت إليه الأمة الإسلامية كثيرا من أمم الأرض، وكذلك مجانية العلاج في "البيمارستانات" وكلها مظهر حضارية ذات دلالة واضحة، ونابعة من روح الإسلام.

ونظافة المجتمع الإسلامي من الجريمة –لا بمعنى عدم وقوعها، فهذا لم يتوفر في أي مجتمع بشري في التاريخ- ولكن بمعنى ندرة حدوثها بحيث يحس الناس بالأمن والطمأنينة على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم..[2].

ونظافة المجتمع من الخمر..[3] .

ونظافة المجتمع من الفاحشة..[4] .

وروح التواد والتراحم التي تجعل أهل الحيّ الواحد من المدينة كأنهم أسرة واحدة في أفراحهم وأحزانهم وهمومهم..

([1]) سورة آل عمران: 110.

([2]) هذا الأمر بالذات من أشد ما تفتقده الجاهلية المعاصرة.

([3])النظافة هنا ليس معناها الامتناع الكامل –كما أسلفنا في الإشارة إلى النظافة من الجريمة، فهذا مستحيل في عالم البشر- ولكن معناها أنها ليست أمرا شائعا ولا كثير الحدوث.

([4]) النظافة هنا ليس معناها الامتناع الكامل –كما أسلفنا في الإشارة إلى النظافة من الجريمة، فهذا مستحيل في عالم البشر- ولكن معناها أنها ليست أمرا شائعا ولا كثير الحدوث.

ذلك هو لب الحضارة الإسلامية، الذي تفردت به بين "الحضارات".. والذي ينبغي للدارس أن يركز عليه، لا على أنه فقط جزء من تاريخ هذه الأمة، بل بوصفه رسالة حضارية، مارستها الأمة ذات يوم، ومن مهامها أن تعود إلى ممارستها مرة أخرى، وأن تدعو البشرية كلها –من خلال القدوة العملية والتطبيق العملي– إلى ممارستها من أجل الارتفاع "بالإنسان".

* * *

ما يشك أحد في أن هذه الحضارة قد اهتزت مثاليتها من جراء الاستبداد السياسي الذي مارسه الحكام العباسيون فيما عدا من كان منهم –بطبعه– عاد لا يحب الظلم ولا يمارسه. ولكنا نعود إلى الحقيقة التي ذكرناها من قبل، وهي أن فساد الحكام في التاريخ الإسلامي لم يؤد دائما إلى ذات النتائج التي يؤدي إليها في النظم البشرية التي لا تستمد حياتها من عقيدة تربطها بالله، ولا يؤدي الناس فيها التزاماتهم بدافع التقرب إلى الله لا بدافع الخوف من السلطان.

لقد انطلقت الأمة الإسلامية تمارس نشاطها الحضاري –بالمعنى الإسلامي الشامل، الذي يمثل الروح والمادة معاً، والدنيا والآخرة معا، والنشاط العملي والأخلاق معا –بدافع ذاتي من نفسها، لا بدعوة من حكامها، ولا بتأثير أجنبي عنها.. إنما تطبيقا لمفاهيم هذا الدين، الذي هو في حقيقته منهج حياة كامل، يشمل كل شئون الحياة.

وإذا كان النشاط الحضاري للأمة الإسلامية قد تأخ عن فترة التأسيس الأولى، فذلك أمر طبيعي، فقد انقضت الفترة الأولى في ترسيخ القواعد والأسس التي يقوم عليها هذا الدين في داخل النفوس وفي واقع الحياة. ثم بدأت النفوس تنطلق للبناء بعد التأسيس. ولكن الذي نود تقريره أن هذا النشاط الحضاري كان كامنا في الكيان الحي الذي أنشأه الإسلام، كما يكمن البرعم في ساق الشجرة، ثم ينبت ويمتد حين تواتيه الظروف. وأن الجانب المتعلق –بالقيم– من هذه الحضارة قد ولد من أول لحظة مع عقيدة أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. وانظر إلى الآيات الأولى من أول سورة أنزلت من القرآن الكريم. إنها تحمل تنديدا ببعض أخلاق الجاهلية، بما يوحي بإبطالها واستبدال أخلاقيات جديدة بها: أخلاقيات لا إله إلا الله:

(..كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى..)[1].

فالطغيان الناشئ من وهم الاستغناء عن الله هو من أخلاقيات "الحضارات" الجاهلية. يتمثل في عالمنا المعاصر في طغيان الرأسمالية التي تأكل آدمية الفقراء، وكان يتمثل في العالم الشيوعي الذي انهار في طغيان الدولة الذي تستذل به أفراد الشعب، كما يتمثل في طغيان "الدول العظمى!" التي تصنع دستورا لها في ما يسمى "مجلس الأمن!" يسوّغ لها حين يركبها الحق من كل جانب، وتلزمها الحجة من كل وجه، أن ترفع أصبعها فتوقف مجرى العدل في لحظة.. ويسكت الجميع!

ولقد كان التنديد بالطغيان، والتذكير بالله واليوم الآخر هو اللبنة الأولى في الحضارة البديلة.. الحضارة الإسلامية، التي تعبّد الناس لربهم الحق وحده، وتضبط شهواتهم بعقيدة اليوم الآخر والحساب والجزاء.. فيرتفع "الإنسان".

ومن وحي هذا الدين، من وحي أوامره ونواهيه، وتوجيهاته وتحذيراته، ولدت تلك الحضارة الشامخة ميلاداً تلقائيا غير متأثرة بأحد في مولدها التلقائي، وإن استعانت بأدوات مجلوبة من الحضارة الفارسية أو الحضارة البيزنطية رأي المسلمون أنهم في حاجة إليها لعدم وجودها لديهم في تاريخهم السابق قبل الإسلام.. وفرق بين المولد التلقائي وبين استجلاب الأدوات من الغير، يبدو واضحا حين نرى أن "النهضة الأوربية" لم تنشأ تلقائيا، إنما نشأت من احتكاك أوبا بالمسلمين سلما في الأندلس، وحربا في الحروب الصليبية.. فخرجت أوربا عندئذ من قرونها الوسطى المظلمة، ونهضت حين استمدت من المسلمين "إرادة الحياة" فأخذت المولد والأدوات كلتيهما من المسلمين[2].

ولكن تلك الحضارة الإسلامية الشامخة أخذت تتآكل بعد بضعة قرون من الشموخ، حين تراكمت الانحرافات لا في الدولة الحاكمة وحدها، ولكن في المجتمع كذلك.. فمضت سنة الله:

([1]) سورة العلق: 6-8.

([2]) تلك قضية مهمة تستحق العناية بشرحها والتركيز عليها. فكثيراً ما يوحي الغرب إلينا في دراساته أن المسلمين تحضروا من أثر الاحتكاك بما كان عند البلاد المفتوحة من الحضارات. وتنشأ هذه المغالطة من الخلط بين الإرادة الدافعة إلى التحضر، وبين الأدوات المستخدمة في عملية التحضر. والأولى هي التي تصنع الحضارة وليست الثانية!

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[1].

وقد كان الترف الذي أصاب الدولة والمجتمع من أشد العوامل التي أدت إلى الانهيار، بالإضافة إلى البدع والمعاصي، والصوفية والتواكل، والانصراف عن جديات الأمور.

ومن عجب أن الباحثين في "الحضارة الإسلامية" من المستشرقين، ومن تبعهم من تلاميذهم من المؤرخين العرب، يقفون طويلا للإشادة بفترات الانحراف في تلك الحضارة.. فترات الترف والانصراف عن جديات الأمور! كأنما "الحضارة" في حسهم هي ذلك الترف المتلف، وهي ذلك الهبوط في القيم الإنسانية الرفيعة!

وذلك انحراف مفهوم في الغرب، وريث الجاهلية الإغريقية الرومانية بما فيها من عبادة الجسد، وتزيين الحياة الدنيا للاستمتاع الحسي بها إلى درجة الاستغراق[2]. أما نحن المسلمين فما بالنا نتابعهم في انحرافهم ذلك، وعندنا مفهومنا الخاص للحضارة، المستمد من مفاهيم هذا الدين، وأوامره ونواهيه؟!

إنه ينبغي لنا أن نعدّل مفاهيمنا في دراستنا للحضارة الإسلامية بما يتناسق مع كوننا مسلمين!

* * *

جاء الصليبيون والتتار عقابا ربانيا للأمة على تفريطها في أمر دينها، وانشغالها بغير ما أمرها الله أن تشتغل به من اليقظة الدائمة للأعداء، وإعداد العدة لإعلاء كلمة الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله..

فأما الصليبيون فيجب أن يتذكر الدارس أنهم بدءوا عدوانهم مبكرين جدا، في حياة الرسول –صلى الله عليه وسلم– فما إن أحست الدولة الرومانية بمولد القوة الجديدة في الجزيرة العربية حتى تحفزت للقضاء عليها، ورفضت الدعوة السلمية التي بعث بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى هرقل ليدخل في دين الله، وتحركت بدافع صليبي لمحاولة القضاء على الإسلام، فنشأ الصراع الحربي الذي انتهى بدخول المسلمين الشام ثم آسيا الصغرى،

(1) سورة الروم: 41.

(2) راجع إن شئت فصل "الجاهلية المعاصرة" من كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر".

بالإضافة إلى مصر والنوبة وشمال أفريقيا، وإجلاء الرومان عنها.. فزادت الضغينة وتراكمت المرارة في قلوب الصليبيين، فظلوا يتربصون لهذا الدين، يتمنون فرصة مواتية يكرون عليه فيها، ويجلونه عن الأماكن التي فتحها، وفتح قلوب أهلها للحق.. ولكنهم ما كانوا يجرؤون والدولة في قوتها وسطوتها أيام الأمويين وأيام قوة الدولة العباسية.

فلما فشا الترف والترهل، وبدأت قبضة الناس تتراخى عن العروة الوثقى التي أمرهم ربهم ألا يفرطوا فيها، ولا يخلوا قبضتهم منها، وصارت النزاعات والشقاقات هي الأصل في دوائر السلطان، وطمع الولاة في الاستقلال بالحكم، ثم تنازعوا على توسيع الرقعة، واستخدموا جيوش المسلمين في ذلك بدلا من استخدامها في الجهاد في سبيل الله.. لما حدث ذلك حقت عليهم سنة الله:

(وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)[1].

وقام المتربصون، الذين ظل الحقد الأسود يأكل قلوبهم أكثر من أربعة قرون.. قاموا بقيادة الكنيسة وبزعامة البابا ينادون بالتجمع لقتال المسلمين.

ولقد كانت الحروب الصليبية صليبية مائة بالمائة!

ولا بد أن يدرك الدارسون ذلك في وجه الدعاوي الكاذبة التي تريد أن تخفي حقيقة الحروب الصليبية وتزعم أنها كانت حروبا اقتصادية تغلفت بغلاف الدين!

ومن مصلحة الصليبيين المعاصرين أن يروجوا تلك الأكذوبة ليخفوا وجه الحملة الصليبية الحديثة، التي بدأت منذ استيلائهم على الأندلس، وما تزال عاملة حتى هذه اللحظة، في تحالف كامل مع كل أعداء الإسلام، من صهيونيين أو وثنيين أو فرق ضالة تدعي الإسلام!

أما نحن فمن السذاجة والبلاهة أن نصدق تلك الدعوى الزائفة، فضلا عن أن نروّجها لهم في كتاباتنا وأحاديثنا ومحاضرتنا ودروسنا، فنشرب السم الذي وضعوه لنا، ثم نسقيه للآخرين.

وحين يقول أصحاب هذه الدعاوى: ألم يكن الاستيلاء على خيرات الشرق وكنوزه هدفاً لهم؟ أو لم يستولوا على بلاد غير إسلامية من أجل الاستغلال الاقتصادي؟ نقول: بلى! ولكن ذلك لم يكن حافزهم الأول ولا الوحيد من الحرب ضد الإسلام بالذات، ولم

([1]) سورة الأنفال: 46.

يكن كذلك حافزهم الأول ولا الوحيد من رحلاتهم "الاستكشافية!" التي قاموا بها قبل الغزو المسلح لبلاد المسلمين. ففاسكو داجاما الذي كشف –لأوربا– طريق رأس الرجاء الصالح[1]، ثم أكمل رحلته إلى جزر الهند الشرقية[2] بقيادة البحار العربي المسلم "ابن ماجد"[3]، قال عند وصوله إلى جزر الهند الشرقية تلك القولة ذات الدلالة الصليبية الواضحة: الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت. ولم يقل الآن عثرنا على الثروة التي نحلم بها في بلاد الشرق! وماجلان الذي قام برحلته "الاستكشافية!" إلى الفلبين –التي كانت أرضا إسلامية– تقدم إلى البابا أربع مرات بطلب أن يسمح له بقيادة حملة عسكرية إلى الفلبين "لضمها إلى الصليب" وظل البابا يرفض طلبه ثلاث مرات لعدم ثقته بقدرته على ذلك، وفي الرابعة أذن له بعد أن أكد له أنه جدير بأن يفعل! ولقد قتله المسلمون حين تجرأ فرفع الصليب على إحدى الجزر الإسلامية.. وندرس نحن لأبنائنا أن "المتبربرين" في تلك الجزر قتلوه لأنهم لم يقدروا رحلته "الاستكشافية"!!

ثم إن "الاستعمار" قد احتل مناطق شاسعة من الأرض في أفريقيا وآسيا مسلمة وغير مسلمة، ومارس استغلاله الاقتصادي فيها جميعا، ولكنه لم يمارس حرب العقيدة إلا في البلاد التي فيها مسلمون، قل أو كثر أولئك المسلمون!

نعم. لقد كانت صليبية مائة في المائة. ولا يتعارض ذلك ولا يتناقض مع طمعهم في كنوز الشرق وخيراته، فذلك حافز إضافي –وليس هو المحرك الأصيل– كما أنه يتحقق تلقائيا بتحقق الهدف الصليبي الأساسي، وهو الاستيلاء على بلاد المسلمين ومحاولة القضاء على الإسلام فيها.

وينبغي أن يكون ذلك واضحا تماما في حس الدارسين، ليستطيعوا أن يفهموا سير المخطط الصليبي الصهيوني في التاريخ الحديث بصفة عامة، وبصفة خاصة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

* * *

---

(1) كان المسلمون يعرفون هذا الطريق قبل ذلك بقرون، إذ كانت تجارتهم تمر به في طريقها من الصين شرقا إلى بريطانيا غربا، وكانت لدى المسلمين خرائط ملاحية لإرشاد السفن في تلك الأصقاع الشاسعة.

(2) إندونيسيا الآن.

(3) لا نعلم كيف استدرج ابن ماجد لخدمة ذلك الصليبي الماكر.

جاءت الحروب الصليبية والمسلمون في غفلة تامة بسبب الحال التي كانوا عليها من التفكك والنزاع والترهل والمشغلة بمتاع الحياة الدنيا، أو الزهد السلبي الذي لا يغيّر الواقع المنحرف بل يمكّن له في الحقيقة. وبسبب القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أمرهم الله، وكان أمراً طبيعياً أن تحل الهزيمة بالمسلمين.

ولكن الدرس الذي يجب أن نستوعبه بشأن هذه الفترة أن الإسلام لم يكن قد انتهى برغم الانحرافات كلها، إنما كان المسلمون في غفوة –ثقيلة– ولكن الرصيد الحي كان ما يزال باقيا في النفوس، قادرا على العمل والحياة من جديد. فما هي إلا أن زالت الغاشية على الخطر محدق حتى هبّ المسلمون، وعادوا إلى جنديتهم التي رباهم عليها الإسلام في القرون الماضية، وبدأوا يقاتلون قتالهم المشهود.. ثم كانت قمة النصر على يد القائد الملهم الذي لمس الحقيقة وأعلنها للناس كاملة: لقد هزم المسلمون لأنهم بعدوا عن طريق الله. وأن طريق النصر هو العودة إلى الطريق الذي انحرفوا عنه، والاستمساك بأوامر الله. وبذلك كان صلاح الدين زعيما حقيقيا للأمة الإسلامية قبل أن يكون قائداً حربياً، وداعية إسلاميا قبل أن يكون واضع خطط للحرب. وبهذا انتصر، وقرر بنصره مصير ما بقي من الحروب الصليبية بعده، التي كانت مجرد استكمال لما كان قد تقرر بالفعل من النصر الحاسم للمسلمين..

* * *

ذلك درس الحروب الصليبية. أما درس التتار فهو يسير على ذات الخط، وينتهي إلى ذات النتيجة..

خرج التتار في رحلتهم المدمرة من غرب الصين في نَفَس واحد طويل يخرّبون كل ما يجدونه في طريقهم من الحضارات والدول والجيوش، لا يكاد يقف في طريقهم شيء.. وفي الطريق قضوا على ما كان باقيا من الخلافة العباسية في بغداد، وما كان قد بقي إلا هيكل خَرِبٌ لا يصلح للحياة أو البقاء، تناوشه المؤامرات والدسائس والنزاعات والأهواء والمطامع، وتعقد الصفقات مع الأعداء على تخريبه! وفي بغداد أقاموا مذبحتهم الشهيرة التي ذبح فيها مئات الألوف من المسلمين، وجرت مياه النهر فيها أربعين يوما حمراء من كثرة الدم. ودمرت مكتبة بغداد الشهيرة بكل ما حوت من العلم، لتكون جسرا تعبر عليه خيول الجهّال الذين لا يقدّرون علما ولا ثقافة ولا عقيدة ولا حضارة.. هم وخيلهم التي يركبونها سواء! وإن كان مما ينبغي ذكره من الحقائق التاريخية أن يهود بغداد وحدهم هم الذين بقوا آمنين في تلك المذبحة الرهيبة، لأنهم عملوا أدلاّء لجحافل التتار الكافرة، يدلونهم على من اختفى من علماء المسلمين أو تجارهم ليذهبوا إليهم في مخابئهم فيذبحوهم.. وكان هذا هو الجزاء الذي تلقاه المسلمون على التسامح المطلق الذي عاملوا به أولئك اليهود، والتمكين الذي مكنوه لهم في

دولتهم.. وهكذا كانت دائما طريقة رد اليهود على جميل المسلمين معهم.. في الأندلس، والشمال الأفريقي.. وأخيرا في فلسطين!

كان التتار فرسانا ورماة ماهرين بدرجة غير عادية. فالطفل منهم يدرب على القفز على أظهر الخيل وهو بعد في سن اللهو. ويدرب كذلك على الرمي.. ولم يستطع جيش واحد، ولا قوة واحدة في هذا المشوار الطويل أن تقفهم أو تضعف من قوتهم حتى وصلوا إلى الشام واجتاحوها. ولكي يدرك الدارس الرعب الذي أصاب العالم كله من زحف التتار المدمر، فليعلم أن في أمثال الفلنديين في تلك الفترة قول الأمهات: لا تتركي طفلك في الشارع بعد الغروب لئلا يخطفه التتار. ولينظر في الخريطة ليرى أين فنلندا من آخر مكان وصل إليه التتار!

وكان المسلمون في ذات الغاشية التي دهمهم بها الصليبيون، فلم يفيقوا إلا على الضربة القاضية التي قضت على الخلافة العباسية بغير رجعة!

ولكن الدرس هو الدرس!

حين جاء القائد الذي أيقظ وجدان الناس بصيحته الشهيرة: "وا إسلاماه!".. عندئذ انتصر الإسلام!

لقد قام قطز بمثل الدور الذي قام به صلاح الدين. عرف الحقيقة وأعلنها للناس. لقد انهزم المسلمون أمام التتار لتهاونهم في أمر دينهم. فليستمسكوا بهذا الدين. والله منفذ وعده الذي وعد:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[1].

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[2].

وكانت صيحة واحدة صادقة، وكانت وقعة واحدة صادقة، في يوم واحد من عمر الزمن الهائل انقلبت فيه الأوضاع وآذن نصر الله. وعزّ المسلمون بعد أن كان التتري يلقي المسلم في

([1]) سورة النور: 55.

([2]) سورة الروم: 6.

بغداد وليس معه سيفه، فيقول للمسلم: ابق مكانك حتى أحضر السيف لأقتلك! فيبقى المسلم جامداً في مكانه حتى يأتي التتري بسيفه ويقتله!

عز المسلمون.. وحدث ما هو أعظم من ذلك..

فهؤلاء التتار الذين لم يهزموا من قبل في رحلتهم المدمرة من غرب الصين إلى عين جالوت، ولم يقف أحد أمام موكبهم الرهيب، قد أذهلتهم صدمة الهزيمة، وراحوا في ذهولهم يتساءلون عن سر هزيمتهم، وعن سر انتصار هؤلاء عليهم.. فعرفوا أنه الإسلام! ومنذئذ بدأوا يدخلون في الدين الجديد، حتى صاروا -بعد أن تمكن الدين من قلوبهم- حماته المجاهدين، بعد أن كانوا أعداءه المخربين!

* * *

والآن ينبغي لنا أن نراجع الحصيلة النهائية للفترة العباسية كما صنعنا مع الفترة الأموية.

لقد رأينا أن خط الانحراف الذي بدأ مع الأمويين قد زاد انحرافا، وأضيفت إليه انحرافات جديدة. وأن الحكومة والمجتمع كليهما زادا بعدا عن الإسلام بدرجات متفاوتة. وأن هذا كله قد أدى إلى مصيره الحتمي بالنسبة للحكومة والمجتمع حسب سنة الله، فزالت الحكومة العباسية زوالا كاملا من الوجود، وأصاب المجتمع ما أصابه من الجراح.

ولكن الإسلام ذاته لم يكن قد زال من الوجود..

إنما كانت الدولة العباسية في بغداد (والدولة الإسلامية في الأندلس) فروعا في الشجرة، جفت فماتت وسقطت. ولكن الشجرة ذاتها كانت ما تزال حية الجذور، قادرة على إنماء فروع جديدة بدلا من التالفة.. وهكذا ولدت الدولة العثمانية الفتية التي ملأت الساحة لعدة قرون، وشملت رقعة واسعة من الأرض، وخاضت وقائع كثيرة مع الأعداء.

والفترة العثمانية في حاجة إلى عناية خاصة في دراستها، لكثرة ما شُوه -عمدا- من حقيقتها، وكثرة ما ألصق بها من اتهامات.

إنها فترة عجيبة حقا، حوت كثيرا من المتناقضات.

فقد كانت فترة مدّ وانحسار في آن واحد، بصورة لا أعلم إن كان لها مثيل في التاريخ.

مدّ عسكري هائل، مكتسح متفوق، وانحسار فكري وحضاري في ذات الوقت.

قوة عسكرية وسياسية مرهوبة الجانب في العالم أجمع، وفقر في العلم والفقه.

حماسة دينية ملتهبة، وإخلاص متفان في خدمة الإسلام. بغير وعي كاف بحقائقه ومراميه.

ثم كان في النهاية ما كان من انحسار سياسي وعسكري وفكري وعلمي، ما زال العالم الإسلامي يعيش آثاره إلى هذه اللحظة.

وقد وقع في هذا الفترة من الانحرافات والمساوئ والمظالم شيء كثير.. ومع ذلك فالصورة في مجموعها ليست بالسوء الذي صُوّر عن عمد لغاية معينة.

وعلينا –في دراستنا هذه– أن نعيد تقديرنا للأحداث والوقائع لاستخلاص الحقيقة التاريخية، ووزنها بميزان الحق الذي لا يتأثر بالهوى من أي جانبيه: هوى الهجوم والتجريح بغير حق، وهوى الدفاع والتمجيد بغير حق..

وهناك حقائق ينبغي أن يعلمها الدارس قبل الدخول في التفصيلات، ثم يظل على ذكر منها بعد علمه بالتفصيلات.

أولا: أن العثمانيين هم أبغض المسلمين جميعا إلى أوربا الصليبية، وإن كانت أوربا تكره الإسلام كله وتحقد على المسلمين جميعا. وذلك لأن العثمانيين هم الذين توغلوا بالغزو العسكري في داخل أوربا أكثر مما توغل الفتح العربي، إذ استولوا على البلقان كله، وحاصرت جيوشهم فينا وكادت تستولي عليها (كما حاصرت بطرسبرج عاصمة الإمبراطورية الروسية – لننجراد الآن– وكادت تستولي عليها). ولا تنسى أوربا أنهم استولوا على القسطنطينية عام 1453م، وهي التي كانت موضع اعتزازهم وفخرهم على مدى قرون طويلة، إذ كانت مركز الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

يقول ولفرد كانتول سميث، المستشرق الكندي المعاصر، في كتابه "الإسلام في التاريخ الحديث: Islam in Modern History:

"إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية كان النبي (صلى الله عليه وسلم) –يقصد الإسلام– هو التحدي الحقيقي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله. وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدي حقيقيا، وكم كان يبدو في وقت من الأوقات تهديدا خطيرا حقا.

"لقد كان الهجوم مباشرا في كلا الميدانين الحربي والعقيدي، وكان قويا جدا.. فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة "أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية" لتتسلمها منها القوة الجديدة، وكانت في خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها... وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا في قبضة الشيوعية عام 1948 لم يكن له قط في العصر الحديث ذلك الفزع في نفوس الغرب المتهيب، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن، من تلك القوة الضخمة المهددة التي لا تكف ولا تهدأ، ويتكرر انتصارها بعد مرة.

"وكما هو الأمر مع الشيوعية، كذلك كان التهديد والانتصارات (الإسلامية) قائمين في عالم الأفكار أيضا... وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية التي كانت بالنسبة لأوربا العقيدة السامية التي أخذت –في بطء– تبني حولها حضارتها. وكان التهديد الإسلامي موجها بقوة وعنف، وكان ناجحا مكتسحاً في نصف العالم المسيحي تقريبا. والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيد التي انتزعت من المسيحيين أناسا دخلوا في الدين الجديد وآمنوا به.. بعشرات الملايين"[1].

ولأن العثمانيين كانوا هم الذين قاموا بمعظم ذلك الغزو داخل أوربا، وهم الذين استولوا على القسطنطينية، فأوربا تحقد عليهم حقدا صليبيا أعنف وأحدّ من حقدهم الصليبي على بقية المسلمين.

ثانيا: أن العثمانيين مبغوضون من أوربا الصليبية لسبب آخر، فحين انحسر المد الإسلامي العربي عن أوربا بسقوط آخر دويلة إسلامية في الأندلس عام 1492م، بدأ التحفز الصليبي لغزو بقية العالم الإسلامي [كما سيأتي بيانه في الفصل القادم] وجرى لعابهم في شهوة محمومة للقضاء على الإسلام. ولكن القوة العسكرية للدولة العثمانية أفزعتهم، فلم يستطيعوا النفاذ إلى العالم الإسلامي من جهة الشرق للاستيلاء على بيت المقدس كما صنعوا في الحروب الصليبية الأولى، واحتاجوا إلى الدوران البطيء من جهة الغرب. ثم إنهم بدلا من تحقيق أحلامهم في شن حرب صليبية شاملة، وجدوا الجيوش الإسلامية العثمانية هي التي تغزو ديارهم في أوربا ذاتها، وتعطل إتمام الغزوة الصليبية في واقع الأمر عدة قرون، حتى ضعفت الخلافة العثمانية واستطاعوا إسقاطها.. لذلك يشتد حقدهم عليها.

ثالثا: أن الصهيونية العالمية تبغض الدولة العثمانية بغضا خاصا لأن السلطان عبد الحميد رفض إعطاء اليهود وطنا قوميا في فلسطين على الرغم من كل الإغراءات التي قدمها

(1) ولفرد كانتول سميث، الإسلام في التاريخ الحديث، طبعة أكسفورد، الطبعة الرابعة سنة 1966، ص105، 106 من الأصل الإنجليزي.

له هرتزل وغيره من الصهيونيين، لذلك قرروا الإجهاز على الدولة بالتعاون مع الصليبية العالمية [كما سيأتي بيانه في الفصل القادم] ولكن حقدهم ظل يطفح في كتاباتهم عن الخلافة العثمانية، فالتقت شهوة الصليبية العالمية مع الضهيونية العالمية في تشويه صورة الخلافة العثمانية، وكتبوا عنها في مراجعهم التاريخية أسوأ ما يمكن أن يكتب عن أي فترة من تاريخ العالم! وتلك هي المراجع التي ينقل عنها معظم المؤرخين العرب.. إلا من رحم ربك!

رابعا: أن المخطط الصليبي الصهيوني كانت له مصلحة قوية في تفتيت الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، حتى يستطيعوا أن يبتلعوا أجزاءه المتفرقة لقمة بعد لقمة بعد أن عجزوا عن مواجهة الدولة والتغلب عليها مجتمعة، لذلك سعوا بكل الوسائل إلى إثارة الكراهية الشديدة ضد العثمانيين في المنطقة العربية خاصة لتنسلخ عن الدولة العثمانية، وشجعوا تلك الكراهية بكل الوسائل بما في ذلك التشنيع بالحق والباطل على العثمانيين والحكم العثماني. ثم جعلوا تلك الكراهية التي أثاروها بأنفسهم (عن طريق نصارى لبنان وسوريا أولا، ثم بواسطة لورنس بعد ذلك)[1] جزءا من التاريخ، كأنما حدثت من تلقاء نفسها بغير تحريض! ثم عادوا يستغلونها في التشنيع على الدولة العثمانية!

خامسا: أنهم كانوا يعتزمون [كما سيأتي بيانه] إزالة الحكم الإسلامي من الأرض، باعتباره العقبة الكبرى في سبيل تمكين أقدامهم في العالم الإسلامي، فكان لازما لهم تشويه صورته في نفوس المسلمين وتكريههم فيه، ليسهل عليهم اقتلاعه. لذلك سعوا إلى تشويه التاريخ الإسلامي كله، ولكنهم ركزوا بصفة خاصة على الحكم العثماني –حتى بعد أن أسقطوه بالفعل– وضخموا سيئاته حتى جعلوه كله سيئات لينفروا الناس من الحكم الإسلامي عامة. وظل دعاتهم وعملاؤهم –كلما حن المسلمون للحكم الإسلامي الشرعي– يقولون لهم: هل نسيتم الحكم العثماني ومظالمه؟ هذا هو الحكم الإسلامي إن كنتم تريدون!

لهذه الأسباب مجتمعة عمدت الصليبية الصهيونية إلى وضع أكبر قسط ممكن من التشويه في صورة الحكم العثماني، مستغلين ما وقع بالفعل من هذا الحكم من مظالم وأخطاء وانحرافات، جسموها وكبّروها لتبدو هائلة مريعة ممقوتة، حتى يضمنوا ألا يحن المسلمون أبداً للعودة إلى الحكم الإسلامي، ما دامت آخر صورة له هي تلك الصروة الكريهة الممقوتة!

وينبغي أن يعرف الدارس هذه الحقائق قبل أن يدخل في تفصيلات الحكم العثماني ليعلم –مقدما– أنه سيواجه حملة مدبرة ضد هذا الحكم، ذات أهداف واضحة منذ البدء.

([1]) انظر الفصل القادم.

وليست بنا رغبة على الإطلاق في الدفاع عن مظالم العهد العثماني وأخطائه وانحرافاته، بل ينبغي دراستها والتركيز عليها بنفس الصورة وبنفس الروح التي أبرزنا بها انحرافات العهد الأموي والعهد العباسي. ولكن علينا في الوقت ذاته أن نلتزم بالحقيقة الموضوعية، ولا نلجأ إلى التشنيع المغرض، انسياقا وراء المراجع الأوربية، الصليبية الصهيونية، أو انسياقا وراء الكراهية التي أثارها أولئك الأعداء في نفوسنا ضد الحكم العثماني.

وحين نلتزم ذلك ستتضح لنا الحقائق التالية من الجانبين: جانب المزايا وجانب العيوب.

أولا: أن العثمانيين كانوا دما جديداً بالنسبة للواقع الإسلامي المتفكك المترهل الذي أوصل العباسيون إليه المجتمع في نهاية أيامهم. فبعثوا فيه القوة من جديد، وأعادوا إليه جديته، وحوّلوه من عجزه وبأسه إلى قوة مقتحمة، تصنع الأمجاد، وتثير الاعتزاز في نفوس المسلمين (وقد ظل المسلمون يعتزون بدولة الخلافة العثمانية حتى آخر أيامها).

ثانيا: أنهم كانوا عبقرية حربية فذة، وعبقرية سياسية كذلك، دوخت أوربا الصليبية في مناوراتها معها عدة قرون.

ثالثا: أن هذه المقدرة العسكرية الفائقة التي كانت تمتلكها الدولة العثمانية قد أرهبت أوربا زمنا طويلا، وزجرتها عن محاولة احتلال العالم الإسلامي من جديد، لمدة أربعة قرون على الأقل، وهذا وحده حسبها عند الله وعند الناس. وقد رأى الناس —حتى الكارهون منهم للحكم العثماني– ما نال العالم الإسلامي من الهوان والذل والضياع بعد زوال دولة الخلافة، ورأوا بصفة خاصة كيف اقتطعت فلسطين —الأرض المقدسة– من العالم الإسلامي، وأعطيت لليهود.

رابعا: أنهم كانوا مخلصين للإسلام، راغبين في نشره وجعله ذا سلطان في الأرض، واهبين قوتهم كلها لعزته ونصرته.

خامسا: أنهم حفظوا وحدة العالم الإسلامي من التفكك عدة قرون، وأنه بزوالهم انفرط عقد العالم الإسلامي بصورة ليس لها مثيل من قبل، وأصبح نهبا للتيارات المختلفة، تتناوشه من الداخل والخارج، وتسلمه إلى التيه.

تلك كلها حسنات يغفلها "المؤرخون العرب" الذين يتأثرون بالمراجع الصليبية الصهيونية، أو يتأثرون بالكره الذي أثاروه في العرب ضد الحكم العثماني. بل يصل الأمر من السوء إلى حد بالغ حين يكتب أولئك "المرخون" بخط أيديهم، أو يُجْرون على ألسنتهم تلك

الكلمة المنكرة التي تنكرها السموات والأرض، إذ يطلقون على الحكم العثماني "الاستعمار التركي"! ولا يحسون بما في ترديد هذه الكلمة من عبودية للصليبية الصهيونية التي تلوي ألسنتنا فتنطق بالمنكر ضد ديننا وتاريخنا وكياننا ودون أن نحس!

إن المسلم "لا يستعمر" المسلم أبدا..

وغير المسلم قد يقول –بتعصبه الديني– إن الإسلام بالنسبة له استعمار. وهي قولة بادية التعصب لأن الإسلام لم يكن قط "استعماراً" في البلاد المفتوحة ولو ظل أهلها على دينهم، لأنه لا يظلمهم، ولا يسلب أقواتهم، ولا يهين كرامتهم، ولا يعتدي على أعراضهم، كما يصنع الاستعمار الدنس في كل مكان تطؤه قدماه.

أما أن يقول المسلم تلك القولة المنكرة عن حاكم مسلم يحكم بشريعة الله، فهي كبيرة تهتز لها السموات والأرض، والرسول المصطفى –صلى الله عليه وسلم– يقول: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى"[1].

يمكن أن يقال إنه حكم ظالم.. بل يمكن أن يقال إنه ارتكب منكرات وفظائع.. أما أن يقال إنه استعمار؟!!

ألا ما أضيع "المسلمين" حين يتخلون عن مفاهيم الإسلام[2]!

* * *

سنجد إلى جانب هذه الحسنات كثيرا من العيوب.

أولا: أن العثمانيين كانوا أول خلافة ذات لسان غير عربي، ولم يستعرب. واللسان العربي أمر له أهميته في فهم كتاب الله وفقهه. وقد كان عدم استعراب هذا اللسان معوّقا عن التفقه في هذا الدين رغم الحماسة الظاهرة له.

([1]) أخرجه البخاري.

([2]) من الواضح أن هذه اللفظة لم تجر على الألسنة إلا في ظل "القومية العربية" التي أثارها نصارى لبنان وسوريا ثم وقع فيها المسلمون العرب بتأثير المؤامرات الصليبية الصهيونية لتفتيت العالم الإسلامي توطئة لاستلاب فلسطين.

ثانيا: أن الأتراك –رغم حماستهم المتدفقة للإسلام– لم يكونوا قد تشربوا روحه تماما (ولا ينفي هذا وجود أفراد تشربوا روح هذا الدين بصفاء حقيقي) ولذلك دخلوا فيه محتفظين ببعض نظمهم وتقاليدهم التي كانوا عليها في جاهليتهم قبل دخولهم في الإسلام، كنظام الإقطاع مثلا، وهو نظام دخيل على الإسلام ولا يمكن أن يتقبله[1]. ولكنهم نشروه –بكل مظالمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية– في ربوع الأرض التي حكموها فيما يمكن أن نطلق عليه للتوضيح "نظام الباشوات".

ثالثا: أنهم –في سبيل الاحتفاظ بوحدة الدولة، وعدم تفككها على أيدي الولاة الطامعين كما حدث في الحكم العباسي –استخدموا نظاما إداريا كانت مساوئه أكثر من حسناته، إذ كانوا يولون الولاة لفترات قصيرة لا تمكّنهم من جمع الأنصار وتأسيس "مراكز قوة" تطمعهم في إمكان الاستقلال بولايتهم عن الدولة، ولكن هذا النظام جعلهم –من جانب آخر– لا يهتمون بأمر الرعية، ويصرفون همهم –في فترة ولايتهم القصيرة– إلى جمع المال، فيزيد هذا من سيئات "نظام الباشوات".

رابعا: أن فيهم –ككل الشعوب العسكرية النزعة– لونا من الشدة عاملوا بها البلاد التي فتحوها، وهي ليست من روح الإسلام الذي لا يفرق بين العسكريين والمدنيين، ويجعل خيلاء العسكرية في ساحة الحرب وحدها، أي على الأعداء لا على أفراد الأمة. وإن كان الحق أنهم استخدموها مع الشعب التركي نفسه، ولكن الأتراك تحملوها لأنهم يشاركون الحكام في نزعتهم العسكرية. أما البلاد المفتوحة فقد رأت فيها لونا من القسوة لم يطيقوه! وكان هذا مما استغله الأعداء في إثارة النعرات القومية وعمليات التفتيت.

خامسا: أنهم –لعدم تفقههم في الدين– رفضوا إعادة فتح باب الاجتهاد الذي كان قد أقفل في نهاية العصر العباسي، لتوهمهم أنه قد قيل في الفقه كل ما يمكن أن يقال ولم يعد من حق أحد أن يضيف جديداً إليه، فضلا عن كون المحدثين –في نظرهم– لم يكونوا مؤهلين للاجتهاد.. وقد كان هذا من أهم أسباب تجمد الفقه وركوده في وقت كان قد جدّ في حياة الناس ما يستلزم إعادة فتح باب الاجتهاد، للإحاطة بذلك الجديد وضبطه بضوابط الشريعة. والمفروض في الفقه الإسلامي ألا يتوقف عن النمو ما دام في حياة الناس جديد. وكانت

([1]) يخلط كثير من الناس بين نظام الإقطاع الأوربي Feudalism والإقطاع الإسلامي الذي يرد ذكره في التاريخ الإسلامي بمعنى إقطاع السلطان قطعا من الأرض لبعض الأشخاص لتعميرها ورعايتها، وذلك نتيجة التشابه في اللفظ ولكن المحتوى مختلف أشد الاختلاف. والإقطاع التركي كان قريب الشبه بالإقطاع الأوربي.

النتيجة –حين ضغطت الحوادث دون غطاء لها من الشريعة –أن فتحت ثغرة استغلها اليهود والنصارى المتربصون، فدسوا على السلاطين "قوانين" أو "تنظيمات" مستمدة من النظم الأوربية، على أساس أنها لا تخالف مقاصد الشريعة الإسلامية، فكان هذا هو المزلق الذي أدى في النهاية إلى إيجاد وهم خطير: أن الشريعة موكلة بما كان في الماضي، أما ما يجد فيطلب من النظم الأوربية! فسهل على العابثين بعد ذلك تقليص الشريعة في "قوانين الأحوال الشخصية" واستدراج الأمة إلى الانسلاخ منها تدريجيا، والحكم بغير ما أنزل الله!

تلك أهم عيوب الحكم العثماني وأهم مزاياه..

وما بنا رغبة على الإطلاق في التقليل من هذه العيوب. بل إننا –كما قلت– حريصون على إبرازها والتركيز على دراستها، لنعلم من أي أُتِيَ المسلمون، وكيف أصابهم ما أصابهم في العصر الحاضر.

ولكن إغفال الحسنات كلها إزاء هذه العيوب، أو الزعم بأن الحكم العثماني لم يكن إلا مساوئ فحسب، فإنه –فضلا عن مجافاته للحق الذي أمرنا الله باتباعه –مجاراة شائنة لما تريد منا الصليبية الصهيونية أن نقوله عن هذا الحكم، لننسى جريمتهم في إزالته، ولكي لا نسعى إلى إقامة الحكم الإسلامي من جديد..

فلتكن دراستنا الهادفة واعية لهذا الأمر، ولنعمل جاهدين على إبراز الحق الصافي الذي لا تلونه الأهواء.

*   *   *

أما المجتمع الإسلامي في العهد العثماني فقد تأثر ولا شك بجميع انحرافاته، لأنه كان –بعد المرض الطويل في العصر العباسي خاصة– عرضة لأن يتأثر بالانحرافات أكثر من ذي قبل، لأنه كان قد فقد كثيرا من قدرته على إفراز "الأجسام المضادة" التي تقاوم الأمراض.

وكان أشد ما أصاب المجتمع الإسلامي من الانحراف تحول الدين تدريجيا إلى تقاليد تراعي إلى حد التقديس، ولكنها خاوية من الروح. فبناء مسجد يعتبر في نظر الناس صكا بدخول الجنة، ولو كان صاحبه قد جمع المال من السحت الحرام! وتقبيل الولد ليد أبيه وأمه هو العلامة على الأدب والصلاح، ولو كان الولد بعد ذلك يرتكب كل موبقة! والحجاب علامة على الحشمة ولو جرى تحت ستاره ما يجري في القصور وفي غير القصور.

كذلك تحول الدين إلى طرق صوفية ملأت أرجاء العالم الإسلامي بشكل ملحوظ، وعلى الرغم من نزعة التطهر في بعض أفرادها على الأقل، وكونها كانت نوعا من الرباط يربط أجزاء العالم الإسلامي، لانتشار كل طريقة في أكثر من قطر، إلا أنها بروحها السلبية عائق عن الحركة الحية في واقع الحياة، فضلا عن انحرافات العقيدة التي لا يتقبلها الإسلام.

وفي النهاية أصبح الدين مجموعة من الخرافات عن المشايخ والأولياء وأصحاب المقامات وأصحاب الكرامات، شغلت الناس عن حقيقة الدين الواعية، وكونه نظاما واقعيا يشمل كل الحياة، وشغلتهم عن اتخاذ الأسباب بالتطلع إلى خوارق العادات!

وهذا التحول الخطير في فهم الناس للدين وفي طريقة ممارستهم له، كان له أثره الخطير في تحول خط التاريخ الإسلام، برغم المد العسكري الذي قام به العثمانيون في أوربا وآسيا..

وكان هذا في الحقيقة هو بدء الانحسار..

بدء الانحسار

قبل أن نتكلم عن بدء الانحسار يلزمنا أن نتعرف على الحجم الحقيقي للوجود الإسلامي في الأرض خلال القرون العشرة التي سميناها فترة "المد الإسلامي" لنعرف ماذا حققت الأمة الإسلامية من الغاية التي أخرجها الله من أجلها، ولنعرف كذلك حجم الخسارة التي خسرتها الأمة بانحسارها عن تحقيق هذه الغاية، وما خسرته البشرية كلها من جراء ذلك الانحسار.

إن هذه الأمة كما قلنا في أول الكتاب لم تُخْرَج لذات نفسها فحسب، وإنما أخرجت لتكون رائدة لكل البشرية وشاهدة عليها:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[1].

فهي حين تكون ذات وجود فعلي تحقق الخير لنفسها وللبشرية معها. وحين ينحسر وجودها في الساحة فإنها تؤذي نفسها وتؤذي البشرية معها. وكلا الوجهين تحقق في تاريخ هذه الأمة. ففي فترة المد كانت ممكّنة في الأرض، ذات قوة حربية وسياسية وعلمية وحضارية وفكرية تؤكد بها وجودها، وتؤثر بها في العالم المعروف يومئذ، في آسيا وأفريقيا وأوروبا. وفي فترة الانحسار تكالبت عليها قوى الأعداء فأفقدتها مكانتها، وفقدت البشرية في الوقت ذاته النموذج الصحيح الذي تستضيء به، فدخلت في جاهلية عاتية هي التي تحكم الأرض اليوم وتذيقها الوبال.

والتعرف على هذه الحقيقة لازم دائماً للمسلم الذي يدرس التاريخ الإسلامي. ولكنها أشد لزوماً للمسلم المعاصر من جهتين اثنتين على الأقل، إن لم يكن أكثر.

الجهة الأولى أن الهوان الذي تعيش فيه الأمة اليوم يُنْسي أبناءها قدر هذه الأمة، ووظيفتها التي أخرجها الله من أجلها، إذ يجد المسلم نفسه وأمته في ذيل القافلة، لاهثين ليلحقوا بالركب، فيستصغر قيمة نفسه، بل لا يكاد يصدق أصلاً أنه أدى دوراً تاريخياً في حياة البشرية، وكان قائداً لها ورائداً لمسيرتها.

([1]) سورة البقرة: 143.

والجهة الثانية أن هذا الهوان ذاته يُنْسي المسلم المعاصر الهدف الذي يجب أن يعيش من أجله. فليس هدفه أن يلهث ليلحق بركب الجاهلية! إنما هدفه أن يسترد مكان الريادة للبشرية مرة أخرى، ويردّ هذه البشرية الضالة إلى صوابها. ومهما بدا هذا البعد خيالياً في الوقت الحاضر لفرط تخلف الأمة في جميع الميادين، فإنه ينبغي ألا يغيب عن قلب المسلم المعاصر إحساسه برسالته الربانية، ليكون هذا حافزاً له على العمل الجاد ليخرج من تخلفه أولاً، ثم ليعطي من نفسه النموذج الإسلامي الصحيح، الذي يبرز المعاني التي تفتقدها البشرية اليوم، والتي تشقى من أجل افتقادها على الرغم من كل إنجازاتها في عالم الإنتاج المادي والقوة المادية.

ويؤكد لزوم هذه المعرفة بالنسبة للمسلم المعاصر أنه أصبح يعتمد في تقدير نفسه –واعياً أو غير واع– على رأي أوروبا فيه، ونظرتها إليه! والمراجع الأوروبية –بدافع الحقد الصليبي– تصغر عامدة من قيمة الإسلام والأمة الإسلامية، وتمر بتاريخها مروراً سريعاً كأنه حدث هامشي في تاريخ البشرية![1].

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)[2].

وحين تتحدث المراجع الأوروبية عن الحضارة الإسلامية فإنها –لأمر ما– لا تركز على "القيم" التي بثها الإسلام في الأرض، إنما تركز على الزخارف والعمائر والآثار الحسية، وهذه –مهما تكن عظمتها– لا تحدث في النفس إلا أثراً عابراً يزول من لحظته. أما "القيم" –التي يمرون عليها مروراً عابراً ولا يركزون عليها– فهي التي تحدث الأثر الباقي في النفس، وتعطي القيمة الحقيقية للحضارة الإسلامية. وهم –بدافع الغرور الأوروبي، من ناحية، والحقد الصليبي من ناحية أخرى– لا يحبون أن ينسبوا أي قيمة باقية لغير الحضارة الأوروبية، وجذورها الإغريقية الرومانية القديمة.

لكل هذه الأسباب يلزم التأكيد على قيمة ما أنجزته هذه الأمة في فترة المد الإسلامي وأثره على البشرية، وكذلك على مدى الخسارة التي خسرتها الأمة في فترة انحسارها، وخسرتها البشرية كلها كذلك.

([1]) خذ على سبيل المثال الموسوعة التاريخية التي يشرف على تحريرها "هامرتن" بعنوان "تاريخ العالم" وكتاب "ويلز" معالم تاريخ الإنسانية" وكتاب"ول ديورانت" "قصة الحضارة" وغيرها وغيرها كثير.

([2]) سورة الأحقاف: 11.

* * *

إن أعظم ما أهدته هذه الأمة "للناس" —كما أشرنا من قبل– هو التوحيد، بكل ما يحمل من معان وقيم وأخلاقيات[1]..

والمراجع الأوروبية لا تشير بطبيعة الحال إلى قيمة التوحيد بالنسبة "للإنسان"، لأن أوروبا لم تعرف التوحيد في عقيدتها المزيفة التي صنعها لها بولس، وزعم أنها من وحي السماء، فلا يمكن بداهة أن تعترف بقيمة الشيء الذي فقدته، والذي رفضته ابتداء حين رفضت الدخول في الإسلام!

كما أن الجاهلية الأوروبية المعاصرة —لظروف طغيان الكنيسة التي أدت بأوروبا إلى التمرد على الدين– تبث في ثقافتها أن الدين شيء هامشي في حياة الإنسان، بل الأفضل التخلص منه من أجل التقدم والحرر والرقيّ!

ومن هنا فإن المسلم المعاصر الذي تأثر بالغزو الفكري، وصار يستمد تقويمه لنفسه من نظرة أوروبا إليه، لن يحس بالقيمة الحقيقية للتوحيد، وكونه أعظم هدية تُهْدى للناس، تهديهم إلى خير الدنيا والآخرة، وتضبط سلوكهم وفكرهم ومشاعرهم بالضوابط الصحيحة، فترفع الإنسان وتكرمه، وتضعه في وضعه اللائق به باعتباره "الخليفة" المكلف بعمارة الأرض.

من أجل ذلك فلا بد لنا من التركيز في دراستنا لفترة المد الإسلامي على حقيقة التوحيد، وبيان أثره الواقعي في حياة المسلمين، وفي صنع الحركة العلمية والحركة الحضارية التي استضاءت بها أوروبا فخرجت من الظلمات إلى النور.

وقد تحدثنا في الفصل السابق عن كلتا الحركتين، وانبثاقهما من العقيدة، ونموهما في ظلها بلا تعارض ولا خصام. ونريد هنا أن نركز على أثر هاتين الحركتين على أوروبا، وأن التوحيد الإسلامي —في صورته الحضارية التي هي جزء أصيل منه– هو الذي أثر هذا التأثير الهائل، الذي أيقظ أمة كانت غافية، متأخرة، جاهلة، غارقة في مظالم الإقطاع ومظالم الطغيان الكنسي، فأكسبها ما في حياتها اليوم من الخير. وأن رفض أوروبا للتوحيد ذاته —وإن تأثرت بصورته الحضارية التي هي إفراز أصيل منه– هو الذي أكسب أوروبا كل ما في حياتها اليوم من الشر!

([1]) راجع فصل "الإسلام" في أول الكتاب ص49 —ص66.

يلزم هذا ليعرف الدارس القيمة الحقيقية للتوحيد التي تغشّى عليها اليوم في نظره جملة عوامل في وقت واحد، أشرنا آنفاُ إلى اثنتين منها، وهي إهمال المراجع الأوروبية لذكرها، وإصغار الجاهلية المعاصرة من شأن الدين كله وتنفير الناس منه بوصفه معطلاً عن الحياة والتقدم والتحرر. ونضيف أن واقع المسلمين اليوم هو كذلك من العوامل التي تغشّى على قيمة التوحيد، لأن المسلم المعاصر يعتقد أنه قائم بالتوحيد، ثم يرى نفسه وأمته في حضيض من التخلف العلمي والحضاري والفكري والأخلاقي والحربي والسياسي، فيغلب على حسه أن التوحيد أمر لا يقدم ولا يؤخر في واقع الحياة (إن لم يصل به الأمر إلى الاعتقاد بأنه من عوامل التأخر، كما توحي إليه أوروبا!).

لذلك فإن معرفة التوحيد على حقيقته التي مارسها المسلمون بالفعل ردحاً من الزمن غير قصير، ومعرفة أن الأجيال المتأخرة من المسلمين قد انحرفت عن حقيقته وإن ظنت في نفسها الاستقامة عليه، ضروري لإدراك الإنجاز الحقيقي لهذه الأمة في وقت رفعتها.

كذلك كان تعميق الإيمان باليوم الآخر من أعظم ممارسات هذه الأمة، ومن أعظم ما أهدته للناس. إنه هو الذي جعل هذه الأمة تقدم ما تفردت به حركتها الحضارية من التوازن والشمول والترابط، إذ شملت مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، كما شملت مطالب الجسد ومطالب الروح، ووحدت هذه وتلك في نسق واحد، وهو الذي يسر لهذه الأمة أخلاقها التي تخلقت بها فترة غير قصيرة من عمرها، فبقي المجتمع الإسلامي –كما أشرنا آنفاً– نظيفاً من الخمر، نظيفاً من الفاحشة، نظيفاً من الجريمة، بتأثير الخوف من عقاب الله، والطمع في جنته ورضاه.

ومن ثم فإن نشر الإسلام –الذي يحمل تلك المعاني وتلك الأخلاقيات –على نطاق واسع من الأرض، كان هو أعظم إنجازات هذه الأمة، وفاء بالمهمة التي أخرجها الله من أجلها، وتحقيقاً للكرامة التي كرّم الله بها "الإنسان".

والمسلم المعاصر –الذي ينظر إلى صورته في مرآة أوروبا –لن يجد بطبيعة الحال في المراجع الأوروبية أي صدى لهذا الإنجاز الضخم، بل سيجد على العكس من ذلك صدى معكوساً يصور هذا الفتح الذي قامت به الأمة الإسلامية تنفيذاً لأمر الله، ومن أجل رفعة الإنسان، على أنه عدوان على أوروبا خاصة، يقابل بالضغينة والحقد، وتشوه صورته بكل سبيل!

لذلك كان من المهم ونحن نعيد كتابة التاريخ الإسلامي للمسلم المعاصر، أن ننبهه إلى هذه الحقائق، وأن نعرضها له في صورتها الحقيقية التي غابت عنه وهو ينظر إلى نفسه في مرآة الغرب!

فإذا أضفنا إلى ذلك التسامح الإنساني الرائع الذي عامل به المسلمون أهل البلاد المفتوحة الذين بقوا على دينهم ولم يدخلوا في الإسلام، فقد أضفنا إنجازاً آخر، قد يجد المسلم المعاصر له صدى في بعض كتابات المستشرقين ككتاب "الدعوة إلى الإسلام" للمستشرق "ت. و. آرنولد" (The Preaching of Islam by T.W.Amold) ولكنه صدى خبيث برغم كل المديح الذي يكيله آرنولد للمسلمين في كتابه هذا، إذ يهدف به إلى صرف المسلمين عن الجهاد لنشر الدعوة، بدعوى أن الإسلام لا يحتاج لذلك الجهاد، ويكفيه الكلمة الطيبة والمعاملة الكريمة![1]. ومهما يكن من أمر فهو إنجاز تفرد به المسلمون في التاريخ كله. ويجب أن يعرفه المسلم المعاصر، ويعرف قيمته في مواجهة المعاملة الوحشية التي عامل بها الاستعمار الأوروبي البلاد التي احتلها، وخاصة ما كان منها إسلامياً (ويكفي نموذجاً لذلك العبيد الذين اختطفهم الأوروبيون من أفريقيا ليعملوا لهم في المزارع الأمريكية، والمعاملة الوحشية التي عانوها، والتي تعترف بها المراجع الأوروبية ذاتها، والتي باركتها الكنيسة الأوروبية في حينها) أن الفارق بين ذلك التسامح وهذه الوحشية هو الفارق بين لب الحضارتين: الحضارة الربانية المصدر، والحضارة الجاهلية..

فإذا جئنا إلى الحركة العلمية والحركة الحضارية فسيجد المسلم المعاصر بعض المنصفين من الكتاب الأوروبيين يعترفون بأثرها على النهضة الأوروبية، من أمثال بريفولت في كتاب "بناء الإنسانية Making of Humanity"حيث يقول:

"ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوروبا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية"[2].

وسيجد كتاباً كثيرين يزعمون أن فضل المسلمين في هذا الأمر لا يتجاوز الاحتفاظ بالتراث الإغريقي الذي كانت أوروبا قد نسيته أو أهملته في قرونها الوسطى المظلمة، فاستردته عند نهضتها من المسلمين الذين حفظوه لها حتى تصحو وتسترده!

([1]) راجع "المستشرقون والإسلام" لتفصيل هذه القضية.

([2]) عن كتاب "تجديد الفكر الديني" تأليف محمد إقبال ترجمة عباس محمود ص250 من الترجمة العربية.

فيجب أن يعرف دارس التاريخ الإسلامي أن الأمر لم يكن كذلك. وأن الذي أخذته أوروبا من المسلمين لم يكن ذلك التراث الإغريقي، الذي فقد تأثيره من قبل في حياة أوروبا نفسها، إنما كان حضارة حية متكاملة من وحي الإسلام ومن صنعه، وإن استخدمت بعض الأدوات من هنا ومن هنالك. وأن أهم ما أخذته أوروبا من احتكاكها بالمسلمين كان هو إرادة الحياة، التي هيأت لها الاستفادة من الحضارة الإسلامية والعلم الإسلامي[1]. وأن تأثر أوروبا بالحضارة الإسلامية كان شاملاً بحيث يكاد لا يوجد جانب من جوانب الحياة الأوروبية لم يتأثر بها.

فحركات الإصلاح الديني التي تمردت على سلطان البابوية الطاغي كانت متأثرة بالإسلام..

وحركات التمرد على سلطان الإقطاع الطاغي، الذي يجعل أمير الإقطاعية هو السلطة التشريعية وهو السلطة التنفيذية وهو السلطة القضائية في آن واحد، كانت متأثرة بالإسلام..

ومحاولة التجمع في "أمة" ذات قانون موحد يحكم في جميع أرجائها بالسوية، ويخضع الناس فيه لنظام موحد كانت متأثرة بالأمة الإسلامية الموحدة، وإن كانت أوروبا لم تفلح في هذه المحاولة إلا في حدود القومية الضيقة، لا في حدود الأمة الموسعة.

وإنشاء حمام خاص بالمنزل كان تأثراً بالمسلمين الذين لا تخلو بيوتهم من حمام يغتسلون فيه ويتوضئون، بينما كانت أوروبا لا تعرف إلا الحمامات العامة في وسط المدينة تغتسل فيها —إن اغتسلت!– وتنظف ملابسها. وحين قامت محاكم التفتيش في الأندلس تطارد المسلمين بوسائلها الوحشية للقضاء على الإسلام هناك، كان عثورهم على حمام في داخل المنزل علامة مؤكدة على أن صاحبه مسلم متخفّ، فيؤخذ على التو إلى التعذيب!

والنظام الجامعي الغربي مأخوذ من الجامعات الإسلامية بما فيه من ضرورة إشراف "الأستاذ" على "الطالب" حتى يتخرج على يديه، وتوجيهه للمراجع التي يرجع إليها، ومناقشته فيما حصّل منها للاطمئنان على قدرته على التحصيل قبل إعطائه "الإجازة" التي تجيز له أن يبدأ في تعليم غيره، بل إن "الروب" الجامعي وغطاء الرأس المكمل له هما تقليد لعباءة الأستاذ المسلم وعمامته!

([1])راجع إن شئت "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" فصل "الجاهلية المعاصرة".

كما تأثر الأدب وتأثرت العمارة حتى عمارة الكنائس ذاتها إذ نقشت في بعضها –بغير علم– عبارات منقولة من المساجد الإسلامية!

وذلك كله فضلاً عن المنهج التجريبي في البحث العلمي وما أحدث في أوروبا من انقلاب كامل في طريقة التفكير.

وإذا كانت أوروبا تحاول أن تصغر من الأثر الإسلامي فيها مدفوعة بالغرور الأوروبي والحقد الصليبي، فالمؤرخ المسلم هو الذي تقع عليه مسئولية إظهار الحقيقة مقرونة بالدليل العلمي، لكي لا يكون الكلام دعوى بلا دليل. ولكي يعرف المسلم المعاصر الحجم الحقيقي لإنجازات الأمة المسلمة وقت تمسكها بالإسلام.

* * *

أما فترة الانحسار فيهمنا في دراستها عدة أمور.

الأمر الأول: هو الأسباب التي أدت إلى الانحسار، ومناقشة الأوهام التي يثيرها أعداء الإسلام في تفسير ذلك الانحسار.

والأمر الثاني: هو النتائج التي نتجت عن هذا الانحسار من إضعاف بنية الأمة من داخلها، ومجيء الغزو الصليبي من خارجها.

والأمر الثالث: هو الخسارة التي خسرتها البشرية من انحسار الأمة الإسلامية.

وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة يحتاج إلى تفصيل.

* * *

من بين الأوهام التي تُبَثّ في تفسير الانحسار وهمان ينتهيان إلى نتيجة واحدة على بعد ما بينهما في الأصل والاتجاه. الأول أن سبب الانحسار هو تنامي القوة الأوروبية بما جعل المسلمين لا يقوون على مواجهتها. والثاني أن الإسلام كان حركة تقدمية بناءة بالنسبة لزمنه، وأن زمنه قد انتهى بفعل التطور الحتمي الذي نقل البشرية إلى طور جديد لم يستطع الإسلام مجاراته، بل أصبح الإسلام فيه عائقاً عن التطور، ومن ثم ذوى ومات.. بالحتمية التاريخية.

والتفسير الأول يصف حالة واقعة بالفعل. فقد تنامت القوة الأوروبية فعلاً في الوقت الذي أخذت القوة الإسلامية تتضاءل، فانتهى الأمر بغلبة القوة الأوروبية وتحطم القوة الإسلامية.

هذا صحيح.. ولكنه في الجانب الإسلامي نتيجة لأسباب أدت إليه، وليس سبباً في ذاته. ويظل السؤال قائماً يحتاج إلى تفسير: لماذا أخذت القوة الإسلامية في التضاؤل؟!

إنه لا يكفي أن نقول إن أوروبا تقوت، فأخذت تناوش المسلمين، وتحاول الاستيلاء على التجارة العالمية بدلاً منهم، وتحاول احتلال البحر الأحمر لتقطع طريقهم التجاري، وتحاول الالتفاف حول العالم الإسلامي والنفاذ إلى النقط الضعيفة فيه.. إلخ.. إلخ..

لا يكفي هذا لتفسير ما حدث من انحسار. فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجابه فيها المسلمون قوى عالمية ضخمة.. فقد جابهوا الإمبراطورية الرومانية وقضوا على قوتها، كما قضوا على الإمبراطورية الفارسية. وجابهوا الحروب الصليبية وهم ضعاف فانهزموا أمامهم فترة ثم عادوا إلى القوة وسحقوا الصليبيين سحقاً. وجابهوا التتار وهم ضعاف فانهزموا أمامهم ثم عادوا فوقفوا وقفتهم الشهيرة في عين جالوت، ثم تغلبوا عليهم ودخلوا هم في دين الإسلام وأصبحوا من أقوى جنوده المدافعين عنه.

وإذن فتنامي قوة أوروبا –على أنه حقيقة في ذاته– لا يفسر ما حدث من انحسار الأمة الإسلامية عن الساحة.

أما التفسير الثاني فمتأثر كما هو واضح بالتفسير المادي للتاريخ، وإن لم يكن القائلون به بالضرورة شيوعيين أو ماركسيين، فالتفسير المادي يصدر عن غرب أوروبا كما يصدر عن شرقها، لأن قاعدة الحياة والتصور فيهما سواء!

ونقطة المغالطة فيه –أو نقطة الخطأ إن افترضنا حسن النية (!)– هي أخذ واقع المسلمين في الفترة الأخيرة شاهداً على الإسلام ذاته، والزعم بأن هذا الواقع قد نشأ عن الإسلام! وليس –كما هي الحقيقة– نتيجة البعد عن الإسلام!

ويلتقي التفسيران في النهاية –على بعد ما بينهما في الأصل والاتجاه– إلى نتجة واحدة، هي أن ما حدث بالفعل كان لا بد أن يحدث، ولم يكن أمام المسلمين خيار آخر! وليس أمامهم إلا الاستسلام لحتميات التاريخ!

لذلك فإنه من المهم جداً في دراسة تاريخ تلك الفترة الشرح المفصل لأسباب الانحسار.

ولقد تحدثت بشيء من التفصيل عن هذه الأسباب في كتاب "واقعنا المعاصر"[1]، ولكن لا بد من إشارة مختصرة هنا في هذا العرض السريع، لتصحيح التصور عن هذا الحدث الهائل الذي اختلت به موازين القوى في الأرض..

لقد أصاب الأمة –حكامها ومحكوميها- جملة أمراض استعرضنا فيما مضى أهمها، كما أصابتها فتن مزلزلة من الداخل وغارات مخربة من الخارج، لو تعرض لها أي نظام أرضي لتهاوى واندثر، كما اندثرت الإمبراطورية الرومانية تحت طرقات قبائل الهون والقوط المتبربرة وهي أهون بكثير من غارات التتار. وكما تهاوت الشيوعية في روسيا في وقتنا الحاضر تحت طرقات الجوع وهي ما تزال في مهدها وعنفوانها.. ولكن قيام النظام الإسلامي على العقيدة أساساً قد أخر انهيار العالم الإسلامي قروناً عدة وهو يتلقى الضربات ويعج بالانحرافات.. ولكنه في النهاية انهار..

إن الجسم الفاره القوة قد يحمل في طياته عدة أمراض فلا تقعده عن الحركة ولا تبدو آثارها عليه. ولكنها لا بد أن تؤثر فيه في النهاية إذا لم يتلق العلاج اللازم والعناية الواجبة.

وهكذا كان حال المجتمع الإسلامي.. قوة فارهة منشؤها هذه العقيدة وما ينبثق عنها من نظام. ثم وقعت الانحرافات فلم تؤثر في حركة ذلك المجتمع لعدة قرون. ثم جاءت لحظات بدا فيها كأنه يترنح –كما حدث في الحروب الصليبية وغارات التتار- ولكنه كان يستجمع قوته وينهض مرة أخرى كأنه معافى من الأمراض.. وفي النهاية، حين تراكمت الأمراض بغير علاج –أو على الأقل بغير علاج حاسم- هوى الجسم الذي كان فاره القوة، ووقد "الرجل المريض" ينتظر نهايته!

فلنتتبع أهم الأمراض التي أصابت المجتمع وأدت في النهاية إلى انهياره..

إن التفلت من التكاليف طبع بشري:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)[2].

والعلاج الرباني لهذا التفلت هو التذكير:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

([1]) راجع إن شئت فصل "خط الانحراف" من كتاب "واقعنا المعاصر".

([2]) سورة طه: 115.

ومعنى استمرار التفلت أو زيادة نسبته أن التذكير لم يكن كافياً، أو لم يكن من النوع المثمر. فإن التذكير لا يكون بالكلام وحده، وإنما بالقدوة الصالحة..

وفي الوقت الذي كان التذكير فيه أقل من المطلوب، أو لم يكن معه من القدوة الصالحة ما يكفي، طرأ على الأمة تياران دخيلان يسيران في اتجاه مضاد لعملية التذكير، هما الفكر الإرجائي والصوفية.

فأما الفكر الإرجائي فيقول: إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلاً في مسمى الإيمان! ويقول: لا يضر مع الإيمان معصية! ويقول: ما دام قلبك عامراً بالإيمان فلا يهمك شيء! باختصار يُطْمِعُ العبد في دخول الجنة ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام!

وأما الصوفية فهي تطمع العبد في القرب من الله ودخول الجنة بالأوراد والأذكار والتسابيح، ولو أهمل كل الأعمال المطلوبة منه في واقع الأرض، من عمارة أو جهاد أو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

ثم جاء الاستبداد السياسي فعمل تدريجياً على صرف اهتمام الناس "بالسياسة"، وإخراجها في تصورهم من واجبات المسلم المفروضة عليه، وحصر الإسلام تدريجياً في "العبادات".. أي في أداء الشعائر التعبدية فحسب..

وكان من جراء تلك الانحرافات أن فسدت –تدريجياً– في نفوس المسلمين مفاهيم الإسلام[2]..

فأما مفهوم لا إله إلا الله فقد تحول من منهج حياة كامل إلى كلمة تقال بالأفواه لا رصيد لها من الواقع.

وأما مفهوم العبادة فقد تحول من معنى شامل يشمل كل أعمال الإنسان وكل أفكاره ومشاعره، فانحصر في الشعائر التعبدية وحدها، ثم انحسرت هذه فأصبحت في الأخير أداء آلياً بغير روح.

([1]) سورة الذاريات: 55.

([2]) راجع إن شئت كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

وأما مفهوم القضاء والقدر فتحول من قوة إيجابية دافعة إلى معنى سلبي مخذّل عن العمل، وتواكل سلبي مريض.

وأما مفهوم الدنيا والآخرة فقد انفك الترابط الذي أوجده الإسلام بينهما، وصارا عالمين منفصلين متقابلين، العمل لأحدهما يعني وقف العمل للآخر وإهماله.

وأما مفهوم الجهاد فقد انحصر فيما يسمى بالجهاد الدفاعي.. إن ساعدت الأحوال!

وأما مفهوم التربية فقد انحصر في مجموعة من التقاليد المرعية، وأهملت التربية التي تخرج كياناً "مسلماً" بالمعنى الحقيقي، إيجابياً نشيطاً فاعلاً متوازناً عابداً لله.

وأما مفهوم العلم فقد انحصر في "العلوم الشرعية" وحدها وأهملت العلوم الكونية التي كانت من أعظم مزايا المسلمين في فترة صعودهم وقوتهم.

فإذا أضيفت البدع والمعاصي، وأخرجت الأعمال من مقتضى الإيمان، وأخرجت الأخلاق من مقتضى العبادة، وانشغل الناس بالكرامات والخوارق لعجزهم عن مواجهة الواقع بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فقد تكاملت للأمة أسباب السقوط في الهاوية..

هذه هي الأسباب.. وليست تنامي قوة أوروبا، ولا تجاوز الإسلام دوره التاريخي!

لقد أدت هذه الأمراض إلى "التخلف".. وفي جميع الميادين.. في السياسة والحرب والعلم والحضارة والفكر والأخلاق.. وكان التخلف نتيجة البعد التدريجي عن حقيقة الإسلام.

أما الإسلام ذاته –ذلك النظام الرباني– فلا يتخلف أبداً! إنما يتخلف البشر عن تحقيقه في واقعهم فيوصفون عندئذ بأنهم متخلفون.. ويظل الإسلام هو الإسلام.

وإدراك هذا الأمر هو على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للمسلم المعاصر بصفة خاصة.

لأن هذا المسلم المعاصر يظل يسمع من أعدائه وأصدقائه معاً أن مشكلة الأمة الإسلامية هي تخلفها.. ولكن في أي شيء؟! في الميدان الاقتصادي والعلمي والمادي والحربي والسياسي.. إلخ.

وما يقال في هذا الشأن حق.. ولكنه حق ناقص.. يحدث من الضرر أكثر مما يحدث من النفع، لأنه يخفي السبب الحقيقي لهذا التخلف، ويعطي تشخيصاً خاطئاً للمرض، فيعطي بالتالي وصفاً خاطئاً للعلاج.

هل التخلف من طبع هذه الأمة؟!

هل التخلف من طبيعة الإسلام؟!

كذلك أوحى الأعداء إلى المسلم المعاصر ليصرفوه عن منبع قوته الحقيقي، الذي يفزعون منه، ومن العودة إليه، ويوجهوه وجهة تستنفد جهوده، ولا تشفيه في الوقت ذاته مما هو فيه.

قالوا له: تعلم فأنت جاهل. طور اقتصادياتك فأنت فقير. اشتر أسلحة متطورة فأنت ضعيف. وحسِّن صحتك فأنت مريض. طور وسائل إعلامك فليست عندك سينما ولا مسرح ولا إذاعة ولا تليفزيون ولا موسيقى ولا فن ولا "فولكلور"[1]! وهذه كلها من دلائل التقدم والتحضر.. وهمسوا في أذنه في أثناء ذلك كله: "أن أترك "الدين" فهو سبب جميع المصائب!

وأخذ المسلم المعاصر بكل النصائح، ما هو منها جهر وما هو همس. ففتح المدارس والجامعات، وحاول أن يطور اقتصادياته، واشترى الأسلحة المتطورة، وعنى بصحته.. وأنشأ له سينما ومسرحاً وإذاعة وفنوناً فولكلورية وغير فولكلورية.. وانصرف في الوقت نفسه عن دينه.. وانسلخ من عمره اليوم أكثر من قرن في هذه التجربة "الحضارية".. فماذا كانت النتيجة؟!

فأما قشور الحضارة فقد أصبحت عنده بالفعل.. ازدعمت شوارعه بالسيارات، وازدحم بيته بالأدوات الكهربائية، وملأت أشرطة الأغاني والموسيقى وأشرطة الفيديو داره، وصار التليفزيون ينقل إليه حركة العالم، سواء كانت حركة جادة أو حركة لاهية عابثة مستهترة.. وصار عنده قشور من العلم، وكثير من ذوي الألقاب..

ثم..؟

([1]) الفلوكلور معناه الفنون الشعبية من رقص وغناء وحفلات وطقوس.. إلخ.

ثم ملأت حياته التبعية للغرب. التبعية الفكرية، والتبعية السياسية، والتبعية الاقتصادية.. حتى تبعية أدوات العبث والمجون. ولم يكتسب من الغرب جلده على العمل ومثابرته وجديته وعبقريته التنظيمية. ونظرته العلمية في حل مشاكله. ونظرته المستقبلية البعيدة. وانهارت عملاته. وتخاذلت مواقفه السياسية. وملأت الرشوة مكاتب موظفيه.. فضلاً عن التحلل الأخلاقي والفوضى الجنسية..

وضاعت فلسطين.. وبلاد أخرى من بلاد المسلمين عرضة للضياع..

وتحقق للصليبية الصهيونية في قرن واحد ما لم يتحقق لها من قبل في عدة قرون..

إن التخلف العلمي والمادي والحضاري والسياسي والاقتصادي والحربي.. إلخ.. إلخ حقيقة واقعة ولا بد من إزالته.

ولكنا إذا ظللنا نحاول علاج الدمل من السطح بعمل جراحات تجميلية، دون العلاج الباطني الذي يزيل أسبابه، فسنبذل الجهد، ونوهم أنفسنا أننا نعمل، وتكون حصيلتنا هي تلك التي جنيناها في أكثر من قرن: تفاقُم المرض من الداخل، مع استمرار عمليات التجميل على السطح!

لا بد أن نعود إلى الأسباب الحقيقية التي أدت إلى التخلف: التفلت من التكاليف. الفكر الإرجائي. الصوفية. الاستبداد السياسي. فساد المفاهيم. التواكل. القعود عن العمل. انتشار البدع والخرافات..

لا بد من تصحيح انحرافات العقيدة..

لا بد أن نعلم أن ما يظنه المسلم المعاصر عقيدة صحيحة وإيماناً كاملاً هو ثوب ممزق مملوء بالثقوب.

لا بد من الرجوع إلى فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم لمعنى لا إله إلا الله، ومقتضياتها في واقع المسلم: واقع سلوكه وواقع فكره وواقع مشاعره، وتحديد مصدر التلقي الذي يتلقى منه منهج حياته..

وسيقول المسلم المعاصر: والمعدات الخاوية؟ والمصالح المعطلة؟ والشوارع المخربة؟ أنتركها حتى نصحح للناس عقائدهم؟!

وتلك قولة ساذجة سبق أن رددنا عليها في أكثر من كتاب.

إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو يصحح للناس عقائدهم لم يقل لهم: كفوا عن طلب الرزق، ولا تأكلوا ولا تشربوا ولا تتحركوا في الأرض حتى أصحح لكم عقائدكم!!

إنما قال لهم إن الله يقول لكم: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[1].

وقال لهم إن الله يقول لكم: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)[2].

ووجههم توجيهات كثيرة في هذا المعنى، فصححوا عقيدتهم وهم يتحركون حركتهم البشرية الواقعية في كل اتجاه.

وهذا الذي ينبغي أن يعلمه المسلم المعاصر..

عليه أن يتعلم. ويطور اقتصادياته. ويشتري أسلحته[3]. ويحسّن صحته. ويشق طرقه. ويطور أدواته. وهو يرسخ عقيدته، ويصحح تصوراته، ويعود إلى التلقي من عند الله وحده.. فيرجع إلى منبع قوته الحقيقي.. ويعالج أمراضه.

* * *

أما الوهم الآخر، الذي يقدمه التفسير المادي للتاريخ، من أن الإسلام كان حركة إيجابية تقدمية بالنسبة لوقته، ولكن التطور التاريخي استوعبه ثم سبقه، وأصبح الإسلام رجعية وتأخراً ومعوقاً عن الحياة والرقي والتقدم، فهو وهم لا يستحق المناقشة لولا أن المسلم المعاصر معرض للتأثر به من كثرة ما صبوه في أذنيه ورأسه.

ما الذي تجاوز الزمن فيه الإسلام؟

([1]) سورة الملك: 15.

([2]) سورة القصص: 77 .

([3]) الأصل أن يصنّع أسلحته بنفسه ولكنا نتكلم عن الواقع!

هذا الطغيان السياسي العالمي الذي تمارسه الدول "العظمى!"، التي تضع في دستورها –كما أشرنا آنفاً– حق هذه الطواغيت في منع العدل أن يجري مجراه، ومنع الحق أن يصل إلى أصحابه بإشارة من أصبعها؟!

حرب الإبادة التي تمارسها الصليبية الصهيونية ضد المسلمين في كل الأرض؟!

عبادة الأوثان المستحدثة التي تتخذ لها أسماء شتى: الوطن. المصلحة القومية. الرأي العام. الرأي العام العالمي. "المودة". الحرية. العلم. الفن..؟!

التهام القيم المادية للكيان الإنساني، واستغراقها لجهده، وشغلها له عن كل قيمة روحية رفيعة؟!

التحلل الخلقي والفوضى الجنسية؟!

الخمر والمخدرات والجريمة؟!

تفكك الأسرة وجنوح الأحداث؟!

هل هذه وأمثالها هي التي تجاوز الزمن فيها الإسلام؟!

إن الذي تجاوزه الزمن هو الإنجاز المادي الذي قام به المسلمون في فترة من حياتهم. وقد تجاوزه الزمن لا لأن هذا هو المدى الأخير الذي يمكن أن يصل إليه المسلمون ثم يتوقفون عنده فيسبقهم الزمن! ولكن لأن المسلمين تخلفوا عن الإسلام فتوقف إنتاجهم المادي والحضاري والعلمي الذي حثهم عليه إسلامهم ووجههم إليه.. وقد كان في إمكانهم لو بقوا على ذات الدرجة من الممارسة الفعلية للإسلام أن يتابعوا إنتاجهم المادي والحضاري العلمي الذي تابعته أوروبا فيما بعد، لأن أدواته كانت في أيديهم، وهم الذين أنشأوها ابتداء في وقت لم تكن الدنيا كلها تعرف عنها شيئاً. فتوقفهم إذن لم يكن لأن هذا هو آخر المدى الذي يمكن أن يوصلهم الإسلام إليه، كما يسبق إلى وهم أصحاب التفسير المادي للتاريخ. ولكن لأن الباعث الأول قد ضعف في النفوس وانقطع إشعاعه لكثرة ما غشّى هذه النفوس من الأمراض والانحرافات.

والأمة الإسلامية مسئولة ولا شك عن كل ما حدث لها بسبب تفريطها في المنهج الرباني الذي أوصلها لما وصلت إليه من رفعة وتمكن وقت أن كانت متمسكة به[1]. ولكنا هنا نريد أن نركز على قضية معينة: أنه ليس الإسلام هو الذي تخلف وتجاوزه الزمن، ولا تمسك المسلمين بالإسلام هو الذي جعلهم يتخلفون. إنما الذي جعلهم يتخلفون هو تخلفهم عن تحقيق الإسلام في الواقع. أما الإسلام ذاته فكيف يتخلف؟!

هل عبادة الله وحده ونبذ الأوثان هو التخلف الذي تجاوزته البشرية؟

هل تحرر الإنسان من الطواغيت، بإلغاء العبودية لها، وتوجيه العبادة كلها لله الحق هو التخلف؟

هل توازن الإنسان بين مطالب جسده ومطالب روحه، بين دنياه وآخرته، بين إيمانه بعالم الغيب ونشاطه في عالم الشهادة هو التخلف؟

هل التقدم في البحث العلمي مع الإيمان بالله هو التخلف؟

هل القيام بالنشاط الحضاري الشامل مع الإيمان بالله واليوم الآخر هو التخلف؟

هل التسامح مع أهل العقائد المخالفة هو التخلف؟

هل منع عبودية البشر للبشر يمنع البشر من التحليل والتحريم بأهوائهم هو التخلف؟

هل محافظة الإسلام على ترابط الأسرة هو التخلف؟

هل نظافة المجتمع من الخمر والمخدرات والجريمة هو التخلف؟

هل طمأنينة القلب وأمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم هو التخلف؟!

إن الغربيين الذين يتحدثون عن الدين بوصفه رجعية وتأخراً وعائقاً عن التقدم والحضارة يتحدثون عن تجربتهم الخاصة مع الدين الكنسي المحرف، ثم يعممونها، كما يفعل الصبية الصغار حين يظنون أن تجربتهم الخاصة هي الحق الوحيد في الكون، ولا يصدقون أن هناك تجربة أخرى أسفرت عن نتائج مخالفة!

([1]) سنتكلم عن هذه النقطة فيما بعد.

وأوروبا لم تعرف دين الله على حقيقته، إنما عرفت ديانة بولس التي زعم لها أنها ديانة المسيح. وهي حرة تقول في دينها ما شاءت، وكثير مما تقوله صحيح بالفعل. أما إطلاق الحكم على الدين كله، بما فيه الدين السماوي الصحيح، فتعنت غير علمي في عصر التبجح بالعلم وبالموضوعية في البحث. وأبسط الأدلة على خطأ تعميم الحكم أن أوروبا –وقت التزامها بدينها– كانت جاهلة متأخرة –باعترافها– حتى إنها تسمي تلك الفترة "القرون الوسطى المظلمة". بينما المسلمون –وقت التزامهم بدينهم– كانوا هم أمة العلم والحضارة في الأرض، باعتراف الأوروبيين أنفسهم. ويكفي هذا فارقاً بين دين ودين، ويكفي هذا دليلاً على خطأ التعميم!

* * *

وَهْمٌ ثالث بشأن أسباب الانحسار، يحتاج إلى المناقشة، لا لأنه خاطئ من أساسه هذه المرة، كالوهمين السابقين، فهو يحمل قدراً من الحق، ولكن لإرجاع الأسباب كلها إليه، أو اعتباره أكبر الأسباب: ذلك هو نسبة أسباب التخلف إلى الدولة العثمانية!

إنه وَهْمٌ غذته الصليبية الصهيونية عند العرب لِتُبغِضهم في الأتراك، ليسهل عليها تفكيك وحدة العالم الإسلامي، ثم ابتلاعه وهو مِزَق متناثرة متنافرة..

وقد حدث التخلف بالفعل في زمن الدولة العثمانية، وهي تحمل نصيبها من المسئولية عنه. أما جعلها هي المسئول الوحيد عن ذلك التخلف، فهو ظلم ناشئ عن البغض الذي قال فيه الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين البغض تبدي المساويا

والله يأمر بغير ذلك:

(وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)[1].

ولنسلم مبدئياً بأن الدولة العثمانية قد دفعها الغرور إلى اعتبار نفسها الدولة العظمى في الأرض، بعد جهود الفاتحين العظام الذين وسعوا نطاق الدولة وأمنوا حدودها وأخضعوا أعداءها ووطدوا أركانها.. فتراخت عزيمتها وأترفت.. والترف –كما أشرنا آنفاً– هو الحمض

(1) سورة المائدة: 8.

الأكّال الذي يأكل الدول والشعوب.. ولم تعد تهتم –كما كانت في بداية عهدها– ببذل الجهد من أجل التمكين، سواء بنشر العلم بين الناس، وتشجيع العلماء، وتشجيع الصناع المهرة، أو العناية بالجيش وإحسان تدريبه وتسليحه، أو النظر في شئون الرعية والاهتمام بمصالحهم.. وأن هذا كله قد انعكس على حياة الناس تواكلاً وانصرافاً عن بذل الجهد وتخلفاً في كثير من الميادين.

ولنسلم كذلك أن هذا الغرور ذاته –أو الغفلة– قد أدى إلى استصغار شأن القوة الأوروبية المتنامية، وعدم الجد في اتخاذ العدة لمواجهتها والتغلب عليها.. اطمئناناً كاذباً إلى أن أوروبا مهما تقوّت فلن تغلب ملك آل عثمان!

ولنسلم أيضاً بأن سوء الإدارة في الأقاليم الإسلامية قد شغل الولاة بأنفسهم عن مصالح الناس، فأسرفوا في فرض الضرائب، ولم يخصصوا شيئاً يذكر من أجل "المرافق العامة" فتأخرت وتضاءلت خدماتها، وانتشر الفقر بين الناس. والفقر أداة التخالف!

وكل ذلك تسأل عنه الدولة العثمانية التي ولاّها الله أمر المسلمين..

ولكن هل هذه هي الأسباب الوحيدة للتخلف؟

هل الدولة العثمانية هي التي أنشأت الفكر الإرجائي وبثته في نفوس الناس فتفلتوا من العمل مطمئنين إلى أنهم مؤمنون بالتصديق والإقرار ولو لم يعملوا عملاً واحداً من أعمال الإسلام؟! أم جاءت الدولة العثمانية وهذا المرض مستشر في النفوس؟

هل الدولة العثمانية هي التي أنشأت الصوفية؟

نقول إن الدولة العثمانية قد شجعت الصوفية ولا شك، ورسختها في ربوع العالم الإسلامي باعتناق حكامها وعلمائها لها. ولكن من التجاوز أن نقول إنهم هم الذين أدخلوه ابتداء، فقد نشأت وترعرعت في ظل الحكم العباسي. بل الأحرى أن نقول إن الأتراك أنفسهم قد ابتلوا بها عند دخولهم في الإسلام لأنها كانت هي الصورة الشعبية عندئذ للإسلام! فإن كانوا هم قد زادوها رسوخاً حتى شاعت في زمنهم قولة "من لا شيخ له فشيخه الشيطان!" فقد كان هذا اعتقاداً منهم أنهم بذلك يخدمون الإسلام!!

وهل الدولة العثمانية هي التي أنشأت الاستبداد السياسي الذي يصرف الناس عن متابعة أعمال الحاكم وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ويجعلهم ينصرفون إلى خاصة أنفسهم، ويركزون على الشعائر التعبدية على أنها هي "الدين" المطلوب منهم في الحياة الدنيا؟!

إن الدولة العثمانية تحمل نصيبها من هذا الأمر ولا شك، ولكن هل تحمل هي وزر الأمويين ووزر العباسيين ووزر المماليك إلى جانب وزرها؟ أم يحمل الوزر الأكبر في ذلك من سن السنة السيئة في بادئ الأمر؟!

ولنفترض أن الدولة قصرت في تشجيع التعليم[1]، فهل هذا يعفي بقية الناس من تبعة تقصيرهم؟ لقد كانت للأزهر أوقافه الخاصة التي تغنيه عن طلب المعونة من الدولة، فهل الدولة العثمانية هي التي دعته إلى إهمال العلوم الكونية واعتبار دراستها خروجاً على أوامر الدين، والاكتفاء بالعلوم الشرعية وحدها، بينما الغزالي –قبل ذلك بقرون– يعتبر العلوم الكونية فرض كفاية، تأثم الأمة كلها إذا لم يقم بها القادرون منها؟!

وحين تحول الدين عند كثير من الناس إلى تقاليد خاوية من الروح فهل كان هذا في قطر دون قطر من أقطار العالم الإسلامي؟!

الحق أن الدولة العثمانية في عهدها الأخير –بعد انقضاء عهد الفاتحين العظام– كانت جزءاً من المجتمع الإسلامي يحمل كل أمراضه! ومسئولية الدولة العثمانية أنها –وقد ولاها الله أمر المسلمين– كان المفروض فيها أن تعالج أمراض المجتمع وتصحح أوضاعه، فلم تقم بذلك، أو لم تقم به على الوجه المرضي. ولكن لابد أن نسجل –للحق– أن المجتمع كان يحمل أمراضه من قبل، وأن أمراضه ظلت تتزايد حتى أوردته المهالك، وأنه مسئول أمام الله عن عدم علاجه لأمراضه، ولا يستطيع أن يلقى المسئولية على الدولة العثمانية ويخلي نفسه منها، فكل المسلمين مسئولون عن هذا الدين: حكامهم وعلماؤهم وعامتهم، على اختلاف في الدرجات..

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)[2].

لقد كان المجتمع كله قد أخذ يغفو، ثم راح في سبات عميق!

* * *

([1]) الحقيقة أن السلاطين الأوائل بذلوا جهداً واضحاً في نشر التعليم، وأنفقوا على مؤسساته بسخاء، ولكن عزيمة الحكام تراخت بعد ذلك حين اطمأنوا إلى قوة الدولة ورسوخ أركانها.

([2])سورة القيامة: 14-15.

أما الآثار التي ترتبت على ذلك التخلف –التخلف عن حقيقة الإسلام- فقد كانت سيئة إلى أبعد الحدود.

وغني عن البيان أن الفترة التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم هي أسوأ ما مر بها في تاريخها كله..

لقد مرت بالأمة الإسلامية أزمات كثيرة من قبل ونكسات كثيرة، ولكن بنيتها كانت أقوى فاحتملت الصدمات واستطاعت أن تسترد قدرتها على المقاومة، بل قدرتها على الصمود، بل قدرتها على الانطلاق بعد الصدمة كأن لم يصبها شيء! وانظر على سبيل المثال أزمة الردة أيام أبي بكر –رضي الله عنه- وأزمة التتار.. وأزمة سقوط الأندلس في قبضة الصليبيين والقضاء على الإسلام هناك.

إنها أزمات حادة كما ترى.. ولكن انظر كيف انطلقت الأمة بعد كل منها كأنما لم تصب من جرائها بأذى! ولقد كانت نكبة الأندلس بصفة خاصة شديدة الوقع على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، فقد كانت أول مرة يطرد الإسلام فيها من أرض عاش فيها وحكمها بضعة قرون.. ولكن الأسى المر الذي أصاب المسلمين من ضياع الأندلس عام 1492م لم يتلبث كثيراً في نفوسهم، ولم يوهن عزائمهم، لأن الدولة العثمانية الفتية كانت قد استولت على القسطنطينية قبل ذلك بفترة وجيزة (1453م) وبدأت تدق أبواب أوروبا من الشرق، فتتفتح الأبواب ويتدفق المد الإسلامي إلى داخل أوروبا..

أما الأزمة الأخيرة فقد جاءت وجسم الأمة فاتر من كثرة الأوجاع والأمراض، فلم يقدر على المقاومة إلا مقاومة عابرة.. ثم استسلم للأمر الواقع، وتخلى عن المحاولة، فسهل على أعدائه أن يجهزوا على ما بقى فيه من آثار الحياة! وصار واقع الأمة اليوم إلى حالة لم تبلغها في تاريخها كله، واستخف العالم بها حتى صار وضعها كما قال الشاعر القديم يهجو قبيلة تيم:

ويُقضى الأمر حين تغيب تَيم ... ولا يستأذنون وهم شهود!

لقد كانت أشد فترات الذل التي مرت بالمسلمين –بعض المسلمين- هي فترة مذبحة بغداد على يد التتار. حين كان التتري يقول للمسلم إذا لقيه في أحد شوارع بغداد: انتظر حتى آتي بالسيف لأقتلك، فينتظر المسلم بالفعل حتى يأتي التتري بسيفه ويقتله! أما اليوم فالهوان أنكى! تقول الصليبية الصهيونية للعالم الإسلامي بأسره: انتظر حتى أقطع أوصالك.. فينتظر بالفعل، وتأتي الصليبية الصهيونية فتقطع أوصاله وهو ساكن لا يتحرك! تقول له

سنأخذ منك فلسطين.. فينتظر حتى تؤخذ فلسطين ولا يتحرك! تقول له ستقيم على الأرض الإسلامية حكومات غير إسلامية.. فينتظر حتى تقوم على أرضه حكومات غير إسلامية تذبح المسلمين وتشردهم وتنكل بهم، ولا يتحرك!

بل الأنكى من ذلك أن يتم كثير من ذلك الهوان على أيدي أناس يحملون أسماء إسلامية، تنيبهم عنها الصليبية الصهيونية في تقتيل المسلمين وتشريدهم، وإبعادهم عن الإسلام، وتمريغ أنوفهم في الوحل.. ويحدث ذلك لأول مرة في تاريخ الإسلام!

ولنتتبع الأمر من مبدئه.. لنتعرف على الخطوات التي وصل بها الأمر إلى ما وصل إليه.

* * *

حين سقطت آخر دويلة إسلامية في الأندلس عام 1492م أصدر البابا قراراً بتقسيم أرض الكفار(!) –أي المسلمين– إلى دولتين: أسبانيا والبرتغال. وأمرهما بمتابعة المسلمين خارج الأندلس وملاحقتهم للقضاء عليهم. وكانت البرتغال أول من صدع بالأمر، فبدأت الرحلات "الاستكشافية!". التي كان هدفها التعرف على العالم داخله.. وكانت أول تلك الرحلات رحلة فاسكودا جاما عام 1517م أي بعد ربع قرن من سقوط غرناطة (علماً بأن حركة القضاء على الإسلام في الأندلس ذاتها، وتتبع المسلمين الذين كانوا قد تنصروا ظاهراً فراراً من التعذيب الوحشي الذي تستخدمه محاكم التفتيش، قد استغرقت قرنين كاملين من الزمان، وانتهت بالقضاء الكامل على الإسلام، ونسيان الناس أصولهم الإسلامية تماماً)[1].

وعلى ضوء الخرائط الإسلامية تعرفت أوروبا على العالم الإسلامي! فقد كانت أوروبا من قبل قابعة داخل حدودها، ولكن الحافز الصليبي الذي بثه البابا في نفوس النصارى ألهب خطاهم، فراحوا يتلمسون الطريق لتحقيق أهدافه. وكان البرتغاليون أول من وضع أقدامه في الأرض الإسلامية، ثم تبعهم غيرهم من الأوروبيين تباعاً، وتسابقت أوروبا وتنافست في الغزو، حتى إذا كان القرن التاسع عشر الميلادي كان كل من هب ودب من دول أوربا يملك "مستعمرات" في العالم الإسلامي، ولم يكن قد بقى من أرض الإسلام لم تدنسه أقدام الصليبيين إلا تركيا ذاتها وأجزاء من الجزيرة العربية..

([1]) في أسبانيا اليوم حركة تحاول التعرف على أصولها الإسلامية المنسية، والعودة إلى اعتناق الإسلام من جديد.

ولقد قاومت كل البلاد الإسلامية الغزاة الذين غزوا أرضها. ولكن نتيجة المعركة كانت محسومة سلفاً... فلم يكن في يد المسلمين من القوة ما يدفعون به السيل الجارف من العدوان..

وهنا وقفة نسأل فيها: من المسئول عن تلك الهزيمة؟!

لا أحد يستطيع أن يتنصل من المسئولية! لا الحكام ولا العلماء ولا مجموع الأمة!

إن اليهود والنصارى –والمشركين عامة– هم الأعداء الطبيعيون لهذه الأمة. ولم يكن يتوقع منهم حين يرون المسلمين قد ضعفوا وغفلوا عن مكانتهم أن يربتوا على أكتافهم، ويقولوا لهم: هلموا! قوموا من غفلتكم وعودوا إلى قوتكم! بل كان الشيء الوحيد المتوقع منهم أن يهتبلوا الفرصة السانحة ويهجموا على "الرجل المريض" ليجهزوا عليه في غيبوبته قبل أن يفيق!

ولقد علّمنا ربنا عن عداوتهم، وسعيهم الدائم إلى محاولة زحزحة الأمة الإسلامية عن دينها:

(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[1].

(وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ)[2].

فحين نغفل نحن عن ديننا، وعن أوامر ربنا، فهل نقول: فعل الصليبيون وفعل الصهيونيون..؟!

إننا نقول –بحق– إنهم مجرمون.

فليس ضعف أي أمة مبرراً لهجوم الأمة القوية عليها وافتراسها، فإنما يحدث هذا في عالم الوحوش لا في عالم البشر الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلق. والأمة الإسلامية – تلك الأمة الفريدة في التاريخ بما علمها ربها وأدّبها– لم تكن تغزو الأمم لأنها ضعيفة! فقد كانت تقارع القوى العظمى وهي في عنفوان قوتها. ولم تكن تغزو بلداً بهدف إذلالة ونهب خيراته! إنما كانت –بأمر ربها– تغزو من تغزو لأنهم كفار متمردون على أمر الله، فيأتي جند

([1]) سورة البقرة: 120.

([2]) سورة البقرة: 217.

الله لا لإرغامهم على الخضوع لهم، وإنما ليعرضوا عليهم الإسلام لله، فإن ارتدوا عن غيهم وأسلموا فقد انتهت الخصومة تماماً وصاروا إخوة في الدين. ذلك أن الخصومة لم تكن شخصية، ولم تكن لدوافع أرضية، ولم تكن لحساب أحد من البشر، إنما كانت لله وفي الله. فإن لم يسلموا فليعلنوا على الأقل أنهم لا يصرون على إعلان تمردهم على الله، ورمز ذلك أن يؤدوا الجزية لجند الله المكلفين بالأمر. فإن لم يكن إسلام ولا جزية فهناك يحق القتال، وبشروطه الرفيعة التي أمر بها الله ورسوله.

واليهود والنصارى والمشركون لا يسلكون هذا السلوك لأنهم لم يتأدبوا بالأدب الرباني، ولم يتذوقوا تلك المعاني الرفيعة التي لا يعرفها إلا عباد الرحمن.

لذلك نقول –بحق– إنهم مجرمون. وإنهم غادرون. وإنهم لا ضمائر لهم. وإن فيهم خسة. وإنهم كالوحوش المفترسة. ولكن هذا كله لا يعفي الامة الإسلامية من مسئوليتها. فقد أعلمهم ربهم بذلك كله، وقال لهم إنهم (لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)[1] أي أن العدوان من طبعهم، والغدر من طبعهم. والإجرام من طبعهم..

بل وعد الله المؤمنين –فوق إعلامهم بأمر أعدائهم– أنهم إن استقاموا على طريقه، فصبروا واتقوا، فلن يضرهم كيد الأعداء شيئاً:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)[2].

ولكن الصبر والتقوى كان قد فسد مفهومهما في نفوس المسلمين المتأخرين كما فسدت في نفوسهم بقية المفاهيم.

فما الصبر المطلوب وما التقوى؟

إنهما قوتان إيجابيتان هائلتان، جعل الله فيهما الحاجز المنيع الذي يحجب كيد الأعداء ويره إلى نحورهم.

الأعداء يريدون –كما علّم الله الأمة– أن يردوها عن دينها إن استطاعوا. فالصبر المطلوب إذن هو الصبر على هذا الدين وتكاليفه، ومنها إعداد القوة التي ترهب عدو الله وعدو المسلمين:

([1]) سورة التوبة: 10.

([2]) سورة آل عمران: 120.

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ)[1].

والتقوى المطلوبة هي اتقاء سخط الله وغضبه، ولا يكون ذلك إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه. ومن أوامره إقامة الدين على حقيقته، وإخلاص العبادة لله:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)[2].

(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً)[3].

ومن أوامره إقامة العدل بين الناس:

(وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ)[4].

ومن أوامره الوحدة وعدم التفرق:

(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ)[5].

ومن أوامره.. ومن أوامره.. ومن أوامره..

وحين يقوم الصبر والتقوى كما أرادهما الله فمن أين ينفذ العدو إلى هذا الدين؟!

كذلك فهمت الأجيال الأولى أوامر الله وتوجيهاته..

إن هذا الدين هو خير الدنيا والآخرة كما أخبر الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم– ولكن هذا الخير لا يتحقق بمجرد التصديق والإقرار كما أوحي الفكر الإرجائي للمسلمين في عهودهم الأخيرة. بل لا بد من جهد يبذل. وبغير هذا الجهد لا يتحقق شيء.

---

(1) سورة الأنفال: 60.

(2) سورة الروم: 30.

(3) سورة النساء: 36.

(4) سورة النساء: 58.

(5) سورة آل عمران: 103.

إن دين الله ليس فيه أزرار سحرية يُضْغَط عليها فتحل مشكلات البشر تلقائياً! إنما الجهد المبذول من البشر، ومقدار هذا الجهد، هو الذي يتوقف عليه حل مشكلاتهم وإقامة حياتهم على أسس سليمة. فإذا عنّ لسائل أن يسأل: ما الفائدة إذن من اتخاذ دين الله منهجاً للحياة إذا كانت الثمرة لا تأتي إلا بالجهد المبذول؟ وما الفرق بين دين الله وأديان الجاهلية إذا كان الجهد في الحالين هو الذي يجعل الثمرة تثمر؟! فالرد على ذلك أن الفرق كامن في نوع الثمرة لا في الجهد المبذول لإخراجها. فالثمرة الطيبة كالثمرة الخبيثة، تحتاج إلى تهيئة الأرض، واستنبات البذرة، ومداومة رعايتها بالري والتغذية حتى تثمر. ولكن شتان بين هذه الثمرة وتلك. إحداهما –بعد الجهد الذي يبذل فيها– سامة، وإن بدت حلوة المذاق، والأخرى طيبة النكهة طيبة الغذاء.

والمنهج الرباني مثله كمثل البذرة التي تبذر في الأرض. هو في حاجة إلى ذات الجهد المبذول في أي نظام آخر، في تربية الناس على مفاهيمه، وتعهدهم لكي لا ينحرفوا عنها، وبذل الجهد في مقاومة آفات النفس التي تؤدي إلى الانحراف. ثم في النهاية –بعد الجهد المبذول– يكون لدينا نظام متفرد في كل شيء. فهو وحده الذي يضمن للناس الجنة في الآخرة. وهو أعدل نظام وأشمل نظام يمكن أن يطبقه البشر في حياتهم الدنيا، يمنحهم الحرية الحقيقية والكرامة الحقيقية، والأمن والطمأنينة والبركة والاستقرار.

والمسلمون الأوائل رضي الله عنهم فهموا هذا الأمر جيداً من كلام الله ومن توجيهات الرسول –صلى الله عليه وسلم–:

(وَقُلِ اعْمَلُواْ..)[1].

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)[2].

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ..)[3].

وعلموا أن هذا الدين لا يؤتي ثماره بمجرد أن تؤمن قلوبهم أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، أو أن ينطقوا بالشهادتين بألسنتهم.. إنما بأن يعملوا بمقتضيات لا إله إلا الله فيحولوها إلى حقيقة واقعة. ومقتضيات لا إله إلا الله هي الدين كله الذي أنزله الله على

(1) سورة التوبة: 105.

(2) سورة الرعد: 29.

(3) سورة الأنعام: 132.

عباده.. وبمقدار ما يعملون بمقتضياتها تكون مكانتهم في الدنيا والآخرة. وبمقدار ما ينكلون عن العمل بمقتضياتها تتزلزل مكانتهم في الدنيا والآخرة.. ومن هنا كان جهدهم وجهادهم، لا نافلة يتنفلون بها، ولكن واقعاً حياً يعيشونه ليحققوا هذا الدين في عالم الواقع:

(لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[1].

وكان شغلهم الشاغل أن ينالوا البر، لا أن يقفوا يتفرجون على العاملين! أو يتمنوا على الله الأماني وهم قاعدون، لأن الله قال لهم:

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً، وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً)[2].

فلما نسوا هذه المعاني كلها، فما الذي كان ينتظرهم –والوحوش المتربصة حولهم– إلا الهوان والذل والضياع؟!

"يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"[3].

وهذا الذي كان..

* * *

([1]) سورة البقرة: 177.

([2]) سورة النساء: 123-124.

([3]) أخرجه أحمد وأبو داود.

استغرق غزو العالم الإسلامي ثلاثة قرون أو أكثر حتى تم إخضاعه للنفوذ الصليبي الصهيوني. ولكن الغزو الصليبي الصهيوني جاء هذه المرة بأداة مستحدثة من أدوات الغزو، ليمكّن لنفسه أطول مدة ممكنة، وليحاول القضاء الأخير على الإسلام.

لم يجيء –كما جاءت الحروب الصليبية الأولى– بالسلاح وحده.

فقد كان لويس التاسع الذي أسر في الحروب الصليبية الأولى وقضى فترة في الأسر في سجن المنصورة بمصر حتى افتداه قومه، كان قد نصحهم بألا يعتمدوا على السلاح وحده في قتال المسلمين، إنما يحاولوا أن يهاجموهم في مكمن قوتهم: في عقيدتهم! وعندئذ يتمكنون منهم!

واستمع الصليبيون الجدد إلى النصيحة ونفذوها كاملة، يغريهم ولا شك ما رأوه من مظاهر الخلل في حياة المسلمين، وهم الذين يرقبونهم بدقة منذ وجههم البابا إلى تتبعهم ومطاردتهم خارج الأندلس.

أغراهم ما رأوه في حياة المسلمين من تخلف عن حقيقة الإسلام..

وإنهم لمن أخبر الناس بهذه الحقيقة:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ)[1].

يعرفون جيداً كيف كانت أحوال المسلمين الذين اكتسحوا الإمبراطورية الرومانية من طريقهم، والذين امتد عالمهم في أقل من نصف قرن من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً، ثم إلى ما وراء ذلك فيما بعد..

ويعرفون جيداً كيف كانت أحوال المسلمين الذين هزموهم في الحروب الصليبية.. وكيف كان صلاح الدين ومن حوله من جند الإسلام..

ثم يعرفون أخيراً كيف خيّم الجهل والضعف والتواكل والخرافة مكان العلم والقوة والعزيمة والإيجابية الواقعية..

([1]) سورة البقرة: 146.

جاءوا ومعهم ما صار يطلق عليه اصطلاحاً اسم "الغزو الفكري".. وهدفه اقتلاع الإسلام من قلوب المسلمين، أو كما عرّفه الأب زويمر[1] "صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام".

واتخذوا لذلك وسائل عدة..

وركزوا –بادئ ذي بدء– على نقطتين رئيسيتين في العالم الإسلامي، لأسباب واضحة: اسطنبول والقاهرة.

اسطنبول لأنها مركز الخلافة، مركز القوة السياسية والعسكرية؛ والقاهرة لأنها مركز الأزهر، مركز العلم والثقافة الروحية في العالم الإسلامي. واشتد ضغطهم على هاتين النقطتين بالذات، لأنه لا فائدة ترجى من كل مخططاتهم إذا بقى للمسلمين دولة تهيمن على شئونهم ويتوجهون بالولاء السياسي والقلبي لها، ومركز روحي وثقافي يفيئون إليه ويتفقهون فيه في أمر دينهم..

ودراسة هذه الفترة برؤية إسلامية صحيحة من ألزم اللوازم للمسلم المعاصر، لأن معظم ما كتب له عنها هو ذاته جزء من الغزو الفكري الذي قصد به تحويله عن إسلامه، وعن رؤيته للأمور من زاوية الرصد الإسلامية، ليتقبل ما أريد له من الابتعاد عن الإسلام في الفكر والتصورات والسلوك سواء، وليصبح بعد ذلك مستعبداً للغرب، يوحي له الغرب ما يشاء فيصدقه، ويوحي إليه ما يشاء فيفعله، وهو كالدابة التي تدور مغمضة العينين في الطاحون وهي تظن أنها تسير في خط مستقيم! وتطحن الغلال للسيد الذي يسخرها، بينما تكتفي هي بما يقدم لها السيد من الأعلاف!

فأما تركيا فقد بدأت فرنسا التحرك الصليبي تجاهها بما دسّته على سليمان "القانوني"[2] من إعفاء رعاياها في الدولة العثمانية من الخضوع لأحكام الشريعة الإسلامية! ومعاملتهم على أساس القانون الفرنسي فيما عرف باسم "الامتيازات الأجنبية"، وتلتها بقية الدول الأوربية فطلبت نفس الطلب وأجيبت إليه! فأصبح رعايا كل دولة يعاملون بمقتضى قوانين بلادهم، وبتدخل القناصل لحمايتهم، فيعيثون في الأرض فساداً، ويتخذون وسائل للهو والإفساد وهم آمنون! حتى أصبحوا دولة داخل الدولة، وأصبح لهم من النفوذ ما يحركون به

(1) منصّر بروتستنتي عاش في البلاد العربية فترة مديدة، وكان من أشد المنصرين حقداً على الإسلام.

(2) هم الذين أطلقوا عليه لقب "القانوني" لإغرائه بمزيد من مخالفة أحكام الشريعة!

الأمور في الدولة لصالحهم سراً وعلانية، وصار لليهود والنصارى موضع قدم في الداخل، يطلقون منه سهامهم المسمومة ضد الإسلام.

كما عمدت الصليبية الصهيونية إلى المناوشة الدائمة للدولة حتى لا تجد وقتا للاستقرار. ما تكاد تقضي على تمرد حتى تفاجأ بتمرد في مكان آخر. وتكفلت بالذات روسيا وفرنسا وبريطانيا بإثارة الأقليات الدينية، الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانية –كل فيما يخصه– كما تكلفوا بإثارة دول البلقان ضد الحكم الإسلامي، وإثارة "العرب" ضد "الأتراك".

وكان الهدف واضحاً وهو تفتيت الدولة وتوهين قواها ليتغلبوا عليها ويمزقوا أوصالها، وينفذوا ما عجزوا عن تنفيذه بضعة قرون في وقت قوة الدولة وسطوتها.

وفي نهاية الأمر استطاعوا بطبيعة الحال أن ينفذوا مخططهم كله، وكانت الحلقات الأخيرة من المخطط هي أخبثها وأجرأها وأشدها فاعلية، فقد كانت المناوشات الدائمة قد أنهكت قوى الدولة، فتجرأت عصابات اليهود والنصارى على العمل المكشوف، وتحركت فرق اليهود المتمسلمين (يهود الدونما) لبث دعاوى القومية الطورانية –قومية الأتراك الأولى قبل أن يدخلوا في الإسلام– والدعوة إلى تتريك الدولة. وكان هذا العمل مقصوداً به إثارة العرب بالذات، وتولى إثارتهم –بتأييد بريطانيا وفرنسا– نصارى سوريا ولبنان، فتنادوا بالقومية العربية يخفون تحت ستارها العمل ضد الإسلام، ويستدرجون إليها المستغفلين من المسلمين على أساس أن العروبة صنو الإسلام، وأن العرب هم الذين حملوا لواء الإسلام خلال التاريخ، فلا حرج عليهم أن يكونوا عرباً ومسلمين!

وحين كثر المستغفلون وعلى رأسهم الشريف حسين[1]، أُعْلِنَت "الثورة العربية الكبرى" يتولاها الشريف حسين في الظاهر، ويحركها "لورنس"[2] في الحقيقة، ويقود جيشها لورد "أللنبي" الذي قال قولته الشهيرة حين دخل القدس عام 1917م: "الآن انتهت الحروب الصليبية"! والذي كتب في مذكراته يقول: لولا معاونة الجيش "العربي" ما استطعنا التغلب على تركيا!!

([1]) قال الشريف حسين في نهاية الأمر حين خرج من العملية كلها صفر اليدين: لقد خدعني الإنجليز!!" فقد كانوا قد منوه –مقابل مساعدتهم ضد الدولة العثمانية– بأن ينصبوه خليفة للمسلمين وحاكماً على كل العرب!

([2]) عاش لورنس بين العرب وأتقن لهجاتهم حتى صار "منهم" كانوا يدعونه "لورنس العرب!!".

ومن "طرائف" الحرب الصليبية أن ألمانيا كانت حليفة لتركيا في الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء الغربيين، ولكن لما سقطت القدس في يد الصليبيين الغربيين أقيمت الاحتفالات في ألمانيا ابتهاجاً بذلك "النصر"! حتى اضطرت تركيا إلى تنبيه حليفتها أن هذه الاحتفالات لا تتفق مع روح التحالف القائم بينهما! وعندئذ أصدرت ألمانيا أمرها بعدم الإسراف في إظهار الفرح مراعاة لمشاعر المسلمين[1]!!

وكانت أجرأ أعمالهم في الحلقات الأخيرة عزل السلطان عبد الحميد بعد أن أعياهم أن يحصلوا منه على وعد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، رغم كل "الرشاوي" التي قدموها له –سواء للدولة أو لجيبه الخاص– مما يرضي أطماع أي حاكم يطلب الدنيا ومغرياتها كما كانوا يصورون السلطان عبد الحميد[2]!

ثم كان تنصيب أتاتورك حاكماً على تركيا، وإلغاء الإسلام علانية وتذبيح المسلمين بعشرات الألوف وإلغاؤ الأذان باللغة العربية، وإلغاء الكتابة بالحروف العربية لقطع الأجيال الحديثة من الأتراك عن تراثهم الإسلامي كله!

ثم كان إقامة الدولة اليهودية في فلسطين بعد أن مهدوا لها هذا التمهيد الطويل كله، وتأييد الصليبية العالمية لاغتصاب قطعة من الوطن الإسلامي –جهرة– وإعطائها لليهود[3]!

([1]) انظر رسالة دكتوراه بعنوان "محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية" لعيسى بوجاآر، جامعة أم القرى عام 1411هـ.

([2]) لم تسوء سمعة أحد من السلاطين كما شوهت سمعة السلطان عبد الحميد، والسبب الحقيقي في الدعاية ضده هو رفضه إعطاء اليهود وطناً قومياً لهم في فلسطين.

([3]) الواقع أن إسرائيل لم تكن عملاً صهيونياً بحتاً كما يخيل للإنسان لأول وهلة. فلولا التأييد الصليبي ما قامت ولا استطاعت أن تعيش، فضلاً عن أن تتوسع، وتقتطع في كل حين قطعة جديدة من الوطن الإسلامي. ولكي يدرك الإنسان إن إقامتها في فلسطين الإسلامية كان مؤامرة صليبية –بالإضافة إلى كونها صهيونية– فليرجع إلى تقرير لورد كامبل الذي أصدره سنة 1907م وقال فيه: إن هناك شعباً واحداً متصلاً يسكن من المحيط إلى الخليج (يقصد المنطقة العربية من العالم الإسلامي) أرضه متصلة، ودينه واحد، وماضيه مشترك، وآماله مشتركة وهو الآن في قبضة أيدينا ولكنه أخذ يتململ. فماذا يكون حالنا غداً إذا استيقظ العملاق؟! ثم ذكر الحل: لا بد لنا من إقامة دولة دخيلة تقطع اتصال هذا الشعب، تكون صديقة لنا وعدوة لأهل المنطقة. وتكون بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد أن ينهض! وتلك هي إسرائيل! راجع تقرير لورد كامبل من إصدارات الجامعة العربية بالقاهرة..

أما في مصر فقد تحركت فرنسا بادئ ذي بدء حركتها الصليبية- فيما يعرف باسم الحملة الفرنسية على مصر –عام 1798م بهدف اقتطاع مصر عن الإسلام والعروبة معاً، وإثارة النعرة الفرعونية فيها، لينقطع تأثيرها الإسلامي على العالم الإسلامي كله عن طريق الأزهر، الذي يؤمه الطلاب من كل أرجاء العالم الإسلامي، فيتعلمون فيه اللغة العربية والدين..

ولما فشلت الحملة الفرنسية في البقاء في مصر بسبب الثورات المتتالية، والمقاومة المسلحة، ومناوشة الإنجليز لها، جاء محمد علي فاحتضنته فرنسا ونفذت عن طريقه كل ما أرادت من قبل تنفيذه[1].

ثم جاء الإنجليز عام 1882م فاحتلوا مصر ونفذوا المخطط الصليبي الصهيوني بأكمله على خطوات بطيئة أكيدة المفعول على طريقة الإنجليزSlow but Sure، ففتحوا مدارس علمانية أو شبه علمانية ليقضوا بها على التعليم الديني الذي كان سائداً قبل ذلك، وفتحوا المجال أمام خريجي هذه المدارس ليحتلوا مكانة بارزة في المجتمع، ويحولوه من الداخل عن وجهته الإسلامية، بينما سُدّ الطريق أمام خريجي الأزهر، فلا يحتلون وظائف التوجيه، بل يكادون لا يجدون عملاً على الإطلاق، فيكونون طبقة مهملة منزوية لا تأثير لها في سير الأحداث. ثم جاءوا بصحفيين لبنانيين مارونيين، فأنشأوا دوراً صحفية علمانية مستترة في علمانيتها في بادئ الأمر ثم علنية بعد ذلك، مهمتها توجيه القلوب والأفكار إلى أوروبا و"الحضارة الأوروبية"! وشجعوا "المسرح" ليعرض على الناس ما يخالف تقاليدهم الإسلامية التي يعيشون عليها، ويهيء نفوسهم لتقبل تقاليد غربية عليهم تخرجهم –بالتدريج- من الإسلام، ثم أخرجوا المرأة من بيتها –بدعوى تعليمها وتحريرها –فأفسدوا أخلاقها، وأفسدوا أخلاق الشباب معها. ونحّو الشريعة الإسلامية عن الحكم واستبدلوا بها القوانين الوضعية، وأباحوا الخمر والفاحشة، وأداروا المعاملات المالية بالربا، وأخرجوا "زعماء" في كل اتجاه: في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب والفكر و"الفن" يزينون ذلك كله للناس، ويعرضونه على أنه التقدم والرقي.. وباختصار فعلوا كل ما يمكن أن يقطع صلة الشعب المسلم بإسلامه، ويسخّره للغرب كالعبيد[2].

([1]) راجع إن شئت "دور محمد علي" في فصل "آثار الانحراف" من كتاب "واقعنا المعاصر".

([2]) في كتاب "واقعنا المعاصر" تفصيل لما فعله الإنجليز في مصر لمن شاء أن يرجع إليه. وفي كل مكان في العالم الإسلامي كان هناك مخطط مشابه.

وأُوحِي للمسلم المعاصر أن هذا كله كان ضرورة "لإنقاذ" العالم الإسلامي من التخلف، ودفعه في تيار الحضارة! وأنه لم يكن أمام العالم الإسلامي إلا أحد خيارين: أن يستمر في تخلفه في ظل الحكم الإسلامي العثماني، أو أن ينفض عنه التخلف –والحكم الإسلامي العثماني– ويسير في تيار الغرب ليحصل على المدنية وينقذ نفسه من "الدمار"!!

واستُغِلت في ذلك مجموعة من الحقائق، أضيف إليها أضعافها من الأباطيل!

قيل للناس إن الشعب العربي كان مظلوماً في ظل الحكم التركي ولا بد من تحريره من الظلم. ووقوع المظالم على العرب من الحكم التركي كان حقيقة. ولكن علاجها لم يكن التخلص من الإسلام!

وقيل إن المرأة كانت مظلومة ولا بد من تحريرها من الظلم. ووقوع المظالم على المرأة كان حقيقة، ولكن علاجها لم يكن إخراجها من الإسلام!

وقيل إن التخلف أصاب العالم الإسلامي في ظل الحكم العثماني، ولا بد من التخلص من ذلك التخلف. ووقوع التخلف في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني كان حقيقة – بصرف النظر عن انفراد الحكم العثماني بتبعته، أم اشتراك الأمة الإسلامية كلها فيه –ولكن علاجه لم يكن في العبودية للغرب والانسلاخ من الإسلام!

وهكذا كثير من "الحقائق" التي بسطت أمام المسلم المعاصر لإقناعه بالتخلي عن الإسلام..

لقد أخفي عن المسلم المعاصر البديل الثالث، الذي كان قميناً وحده بإنقاذه.. وهو الإصلاح بالإسلام!

لقد كانت كل أمراض العالم الإسلامي ناشئة من بعده عن حقيقة الإسلام، وممارسته خليطاً من الأوهام والبدع والخرافات باسم الإسلام! وكان العلاج من كل الأمراض هو العودة إلى تلك الحقيقة الغائبة.. حقيقة الإسلام! ولكن هذا الحل بالذات كان أشد ما يُفْزِع الصليبية العالمية والصهيونية العالمية. فسعت إلى إقصائه عن أذهان المسلمين إقصاء كاملاً، بل تنفيرهم منه! ووضعتهم أمام هذا الخيار الصعب: إما أن يظلوا مسلمين، فيظلوا متخلفين، وإما أن ينسلخوا من إسلامهم ويتبعوا أوربا فيصبحوا متحضرين متقدمين!

وكان الخيار على هذه الصورة صعباً أمام المسلمين. ولكن رويداً رويداً تكونت داخل الأمة الإسلامية طبقة تُنْعَتُ بأنها "الطبقة المثقفة"، تربّتْ على الغزو الفكري، ونادت بما

تريده الصليبية الصهيونية من الانسلاخ من الإسلام واتباع الغرب.. فسهل انزلاق الأمة في تيار التغريب لما أصبح النداء بلغة الأمة، وعلى لسان فريق من أبنائها، أضفيت عليهم البطولات ليصبحوا "مصلحين"! أو ليصبحوا "زعماء الإصلاح"[1]!

وفي ظل التغريب الذي ناى به "زعماء الإصلاح" انزلقت الأمة خطوة خطوة عن ينها، وأخلاقها، وتقاليدها، وانبهمت شخصيتها وتميعت، وصارت ذلك الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولم تستطع في الوقت ذاته أن تكتسب إيجابيات الغرب التي أشرنا إليها آنفاً لأنها تمثل "جهداً" لا بد أن يبذل.. والعبد لا يبذل الجهد إلا بأمر سيده، فإذا ترك لذات نفسه ترهل وتميع، وقعد وانحط.. ولكن "السيد" كان أبعد ما يكون عن أن يوحي لعبده أن يبذل الجهد الحقيقي الذي يكسبه إيجابية تخرجه من تخلفه.. فالتخلف مطلوب بذاته لمصلحة السيد، ليتمتع بالسيطرة وحده، ويقود العبد إلى حيث يريد هو لا حيث يرغب العبد.. وصحيح أن التخلف لم يكن من صنع السيد، بل كان من تفريط الأمة في إسلامها، ولكن السيد استغله لصالح نفسه، وحرص على إبقائه والزيادة فيه، مع إغراء العبد في الوقت ذاته أن يلبس ملابس السيد، ويرطن بلغته، ويرقص مثله ويشرب الخمر ويرتكب الموبقات، ليتوهم أنه أصبح مثل السيد في "كل شيء"! وينزلق أكثر في طريق الانحدار..

وهذا هو "الجو" الذي أنشئت فيه إسرائيل!

ولا ننسى هنا نقطة هامة في تاريخنا المعاصر، تخفي كثيراً على المسلم المعاصر الذي يقرأ تاريخه على ضوء "زعماء الإصلاح"! وينبغي أن نركز عليها كثيراً ونحن نعيد كتابة التاريخ.. فهذه الفترة بالذات من تاريخنا ربما كانت أحوج الفترات جميعاً إلى إعادة كتابتها لشدة ما شوهت بالغزو الفكري، وكتابات المستشرقين وتلاميذهم من "المستغربين".

لقد ثار "المسلمون" على الاحتلال الأجنبي بما بقى في نفوسهم من بقايا الإسلام، وهذا الذي كان لورد كاميل يخشاه حين قال عن الشعب العربي المسلم: "إنه الآن في قبضة أيدينا، ولكنه أخذ يتململ.. فماذا يحدث لنا غداً إذا استيقظ العملاق"!

ثارت الجزائر على الاحتلال الفرنسي ثورتها المشهورة.. "ثورة المليون شهيد".

([1]) من إصدارات أحمد أمين كتاب بعنوان "زعماء الإصلاح" تكلم فيه عن مجموعة ممن أفسدوا في العالم الإسلامي، وسماهم زعماء الإصلاح!

وثار الشمال الأفريقي كله: المغرب وتونس على الاحتلال الفرنسي، وليبيا على الاحتلال الإيطالي.

وثارت مصر والسودان والعراق على الاحتلال البريطاني.

وثارت سوريا على الاحتلال الفرنسي.

وفي كل بقعة من العالم الإسلامي المحتل قامت ثورة تحاول استخلاص البلاد من قبضة العدو الكافر وتردها إلى الإسلام.. وكانت تلك هي الطامة الكبرى على الصليبية الصهيونية لو نجحت تلك الثورات في استرداد الأرض للإسلام..

ولكن الصليبية الصهيونية كانت أشد مكراً وأبعد نظراً، أو قل إن المسلمين –برغم ما بقي لديهم من وجدان ديني– كانوا في غفلة عما يراد لهم، لأنهم لم يكونوا على وعي بحقيقة الإسلام، فسهل خداعهم، وسهل "سرقة الثورة" منهم على يد الأفاقين.

لقد كانت الصليبية الصهيونية قد راقبت بدء "تململ العملاق" كما عبّر لور كاميل في تقريره، فأعدت لذلك عدته! وربّت لهذا الأمر الخطير مجموعة من "الزعماء"! صنعتهم على مهل ليتولوا قيادة الثورة حين تقع، ويحوّلوها عن خطها الإسلامي إلى خط وطني أو قومي لا إسلام فيه! فإنه إن كان لا بد للاستعمار في النهاية أن يرحل، فليسلم البلاد لقوم "مقلمي الأظافر" خيراً من أن يسلمها للمقاتلين المجاهدين تحت راية الإسلام، الذين لا يمكن أن يقبلوا أنصاف الحلول، ولا الالتقاء مع العدو الكافر في منتصف الطريق! بل إنه لخير له أن يترك البلاد لأولئك الذين رباهم على عينه من أن يحتفظ بها عن طريق عساكره، الذين يثير منظرهم وجدان الناس فيبعثهم على الثورة على المحتل! بينما هؤلاء "الزعماء" ينفذون له من أوامره ما يقدرون عليه، ويحققون من مصالحة ما تيسر لهم –في مقابل إشباع ما فيهم من شهوة الزعامة والسلطة– وهُو وهم آمنون من خطر الإسلام!!

على هذا الضوء نفهم ما فعل سعد زغلول بالثورة المصرية التي كانت تنبع من الأزهر، فحولها إلى "ثورة وطنية" ترفع شعار "الدين لله والوطن للجميع"[1]! وما فعل بن بيلا بثورة المليون شهيد، فحولها إلى "ثورة اشتراكية" لا دينية، وما فعل سوكارنو في أندونسيا، وبورقيبة في تونس.. وغيرهم وغيرهم من الزعماء "الأبطال"!

([1]) اقرأ إن شئت عن قصة سعد زغلول، وكيف صنعه الإنجليز على أعينهم في صالون نازلي فاضل، في كتاب "واقعنا المعاصر" ص311–ص324.

هذه الفترة كما قلنا من أحرج فترات التاريخ بالنسبة للعالم الإسلامي، وما كتب عنها في المراجع الحديثة هو أشد ما كتب تضليلاً للمسلم المعاصر، إذ أنه هو ذاته جزء من الغزو الفكري الذي قصد به صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام.

لذلك ينبغي عن إعاة كتاية التاريخ أن يكتب تاريخ هذه الفترة كتابة مفصلة، يشرح فيها بوضوح مؤامرات الصليبية الصهيونية ضد الإسلام، ومدى تغلغل هذه المؤامرات في حياة المسلمين، ودور "الزعماء" المزيفين في تنفيذها بوعي منهم أو بغير وعي. مع التأكيد على حقيقة مهمة في الوقت ذاته: أن هذه المؤامرات كلها –وعلى رأسها الغزو الفكري– ما كانت لتنجح لولا غفلة المسلمين وتخلفهم عن حقيقة الإسلام. وأن الأمة الإسلامية هي المسئول الأول عن كل ما أصابها على يد أعائها، لتفريطها في الأمانة التي حمّلها الله إياها يوم أخرجها إلى الوجو. وأنه لا خلاص لها من كل ما أصابها على يد أعدائها، لتفريطها في الأمانة التي حمّلها الله إياها يوم أخرجها إلى الوجود. وأنه لا خلاص لها من كل ما أصابها إلا بالعودة الصادقة إلى هذا الدين..

* * *

أما القضية الثالثة من قضايا هذه الفترة فهي الخسارة التي خسرها العالم كله من جراء تخلف الأمة الإسلامية عن حقيقة الإسلام.

إن المسلم المعاصر –بتأثير الغزو الفكري، وقبل ذلك بتأثير تحول أمته إلى غثاء كغثاء السيل –يستصغر نفسه، ويستصغر دوره التاريخي، ولا يكاد يدرك أن لهذه الأمة تأثيراً في وضع البشرية كله، سواء في فترة المد أو في فترة الانحسار.

ولئن كان على استعداد أن يدرك شيئاً من تأثير أمته في أوضاع البشرية في فترة المد – رغم التشويه الذي أصاب الصورة عنده من قراءته للمراجع الغربية، أو ممن ينقلون عنها من المؤرخين العرب –فهو على غير استعداد أن يدرك هذا التأثير في فترة الانحسار، وهو يرى العالم الحيّ يموج بالحركة من حوله، وأمته في ذيل القافلة تلهث من شدة الجهد، تحاول أن تلحق بالركب ولا تكاد!

كيف تكون ذات أثر على العالم وهي مغلوبة على أمرها، لا تملك شيئاً من أمر نفسها، فضلاً عن أن تملك شيئاً من أمر الآخرين؟!

والتأثير الذي نشير إليه هنا ليس ناشئاً من أنها —في وضعها الحاضر– تملك شيئاً من التوجيه تؤثر به في الآخرين. إنما هو على العكس من ذلك تأثير سلبي، ناشئ من هذه الحقيقة ذاتها، وهي أنها لا تملك شيئاً من التوجيه تؤثر به في الآخرين!

إن هذه الأمة —كما أشرنا مراراً من قبل– لم تُخْرَج لتعيش في حدود نفسها فحسب، بل لتكون فائدة ورائدة لكل البشرية، حاملة رسالة رسولها صلى الله عليه وسلم من بعده، المبعوث رحمة للعالمين، ليهدي الناس كافة إلى صراط الله المستقيم:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)[1].

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً)[2].

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً)[3].

وكما كان الرسول —صلى الله عليه وسلم– شاهداً ومبشراً ونذيراً، فكذلك أمته التي تحمل رسالته من بعده: تشهد، وتبشر، وتنذر:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[4].

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)[5].

وحين تستقيم الأمة على دين ربها، وتجاهد في نشر دعوته، تكون بالفعل شاهدة على البشرية، لأنها تكون قد أعطت النموذج الصحيح، وأعطت القدوة، وبلغت وأنذرت.. فمن قصر من البشر بعد ذلك أو نكل عن طريق ربه فهو المسئول عن نفسه، لا يستطيع أن يحاجّ الله يوم القيامة بأن الحق لم يبلغه، أو لم يره مطبقاً في عالم الواقع فيعرف حقيقته.

أما حين تنكل الأمة عن الطريق، فمن يشهد؟ ومن يبشر؟ ومن ينذر؟

([1]) سورة الأعراف: 158.

([2]) سورة سبأ: 28.

([3]) سورة الأحزاب: 45.

([4]) سورة البقرة: 143.

([5]) سورة آل عمران: 104.

من يدل البشرية على طريق الخير؟ من يعطيها النموذج الصحيح فإما أن تهتدي به وإما أن تسقط حجتها أمام الله؟

والذي حدث بالفعل حين نكلت الأمة عن الطريق أن النموذج الصحيح غاب عن الأنظار، فبرز النموذج الفاسد وملأ الساحة، وتمكن في الأرض، وعدا على الأمة الإسلامية ذاتها يريد أن يمحوها من الوجود..

ولسنا نقول إن وجود النموذج الصحيح في الساحة، وجهاد الأمة الإسلامية لنشر الدعوة كان سيهدي البشرية كلها فيزول الفساد من كل الأرض، فهذا مخالف للمشيئة الربانية ذاتها:

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ..)[1].

ولكن كان ينشأ عن وجود النموذج الصحيح والجهاد لنشره أمراه: تسقط حجة الناس أمام الله يوم القيامة، وينحسر الفساد في الأرض بقدر من الله، فلا يصبح هو السائد في كل الأرض:

(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)[2].

* * *

برزت أوربا الجاهلية حين ضعفت الأمة الإسلامية وتخلفت عن حقيقة الإسلام.

وهنا نقطتان تحتاجان إلى إبراز في ذهن المسلم المعاصر.

إن أوربا أمة جاهلية بالمصطلح القرآني مهما بلغت من التقدم العلمي والقوة المادية، لأنها لا تعبد الله حق عبادته، ولا تطبق المنهج الرباني في واقع حياتها[3].

([1]) سورة هود: 118-119.

([2]) سوة البقرة: 251.

([3]) راجع إن شئت فصل "الجاهلية المعاصرة" في كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر".

وأن قوة أوربا ذات صلة عكسية بقوة الأمة الإسلامية.

إن هناك وهما يسيطر على الأذهان بسبب قوة أوربا الحالية، مفاده —كما أشرت في كتاب "رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر"- أن أوربا أمة حضارية بذاتها متفوقة بذاتها، عبقرية بذاتها، غلابة بذاتها، وأنها كانت قمينة أن تبرز وتسيطر وتتمكن في الأرض بمزاياها الذاتية بصرف النظر عن قوة الأمة الإسلامية أو ضعفها!

إن هذا الوهم ينشئه في نفس أوربا الغرور الأوربي المشهور.. أما ما ينشئه في نفوس المسلمين المغلوبين على أمرهم فهو الهزيمة الداخلية تجاه الغرب، والانبهار الذي تحدثه الهزيمة الداخلية في النفوس.

وبمراجعة وقائع التاريخ يتبين فساد هذا الوهم..

فماذا كانت أوربا قبل احتكاكها بالمسلمين؟ وماذا كانت قبل أن تضعف قوة المسلمين وتنقض على العالم الإسلامي وتنهب خيراته؟

إن قوة أوربا الحالية قد نشأت من هذين الأمرين معاً: فمن احتكاكها بالمسلمين اكتسبت الرغبة في الوجود والحياة والحركة والعلم والنهوض، بعد أن ظلت غافية غافلة في ظل الكنيسة بضعة قرون. ولو كانت راقية بذاتها، حضارية بذاتها، عبقرية بذاتها، غلابة بذاتها ما قبلت الدين المزيف الذي قدمه لها بولس ابتداء، ولا استساغته، ولا خضعت لظلم الإقطاع وطغيان الكنيسة عشرة قرون!! ومن ضعف المسلمين — بعد أن تقوت أوربا بما أخذته عنهم من علم وحضارة- بدأت أوربا تستعمر العالم الإسلامي وتنهب خيراته، فتضخمت ثرواتها، واستطاعت بهذه الثروات المنهوبة أن تزداد تمكنا في الأرض، وأن تتقدم في الأبحاث العلمية التي زادتها بدورها قدرة على السيطرة والتمكين..

وإزالة الوهم الآنف الذكر أمر مهم بالنسبة للمسلم المعاصر، ليخفف من هزيمته الداخلية إزاء أوربا، حين يعرف أن ظروفاً تاريخية معينة هي التي منحتها القوة، وليست القوة صفة نابعة من ذاتها ولا من مزاياها الذاتية، فيسهل عليه أن يتصور أن ظروفا تاريخية أخرى يمكن أن تهبط بمكانة أوربا أو تزيلها، وأنه ليس حتماً أن تبقى هذه القوة إلى الأبد مسيطرة متمكنة في الأرض!!

ومن جهة أخرى فإن معرفته بأن قوة أوربا جاءت نتيجة ضعف الأمة الإسلامية ينبهه إلى مسئوليته في هذا الأمر، فيحفزه ذلك إلى العمل على إزالة هذا الضعف الطارئ، بإزالة

أسبابه التي أدت إليه وهي البعد عن حقيقة الإسلام.. ويتيقن أنه إن عاد إلى القوة بالعودة إلى حقيقة الإسلام فإن شيئاً كثيراً من طغيان أوربا الحالي يمكن أن يزول، ولينظر فقط إلى البترول 0عصب الحياة في أوربا- لو أن الأمة الإسلامية التي ملكها الله إياه كانت في موضع القوة، فكم كانت تملك لوقف أوربا عند حدها، وإجبارها على التخلي عن طغيانها، ورد ما سلبته من كرامة المسلمين وأموالهم، ووقف العون الذي تقدمه لإسرائيل لتغتال به الوجود الإسلامي!

وتلك كلها حقائق لا يدركها المسلم المعاصر لأن المراجع التي يرجع إليها تزيف له تاريخه، وخاصة الفترة الأخيرة منه، فتغيب عن إدراكه أمور كثيرة مهمة وخطيرة بالنسبة لكيانه كله.. ولذلك يجب إبرازها بقوة عند إعادة كتابة التاريخ..

* * *

ونعود إلى القضية التي نحن بصددها في هذه المرحلة من البحث، وهي بيان "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" كما عبر الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه الذي يحمل هذا العنوان.

غاب النموذج الصحيح من الساحة، فبرز النموذج الفاسد وسيطر وحده على الساحة.

ولنذكر فقط أبرز الشرور التي أحدثها تمكن النموذج الفاسد على نطاق العالم كله:

1- الاستعمار بكل مساوئه وهمجيته ومخازيه.

2- بروز القيم المادية على حساب القيم الإنسانية اللائقة بالإنسان.

3- السيطرة العالمية لليهود وتمكينهم من تنفيذ مخططهم الشرير.

4- انتشار الإلحاد والفساد الخلقي في الأرض.

5- إدارة الاقتصاد العالمي على أساس الربا، وما ينشأ عن ذلك من الفساد في الأرض.

وكل نقطة من هذه النقط تحتاج إلى تفصيل واسع عند إعادة كتابة التاريخ. ولكنا في هذه العجالة لا نملك أكثر من إشارة سريعة إلى كل منها، وإلى صلة كل منها بغياب الأمة الإسلامية عن الساحة.

فأما الاستعمار فمن الواضح أن الجزء الأكبر منه كان في الوطن الإسلامي، وقد أشرنا من قبل إلى دوافعه الصليبية. ولكن أياً كانت دوافعه فلم يكن ليحدث لو بقيت الأمة الإسلامية على قوتها، فإنه كان سيتعذر على أوربا أياً كانت مطامعها، أن تقتحم العالم الإسلامي بالقوة وأمامها القوة الرادعة في يد المسلمين. وعندئذ كانت ستظل أوربا تتطاحن في داخلها بدافع القوميات المتناحرة على السلطة، كما حدث في الحروب الإيطالية التي استغرقت من سنة 1494 إلى سنة 1559م وغيرها من الحروب التي قامت للسيطرة على أوربا، وكانت تلك الحروب قمينة بإضعاف أوربا وإنهاكها بدلاً مما حدث فيما بعد من زيادة قوتها وتمكنها حين اتجهت إلى احتلال العالم الإسلامي ونهب خيراته.

وأما سيطرة القيم المادية على حساب القيم الإنسانية –وهي معلم بارز في الجاهلية المعاصرة– فقد كانت قمينة أن تظل محصورة في نطاق أوربا– إذا أصرت أوربا على هبوطها الروحي ولم تشأ أن تخرج منه وترتفع إلى المستوى اللائق بالإنسان –ولم تكن هذه الظاهرة لتنتشر على نطاق الأرض كلها كما هو حادث اليوم، ذلك أن وجود النموذج الصحيح، الذي يوازن بين القيم المادية والقيم الروحية، وبين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة كان سيحد من انتشار النموذج الفاسد. بينما الذي حدث بالفعل– بسبب غياب الأمة الإسلامية عن الساحة– أن هذا الانتكاس الروحي والإنساني أصبح هو طابع البشرية المتأثرة اليوم "بالحضارة الغربية"، بل انتشر في العالم الإسلامي ذاته، لأنه –في غياب المناعة التي تحدثها العقيدة الصحيحة– أصبح هو ذاته معرضاً للعدوى، وأصبحت العدوى المجلوبة من الغرب أقتل له مما هي في العالم الغربي، لأن العالم الغربي يحمل –مع المرض– عدة إيجابيات، بينما العالم الإسلامي يأخذ العدوى وهو صفر اليدين من إيجابيات الغرب!

وأما السيطرة العالمية لليهود فقصتها طويلة[1]، ولكن خطوطها العريضة أنهم –بتأثير عقدة الاستعلاء المسيطرة عليهم بزعم أنهم شعب الله المختار، وعقدة الاضطهاد الواقع عليهم خلال التاريخ لسوء أفعالهم مع تصورهم أنهم هم الذين يجب أن يحكموا العالم لمزاياهم الخاصة –فإن الحقد يملأ قلوبهم على البشرية كلها، أو على من يسمونهم هم "الأمميين" أي كل الأمم من غير اليهود، ويسعون على الدوام إلى إفساد حياة أولئك الأمميين وتدميرهم إرواء لهذا الحقد الدفين. ووسيلتهم العظمى في ذلك هي إفساد عقائد الأمميين وأخلاقهم،

(1) اقرأ القصة بالتفصيل إن شئت في فصل "دور اليهود في إفساد أوربا" من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" أو فصل "السيطرة العالمية لليهود" في كتاب "رؤية إسلامية"

"ليستحمروهم" حسب تعبير التلمود الذي يقول: الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وكلما نفق منهم حمار ركبنا حماراً آخر!

وقد ظلوا يسعون إلى استحمار الأمميين قرونا طويلة، ولكن كيدهم كان محصوراً في نطاق ضيق.. حتى أتيح لهم في القرون الثلاثة الأخيرة فرصة نادرة لتنفيذ مخططاتهم على أوسع نطاق عرفوه في التاريخ.

والذي يعنينا هنا هو صلة هذا الأمر بغياب الأمة المسلمة عن الساحة، فنقول إن الفرصة قد واتت اليهود حين رأوا في أوربا بوادر التمرد على الدين بسبب حماقات الكنيسة وطغيانها الذي كرّه الناس في الدين فأصبحوا كأنهم "حمر مستنفرة فرت من قسورة" كما وصف الله النافرين من الدخول في رحمة الله وفضله، فوجد اليهود الحُمُرَ جاهزة فربوها وعاثوا فساداً في الأرض، ثم لما زاد ضعف الأمة الإسلامية جاءوا هم والصليبيون معاً ليعيثوا في العالم الإسلامي ويفسدوا عقيدته وأخلاقه.

ونفترض الآن أن الأمة الإسلامية لم تكن قد تخلفت عن إسلامها، ولم يصبها الضعف والهزال الذي أصابها.. فماذا كان يتوقع من أمر اليهود وسيطرتهم على العالم؟

أحد أمرين: إما أن يغري النموذج الصحيح أوربا بالدخول في الإسلام، بعد تخطي الحاجز الصليبي الذي أقامته الكنيسة في أوربا ضد الإسلام، وعندئذ تنعدم الفرصة تماماً أمام اليهود..

وإما أن تظل أوربا في غوايتها رغم وجود النموذج الصحيح بالقرب منها في شرق أوربا وغربها، وعندئذ كان اليهود سينشطون في تنفيذ مخططاتهم الشريرة في أوربا وحدها، ثم يظل الشر محصوراً هناك، لأن أوربا ذاتها لم يكن ليكون لها نفوذ على بقية الأرض في وجود الأمة الإسلامية قوية ممكنة مسيطرة.

ونضرب أمثلة للتوضيح..

استغل اليهود الثورة الفرنسية القائمة ضد طغيان رجال الدين ورجال الإقطاع، فبثوا خلاياهم الماسونية التي ساعدت على تأجيج الثورة وحولتها إلى ثورة على الدين ذاته بدلاً من كونها ثورة على طغيان رجال الدين، وأقامت أول دولة علمانية في أوربا في "فرنسا الثورة"..

هذا حدث أوربي بحت، وكان من الممكن أن يظل تأثيره محصوراً في أوربا لو أن الأمة الإسلامية بعقيدتها، بنظامها، بقوتها، بحضارتها، بتقدمها العلمي كانت قائمة في الأرض، فينحصر سم العلمانية اللادينية في أوربا ولا يسري في بقية الأرض.

وجاءت الثورة الصناعية فاستغلها اليهود في أمرين خطيرين: تمويل الصناعة بالربا، مما مكنهم من جميع الذهب وتكديسه في جيوبهم، والسيطرة – من ثم– على اقتصاديات العالم وسياسته ووسائل إعلامه.. إلخ. وإنشاء مجتمع منحل الأخلاق عن طريق تشغيل المرأة وإفساد أخلاقها وفك روابط الأسرة بحجة "تحرير المرأة اقتصاديا" وجعل الفاحشة هي الأساس المعتمد في علاقات الجنسين بدلاً من الزواج ورباط الأسرة..

وهذا شر انتشر اليوم في كل الأرض، وكان يمكن تلافيه ألبتة أو حصره في نطاق ضيق لو أن الأمة الإسلامية لم تضعف ولم تنكل عن رسالتها لنفسها وللبشرية.

فقد كان المفترض مع وجود التقدم العلمي في العالم الإسلامي أن تنشأ الآلة –التي قامت عليها الثورة الصناعية– في ربوع الإسلام لا في أوربا. وعندئذ لم تكن لتقوم على الربا أساساً لأنه محرم في دين الله. وكان الباب سيظل موصداً أمام اليهود أن يجمعوا الثروة التي سيطروا بها على الأرض.. ولم تكن المرأة ستحتاج إلى العمل لأن في دين الله من يكفلها دائماً ولا يحوجها إلى أن تعمل لتأكل، وقد كانت الفتنة في أوربا أن الفلاحين هجروا الريف وذهبوا إلى المدينة وراء فرص العمل وتركوا عائلاتهم بلا عائل، فاضطرات المرأة أن تتبع الرجل إلى المدينة وتعمل لتأكل.. فوجدت البذرة الفاسدة التي أفسدت المجتمع كله.. ولو قامت الصناعة الآلية في العالم الإسلامي ما كان هناك مبرر واحد لخروج المرأة للعمل وتحطيم الأسرة وانحلال الأخلاق.

فإذا فرضنا أن قيام الحركة الصناعية في العالم الإسلامي لم يمنع قيامها في أوربا على الصورة التي قامت بها وأتاحت لليهود ما أتاحت من فرص للإفساد، فقد كان الفساد سيظل محصوراً في أوروبا، ولا يصبح سمة للعالم "المتحضر!" كله.. فإذا فسدت المرأة الأوربية و"تحررت" أي تحللت من دينها وأخلاقها، فلم يكن ذلك ليحفز نساء الأرض بالضرورة –بما فيهن المسلمات– أن يفسدن ويتحررن على الطريقة الأوربية اليهودية..

وجاءت الثورة الداروينية إن صح التعبير، إذ خرج دارون بنظريته في التطور.. فاستغلها اليهود لهدم كل القيم الثابتة –ما كان قد بقى منها في المجتمع الأوربي– وإنشاء فكر "تطوري" ينظر إلى الدين والأخلاق والزواج والأسرة على أنها أمور متطورة، وأنها قد تطورت إلى أضدادها في "المجتمع الصناعي المتطور"! وخرج اليهود الثلاثة: ماركس وفرويد ودركايم

بنظرياتهم المعروفة ضد الدين والأخلاق والتقاليد، وانتشرت نظرياتهم في كل الأرض، تمحو آثار ما بقى من القيم الثابتة في حياة البشرية. وهذا كذلك شر كان يمكن تلافيه البتة أو حصره في نطاق ضيق لو أن الأمة الإسلامية لم تضعف ولم تنكل عن رسالتها لنفسها وللبشرية..

فالذي وضع الإطار الإلحادي لنظرية دارون لم يكن هو البحث العلمي المجرد إنما عداوة الكنيسة للعلم والعلماء، وما ارتكبته من الحماقات في حرق العلماء أحياء وتعذيبهم حتى الموت بحجة أنهم أدلوا بنظريات مخالفة للدين! فقام العلماء من جانبهم يحاربون الدين ومقرراته ليهدموا سلطان الكنيسة من أساسه، وإلا فنظرية التطور الداروينية ذاتها –ونحن لا نسلم بصحتها[1]– لا تستلزم عدم نسبة الخلق للخالق سبحانه ونسبته إلى "الطبيعة" بدلاً من الله! ولا تستلزم القول بالخلق الذاتي، ولا تستلزم كذلك نفى "الغاية" –أو الغائية– عن عملية الخلق ذاتها ولا تصوير الإله الجديد –الطبيعة– بأنه يخبط خبط عشواء[2]!

فلو نشأ دارون والنموذج العلمي الإسلامي موجود، الذي لا يقيم تعارضاً ولا نزاعاً بين الدين والعلم، بل ينمو العلم فيه في ظل العقيدة ومنبثقاً عنها، فلربما كان يعدل ابتداء عن وضع الإطار الإلحادي الذي أحاط به نظريته –أو بالأحرى فرضه العلمي– ويقدم الفرض أو النظرية في إطار لا يتعارض مع العقيدة، ومن ثم لا يعطي اليهود أصلاً فرصة لنشر الإلحاد باسم التقدم العلمي! فإن لم يكن وجود النموذج الإسلامي كافياً لرد دارون عن غيه، فقد كان السم الذي أفرزه الإطار الإلحاي لنظريته سيظل محصوراً في أوربا لا يتعداها إلى بقية الأرض كما حدث بالفعل! وكانت نظريات اليهود الثلاثة التي استمدوها من الداروينية تظل محصورة في النطاق الأوربي مستنكرة في بقية العالم لقيامها على أساس التفسير الحيواني للإنسان..

وهكذا فإن السيطرة العالمية لليهود تظل –بكل ما أحدثته من الشر في الأرض– نتيجة من نتائج غياب الأمة الإسلامية من الساحة، وكان وجود الأمة بقوتها قمينا بأن يحول دون قيام تلك السيطرة أصلاً، أو يحدّ من شرها على أقل تقدير..

([1]) توجد اليوم نظريات علمية تخالف نظرية دارون، نشأت من التقدم العلمي الذي حدث بعد دارون، ولا تنظر إلى الإنسان نظرة دارون الحيوانية.

([2]) يقول دارون: Nature works haphazardly(الطبيعة تخبط خبط عشواء).

أما انتشار الإلحاد والفساد الخلقي في الأرض فمن الواضح –بعد كلامنا عن اليهود وما أحدثوه من الفساد– أن غياب الأمة الإسلامية كان عنصراً ساسياً في وصوله إلى الدرجة التي وصل إليها. ولسنا نقول إن اليهود هم الذين أنشأوا الإلحاد في أوربا، فقد نشأ كرد فعل لطغيان الكنيسة وتحكمها في الناس باسم الدين، ولكن اليهود دون شك نشروه على نطاق واسع لأنه يحقق مخططهم في استحمار الأمميين، وهم أقرب شيء إلى الاستحمار وهم نافرون من الدين:

(أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)[1].

كذلك فإن الفساد الخلقي نشأ تلقائياً من خروج المرأة من البيت و"تحررها!" ولكن اليهود كان لهم دورهم في نشر ذلك الفساد على نطاق واسع بما وضعوا من مخططات لرفع تكاليف المعيشة وتخفيض القوى الشرائية للعملات بحيث يعجز الشاب بعد تخرجه وبدئه التكسب عن إنشاء أسرة، وفي فترة تعطله عن الزواج يهيء اليهود له كل أدوات الفساد! وكذلك تقع الفتاة التي لم يتقدم لها أحد للزواج في مغريات الجنس فيحدث الفساد من الطرفين كما يروي ول ديورانت في كتابه "مباهج الفلسفة" وإن لم ينسب ذلك الشر لليهود!

وكل ذلك كان قمينا أن يظل محصوراً في البيئة الأوربية ولا يصبح "عرفاً" عالمياً لو بقى النموذج الإسلامي ناصعاً مشرقاً يغري البشرية بالصعود بدل ما يغريها اليهود بالهبوط.

أما الربا فهو كارثة الحياة المعاصرة في عالم الاقتصاد:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ)[2].

والنتيجة الحتمية للربا –كما قال أحد الخبراء الألمان في تقرير له– هي زيادة تضخم المال في أيدي فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر في فئة يتزايد عددها باستمرار! وكفى بذلك إثماً تذوق منه البشرية الوبال!

ولو بقى النموذج الإسلامي النظيف في تنمية المال بلا ربا ما أصبح الربا عملة عالمية، يظن الناس أنه لا قيام للحركة الاقتصادية بدونه، ولتوزعت المغارم والمغانم على الناس بالعدل دون أن يقع عليهم الظلم الذي يصاحب الربا باستمرار:

([1]) سورة الأعراف: 179.

([2]) سورة البقرة: 275.

(وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)[1].

وذلك فضلاً عن القوة الرهيبة التي اكتسبها اليهود من عملية الربا فهم –خلال التاريخ كله– هم المرابون، وهم المستغلون لحاجة الناس للإثراء منها بالمال الحرام..

* * *

تلك أبرز الشرور التي أصابت العالم كله من غياب الأمة الإسلامية عن الساحة. وما أبعد الفارق بين صورة البشرية والمسلمون موجودون فيها، قائمين برسالتهم، ممارسين للإسلام في عالم الواقع، مقدمين القدوة النظيفة للناس، وبين صورتها الحالية، المنتكسة إلى أسفل، بالرغم من كل ما فيها من التقدم العلمي والمادي الذي كان قمينا أن يسعد البشرية ويهيء لها مزيداً من الاستقرار، بدلاً من الشقوة التي تعم الأرض اليوم وتهددها بالدمار.

وهذا العنوان "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" جدير بأن يكون عنواناً رئيسياً في الكتابة عن فترة الانحسار في حياة الأمة الإسلامية، وأن يكتب فيه الكثير الكثير، حتى يقدر المسلم المعاصر مسئوليته في قيادة البشرية، ومعنى قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[2].

* * *

قبل أن ننتهي من الحديث عن هذه الفترة نحب أن نشير إلى النقاط التي يجب التركيز عليها عند إعادة كتابة التاريخ، وإلى الدروس التربوية المستفادة منها، والتي هي الهدف الحقيقي من دراسة التاريخ.

يجب التركيز أولاً على مسئولية المسلمين عن تفريطهم في دين الله، مسئولية يشترك فيها الحكام والعلماء ومجموع الأمة، لا ينجو منها إلا من جاهد بقدر ما آتاه الله من جهد. وأن التفريط هو الذي أدى إلى الضعف والتخلف والانحسار، وليس تنامي القوة الأوربية، وليس "الحتمية التاريخية" القائلة بانتهاء مهمة الدين، واستنفاده أغراضه وكونه أصبح بعد استنفاده دوره التاريخي معوقاً عن الحضارة والتقدم والانطلاق. وأن الإسلام –دين الله الصحيح– لا

([1]) سورة البقرة: 279.

([2]) سورة البقرة: 143.

يستنفد أغراضه أبداً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولا يتجاوزه الزمن أبداً، ولا تتجاوزه أي حضارة بشرية أو منهج بشري، إنما حسب البشر —في أعلى حالاتهم — أن يحققوا هذا الدين في واقع حياتهم، فيرتفعوا إلى أقصى ما في طاقة الإنسان من قدرة على الارتفاع.

ويجب التركيز ثانياً على أن ما أصاب الأمة الإسلامية نتيجة تفريطها في هذا الدين سنة ربانية لا تتخلف ولا تحابي أحداً. وأن لله في شأن التمكين في الأرض سنتين مختلفتين بالنسبة للكفار وبالنسبة للمؤمنين، وإن اشتركا كلاهما في ضرورة بذل الجهد من أجل الحصول على التمكين..

أما الاختلاف فيكمن في أن الله يعطي الكفار بقدر ما يبذلون من الجهد، لأنه يعطيهم ثواب الحياة الدنيا ولا يدخر لهم شيئاً في الآخرة:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[1].

أما المسلمون فلا يعطيهم —وإن بذلوا الجهد- إلا حين يستقيمون على أمر الله:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[2].

ذلك لأنه يدخر لهم ثواب الآخرة، ومن أجل ذلك لا يعطيهم وهم عصاة فيفتتنوا ويلجّوا في العصيان. إنما يحرمهم ما يمكن أن يمد به الكفار من النصر والتمكين حتى يعودوا إليه، فيعطيهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

والمهم في هذا الدرس أن يدرك المسلمون أن محاولتهم اتخاذ الأدوات التي مكّنت لأوربا دون الرجوع إلى الله لن تفيدهم بشيء، وقد جربوا ذلك قرناً من الزمان أو أكثر من قرن فلم يحصلوا على شيء إلا القشور، وتدهور حالهم من سوء إلى سوء، وغرقوا في التبعية، وصاروا غثاء كغثاء السيل. إنما السبيل أن يرجعوا إلى الله ثم يتخذوا الأسباب، فعندئذ يعيد الله لهم ما

---

(1) سورة هود: 15-16.

(2) سورة النور: 55.

ذهب عنهم من التمكين في الأرض، ويشملهم بفضله ورحمته، فينالوه خير الدنيا وخير الآخرة.

ثالثاً: يجب التركيز على أن الهزيمة العسكرية التي أصابت المسلمين أمام الغرب في القرنين الماضيين ليست هي العامل الحاسم فيما أصابهم من الصغار والهوان، والانبهار بما عند الغرب، غثه وثمينه سواء. إنما هي الهزيمة الداخلية الناشئة من الخواء.. خواء العقيدة وخواء الروح من حقيقة الإسلام..

فحين كان المسلمون ينهزمون عسكرياً أمام أعدائهم وقلوبهم عامرة بالإيمان لم يكونوا ينخذلون بتأثير الهزيمة العسكرية لأن الله قال لهم: "وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ"[1]. فكان استعلاؤهم بالإيمان يرد عنهم الخذلان النفسي، ويحفزهم إلى التحرك السريع لرد الهزيمة إلى نصر، ولم يكونوا يشعرون قط أن ما عند أعدائهم خير مما عندهم، لأن عندهم دين الله ومنهجه، وأعداؤهم عندهم دين الجاهلية ومنهجها، وشتان بين الجاهلية والإسلام.

أما في الهزيمة الأخيرة فقد كان هناك دَخَلُ كثير في الإيمان. لذلك أصاب الخذلان النفسي المسلمين، وانبهروا بما عند أعدائهم لأول مرة في حياتهم، وظنوا أن ما عند أعدائهم خير مما عندهم، لا في الأدوات والعلوم فهذا واضح، ولكن في العقائد والأفكار والأخلاق والنظم وأنماط السلوك.. وأن هذا كان الكارثة العظمة التي يسرت للغزو الفكري أن يحول الأمة في قرن أو نصف قرن عن الإسلام ويلوي أعناقها إلى أوربا.

ومن الظواهر ذات الدلالة في هذا الشأن أن المسلمين في الجولة الأولى شعروا أنهم في حاجة إلى بعض الأدوات الحضارية ممن حولهم: من فارس وبيزنطة، فأخذوها بلا تحرج، ولكنهم لم يأخذوا ما حولها من نظم أو عقائد أو أفكار أو أنماط سلوك، لأن ذلك كله كان في حسهم جاهلية، وعندهم إسلامهم ومنهجهم الرباني يغنيهم. لذلك تعلموا اليونانية (واللاتينية) لينقلوا العلوم، ولكنهم لم ينقلوا الأساطير اليونانية لأنها أساطير جاهلية بعيدة عن الحقيقة الربانية التي عرفوها. فأما في جولة الأخذ الثانية التي وقعت فيها الأمة في فترة الانحسار فقد نقلوا كل شيء بلا تمييز! وقال "عميد الأدب العربي": من لم يقرأ الأساطير اليونانية فليس أديباً ولا يستطيع أن يكون أديباً! وفي ذلك دلالة على مدى الصغار الذي أصاب المسلمين تجاه الغرب!

([1]) سورة آل عمران: 139.

رابعاً: يجب مراجعة كل الأسماء اللامعة التي لمعت في فترة الانحسار، لإعادة تقويمها بميزان الإسلام. فقد عمل الاستعمار والغزو الفكري على إبراز مجموعة من الأشخاص لا لقيمتهم الذاتية، ولكن بمقدار ما أدوا من خدمات لمخططات الأعداء، سواء أدوا هذه الخدمات عن غفلة فيهم أو عن عمالة واعية. وبالنسبة للأمر الواقع فإن العميل المستغفل يؤدي للعدو نفس الخدمة التي يؤديها العميل المأجور.. ولكن يختلفان في النية المضمرة، أحدهما يظن أنه بعمله يخدم الإسلام والمسلمين، والآخر يعلم مهمته جيداً ويعلم السيد الذي يستخدمه ويعطيه الأجر. وليس من الضروري أن يكون الأجر ما لا يقبضه في يده فقد يكون زعامة أو شهرة أو تحقيق شهوة من شهوات الأرض الهابطة..

وحين نراجع الأسماء التي لمعت في تلك الفترة في العالم الإسلامي على اتساعه فسنجد قلة تستحق ما نالته من مكانة وشهرة، وكثير منها صنع صناعة ليؤدي مهمة معينة تخدم أغراض الصليبية الصهيونية، وأن هؤلاء قد التقطهم الاستعمار الصليبي الصهيوني لمزية معينة فيهم قد تكون ذكاء خارقاً، وقد تكون قدرة خطابية فائقة، وقد تكون خبثاً ومكراً ودناءة طبع، ثم كبّرهم بوسائل الدعاية التي يملكها —والصحافة بصفة خاصة– وصنع حولهم الهالات لتلتف حولهم الجماهير، بعد أن يكون قد صنع لهم فكرهم ورسم لهم طريقهم الذي يخدم أهداف المخططين. منهم ساسة. ومنهم "مفكرون". ومنهم أدباء وشعراء. ومنهم "فنانون" و"فنانات" يلهون الجماهير ويصرفونهم عن جديات الأمور..

بهذا الميزان نزن رفاعة الطهطاوي. ومحمد عبده. وجمال الدين الأفغاني. وسعد زغلول. وقاسم أمين. ولطفي السيد. وطه حسين. وعشرات غيرهم وعشرات.. فنجد فيهم عاملاً مشتركاً على اختلاف مواقفهم ما بين الغفلة والعمالة المأجورة، أن شخصياتهم ضئيلة. أضأل بكثير مما صُوِّرت لنا بواسطة أجهزة التكبير —أو أجهزة التضليل– وأنهم منهزمون في دخيلة نفوسهم أمام الغرب.. وأنهم لو كانوا بالحجم الذي صورته لنا أجهزة التكبير لوقفوا من عملية التغريب موقفاً آخر، ولكانت وجهتهم هي الإسلام صافياً بلا غبش، ولا محاولة للتوفيق بين الإسلام و"الحضارة الغربية"، مؤداها الواقعي تثبيت القيم الغربية وليّ عنق الإسلام إليها! أما "الأبطال" العسكريون في حياة الأمة الحديثة، فحدث عن زيف بطولاتهم ولا حرج!

وأخيراً يجب التركيز على حقيقة ذات أهمية خاصة.. إن علاج ما أصاب الأمة في فترة انتكاسها لا يكون بالتسول على موائد الغرب لاستجلاب النظم والدساتير والأفكار.. إن العلم والتكنولوجيا تُسْتَجْلَب، نعم ولا حرج في ذلك —مع الاحتراز من الروح اللادينية التي يقدّم بها العلم في الغرب، والتي تمارَس بها التكنولوجيا– أما الأفكار والنظم والدساتير فهي من أمور العقيدة وأمور الشريعة وهذه ليس لمؤمن أن يتلقى فيها من عند غير الله:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[1].

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)[2].

إنها قضية خطيرة، ليست قضية "تبادل ثقافي!" كما يزعم المنهزمون أمام الغرب.. إنما هي قضية كفر وإيمان. إما أن نكون مسلمين، فنأخذ شريعتنا ودساتيرنا من كتاب الله وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– وإما أن نكون قد خرجنا من دين الله!

وحين نركز على هذه المعاني نكون قد أخذنا العبرة من فترة الانتكاس، وتكون هذه العبرة زاداً في الطريق.

([1]) سورة المائدة: 50.

([2]) سورة الأحزاب: 36.

الصحوة الإسلامية

الصحوة الإسلامية هي قدر الله الغالب، في وجه كل الجهد الذي يبذله أعداء الإسلام للقضاء على هذا الدين (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)[1].

لقد ظن المخططون والمنفذون من قِبَل الصليبية الصهيونية أن هجمتهم الأخيرة المخططة المدروسة المنظمة ستكون هي الضربة القاضية التي تقضي على آخر ما بقي في الإسلام من أنفاس، وتريحهم إلى الأبد من ذلك العدو الذي ظل يصارعهم ويصارعونه كل هذا المدى المديد من القرون.

ثم كانت المفاجأة لهم جميعاً هذه الصحوة التي تبشر (أو من وجهة نظرهم تنذر) بعودة الإسلام إلى الحياة من جديد!

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[2]!

كيف حدثت الصحوة بعد سبات مديد امتد أكثر من قرنين من الزمان؟!

أما نحن فلا نرى في ذلك غرابة على الإطلاق.. فالإسلام هو النبض الطبيعي لهذه الأمة. وليس العجب في نظرنا أن تعود الأمة إلى نبضها الطبيعي، إنما العجب –كان- أن تنحرف عنه، وتحاول أن تعيش بقلب صناعي ما أسرع ما يعطب، بدلاً من أن تعالج ما حل في قلبها من الأمراض، فتسترد عافيتها بقلبها الطبيعي الذي خلقه الله لينبض بالحياة السوية:

(فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[3].

أما هم فيستغربون، ويصل بهم الاستغراب إلى ح الدهشة، ثم يثور الحقد الدفين في قلوبهم أشد فورة من قبل، فيخططون للانقضاض من جديد!

([1]) سورة يوسف: 21.

([2]) سورة النمل: 50.

([3]) سورة الروم:30.

يستغربون، لأن التخطيط الذي خططوه، والجهد الذي بذلوه كان كافياً بالفعل للقضاء على ما بقي من بقايا الإسلام في نفوس الناس، لولا قدر الله الغالب الذي قدره الله لإبقاء هذا الدين حياً لا ينتهي إلى يوم القيامة:

"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين في الأرض إلى يوم القيامة.."[1].

ولنأخذ نموذجاً قطاعاً واحداً من تخطيطاتهم الشيطانية هو تحضيرهم لإنشاء دولة إسرائيل.

ففي سنة 1897م اجتمع المؤتمر الصهيوني برئاسة هرتزل في مدينة بال بسويسرا، وقرر ضرورة إنشاء الدولة اليهودية خلال خمسين عاماً.. فماذا فعلوا في تلك السنوات الخمسين؟

ذهبوا أولاً إلى السلطان عبد الحميد ليعرضوا عليه كل ما يغري حاكماً في الأرض ليستجيب إلى طلبهم، وهو إعطاء اليهود قطعة من الأرض ليقيموا عليها وطناً قومياً لهم في فلسطين..

عرضوا عليه رشوة شخصية خمسة ملايين من الجنيهات الذهبية كانت تساوي في حينها أضعاف أضعاف قيمتها الحالية، وكان من يملك مثلها يعتبر حينئذ من أغنياء العالم المرموقين!

وعرضوا عليه أن يتدخلوا لي: روسيا وبريطانيا وفرنسا لتكف عن إثارة الأقليات في داخل الدولة العثمانية، وكانت تلك الإثارة المستمرة من أشد ما تعاني منه الدولة، ما تكاد تنتهي من إخماد فتنة حتى تبرز لها فتنة جديدة، لكيلا تستقر أبداً ولا تلتقط أنفاسها.

وعرضوا عليه قروضاً طويلة الأجل لإنعاش الاقتصاد العثماني المتدهور[2].

([1]) أخرجه وأحمد وابن ماجه وأبو داود بنحوه.

([2]) كان الاقتصاد العثماني قد تدهور نتيجة الترف الذي عاش فيه السلاطين المتأخرون. وانظر على سبيل المثال قصر "ضولمة بهجة" –قصر السلطان عبد المجيد– الذي يحوي في داخله أربعين طناً من الذهب الخالص في أدواته ومرافقه وزخارفه! وقد سدد السلطان عبد الحميد كل ديون الدولة في فترة حكمه دون الاستعانة بالقروض، وكان يعمل بيديه للمشاركة في سداد الديون.

ولكن السلطان المسلم رفض كل هذه العروض المغرية، وقال لهم قولته الشهيرة: إن هذه ليست أرضي، ولكنها أرض المسلمين، وقد رووها بدمائهم، وفي كل شبر منها شهيد. ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها[1].

عند ذلك قرروا عزل السلطان عبد الحميد، وعزلوه بالفعل، وأتو بحزب الاتحاد والترقي، ومعظمه من يهود الدونما المتمسلمين ليتولى الحكم ويخطط لإزالة الخلافة..

ثم رتبوا لإشعال الحرب العالمية الأولى للقضاء على الدولة العثمانية، بعد أن أمسكوا ذراعي الكماشة التي يحصرون فيها الإسلام من الجانبين. فمن ناحية الأتراك أثاروا فيهم النعرة الطورانية، والدعوة إلى تتريك الدولة، والضغط على العرب واضطهاهم، ومن ناحية العرب أرسلوا إليهم لرونس ليشعل "الثورة العربية الكبرى!" ضد دولة الخلافة، تمهيداً لتفتيت الدولة ثم إعادة تفتيتها، واستغفلوا في سبيل ذلك الشريف حسين، ومنوه بما منوه به ليعلن الثورة، وليدمر الخط الحديدي الذي يصل اصطنبول بالمدينة المنورة، والذي كان من أعظم إنجازات عبد الحميد، وكان كذلك من أشد ما غاظ المخططين الصليبيين الصهيونيين. ولما دمر انقطع المدد الذي كان يمكن أن يسعف الدولة في حربها مع حلفاء الغرب، واحتجز ألوف من أفراد الجيش العثماني في المنطقة العربية وذبّحوا مع حلفاء الغرب، واحتجز ألوف من أفراد الجيش العثماني في المنطفة العربية وذبّحوا تذبيحاً.. وفي الوقت ذاته تحرك "الجيش العربي!" بقيادة اللورد أللنبي ليتمم تدمير الدولة، وهو الجيش الذي قال عنه أللنبي: لولا معاونة الجيش العربي ما استطعنا أن نتغلب على تركيا! والذي عاون الصليبية الصهيونية في احتلال القدس، فأروى غليل أللنبي وقال: الآن انتهت الحروب الصليبية[2]!!

ثم قسموا ما سموه "تركة الرجل المريض" بين بريطانيا وفرنسا، صديقتي اليهود، وشكلت في الأرض التي كانت أمة متحدة ودولة متحدة مجموعة من الدول الهزيلة الضعيفة المتنازعة المتنافرة، على رأس كل منها رجل يطمع في ملك أخيه، ويستعين بالصليبية الصهيونية على

([1]) كان رفض عبد الحميد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين من أسباب حقدهم عليه، وتشويه سمعته بما لم يسبق أن شوهت به سمعة حاكم في الأرض! ومؤرخونا مع الأسف ينقلون عن مصادرهم.. إلا من رحم ربك.

([2]) لم تكن الحروب الصليبية قد انتهت عند احتلال أللنبي للقدس عام 1917، ولا تنتهي تلك الحروب أبداً ما دام هناك إسلام في الأرض كما قرر ذلك العليم الخبير سبحانه: "وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ" [سورة البقرة: 217] ولكن كلمة أللنبي تدل على مقدار تغلغل الحقد الصليبي في قلبه، ومقدار تشفيه في المسلمين باحتلال القدس.

أخيه. ووضعت فلسطين بالذات تحت الانتداب البريطاني، ليعدّها لإنشاء إسرائيل فيها، في عهد بلفور اليهودي –وزير الخارجية البريطانية– الذي أدلى بتصريحه المشهور، وتحت إشراف المندوب السامي البريطاني –اليهودي– صمويل هَوَرْ.

وفي أثناء ذلك كان "الزعماء" قد عملوا عملهم في تحويل الأمة عن الإسلام تحت رايات القومية والوطنية، وكان كتاب و"مثقفون" قد تولوا ليّ أعناق المسلمين بعيداً عن الإسلام نحو أوربا، فحدثوهم عن مشكلات أوربا –لا عن مشكلاتهم هم!– وعن طريقة أوربا في حل مشكلاتها[1]! وعن الفكر الغربي، والثقافة الغربية، والحضارة الغربية، والقيم الغربية، والتقدم الغربي، وعن المرأة المتحررة في أوربا التي يرجى أن تتحرر المرأة "الشرقية" على مثالها! والتي تقوم الدعوة بالفعل إلى "تحريرها" من دينها وأخلاقها!

وتولت الصحافة، ثم تولت السينما، ثم الإذاعة (ولم يكن التليفزيون قد ظهر بعد) كما تولت الشواطئ العارية والصور العارية إتلاف ما عسى أن يكون قد بقي في نفوس الشباب من اهتمامات جادة، وتحويل ذلك الشباب إلى ميوعة وتفاهة وانحلال خلقي وسطحية في التفكير ولهث وراء المظاهر الفارغة التي لا تنشئ كائنات آدمية سوية لها ثقل في سير الأمور..

ثم لما جاءت الساعة الفاصلة عام 1947، بعد خمسين عاماً بالضبط من مؤتمر الصهيونية في سويسرا تحركت الدمى العسكرية –التي يعتمد تسليحها وتدريبها وذخيرتها على بريطانيا وفرنسا صديقتي اليهود –فمثلت أدوارها الملقاة عليها، ثم وقفت على خط التقسيم المتفق عليه سلفا بين "زعماء" المنطقة.. وولدت إسرائيل على أرض الإسلام!

أي تخطيط يمكن أن يكون أدق وأشمل وأخبث من هذا التخطيط..؟!

ورغم ذلك كله تقوم الصحوة؟!

* * *

إننا نهتم كثيراً بالصحوة الإسلامية، وندعو إلى إفراد فصل مهم لها عند إعادة كتابة التاريخ.. لجملة أسباب.

أولاً: لدلالتها الكبرى على أن الإسلام لم ينته كما زعم الزاعمون!

([1]) وهي إبعاد الدين وإحلال العلمانية اللادينية محله!

فقد كان أناس قد زعموا أن الإسلام قد انتهى منذ عهد الخلفاء الراشدين! وقد فندنا زعمهم في الفصول الأولى من الكتاب، وبينا أن حركة انسياح المسلمين في الأرض، ودخول شعوب بأكملها في دين الله، هي وحدها دليل كاف على أن الإسلام لم يكن قد انتهى بفتنة مقتل عثمان، ولا بالنزاع بين علي ومعاوية، ولا بانتهاء فترة الذروة، فقد كان باقياً بحيويته وفاعليته وقدرته على الامتداد في الأرض لا في صورة نظريات ولا شعارات، ولكن في صورة واقع تحمله أمة وتتحرك به.

وكان أناس قد زعموا أن الإسلام قد انتهى بانتهاء الدولة العربية الأموية، وأناس زعموا أنه انتهى بنهاية العصر العباسي، وأخيراً فقد ظن أناس أن الإسلام انتهى بنهاية الخلافة العثمانية وأصبح من ذكريات التاريخ. وهؤلاء الأخيرون كانوا أشد الناس اقتناعاً بصدق ظنهم، لأن كل دلائل النهاية كانت أمامهم، فلا الوجود السياسي للإسلام قد بقي في الأرض، ولا الوجود الفكري، ولا الوجود الأخلاقي، ولا حتى الوجود التقليدي الذي كان محافظاً عليه في القرنين الأخيرين من الدولة العثمانية بالرغم من الموت الذي كان قد سري في كل جانب من حياة الأمة الإسلامية..

ولكن هذه الظنون كلها لم تكن صحيحة..

فلم ينته الإسلام في أية أزمة من أزماته الحادة بما فيها تلك الأزمة الأخيرة التي كادت تقضي عليه، لأن قدر الله الغالب أن يبقى هذا الدين في الأرض إلى يوم القيامة.. وحين يقدر الله أمراً فإنه يهيئ له أسبابه:

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)[1].

والأسباب التي هيأها الله لبقاء الإسلام حياً بعد أزمته الحادة الأخيرة هي الصحوة الإسلامية.

والحق أن الحركة الأم لهذه الصحوة كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، ولو قدر الله للأمة أن تستيقظ على هدي هذه الحركة لتغير التاريخ.. ولكن الأمة – في حينها– لم تكن على استعداد لأن تصحو! كانت غارقة في السبات العميق، فخيل إليها حينئذ أن صيحة الشيخ المجلجلة كانت كابوساً مزعجاً، سرعان ما أصمّت عنه أذنيها، وأغمضت عينيها مرة أخرى وأسلمت نفسها للرقاد!

([1]) سورة الطلاق: 3.

ووقع الصدام بين حركة الشيخ وبين الأمة الغافية في قضيتين اثنتين على الأقل، قضية الصوفية، وما حولها من عبادة الأضرحة والأولياء والمشايخ والتشبث بالخرافة، وقضية التوسل برسول الله —صلى الله عليه وسلم- فضلاً عمن هم دونه من موتى المسلمين.. وكانت كلتاهما من المسلمات عند الناس، التي لا يجادل فيها إلا خارج من دينه! فوقع الصدام حاداً بين ما يدعو إليه الشيخ من تصحيح العقيدة، وبين ما كان يرى الناس وقتها أنه هو العقيدة الصحيحة! ثم جاءت الظروف السياسية فمدت فترة الانحراف في حياة الأمة إلى حين. فقد وُجِد من يغري السلطان بالحركة على أساس أنها تمرد سياسي وليس حركة تصحيحية يراد بها إخراج الأمة من ضلالاتها وردها إلى الدين الصحيح. ويخطر في ظني —وإن كان هذا أمراً يحتاج إلى تحقيق تاريخي ليس بين يديّ الآن أدواته —أن الصليبية الصهيونية كان لها دور في إيغار صدر السلطان على الحركة، لأن محمد علي —صنيعة فرنسا- عرض نفسه وخدماته للقضاء على الحركة الوهابية في الجزيرة، فاستخدمه السلطان بالفعل[1].. ومحمد علي لم يكن يحب السلطان. وهو الذي حاربه بجيوشه التي دربتها فرنسا وسلحتها، وكاد يتغلب عليه في إحدى المعارك[2] ولم يكن يحب الإسلام، وهو الذي بدأ تيار التغريب في مصر بتوجيه فرنسا! لذلك يخطر في ظني أن فرنسا —وكان لها حظوة عند السلاطين منذ سليمان القانوني- هي التي أغرت السلطان باستخدام محمد علي وأبنائه في القضاء على تلك الحركة الخطرة التي يمكن أن توقظ المسلمين، بينما الصليبية الصهيونية تُعدّ لذبحهم وهم غافلون!

وأيا كان الأمر، فقد بدا —إلى حين- أن الحركة قد ماتت في مهدها، وانحصرت في داخل الجزيرة العربية. وكان هذا وهما آخر من الأوهام المتعددة التي توحي بالموت وتُعرض عن بشائر الحياة! إنما كانت الحركة تنبض بالحياة الكامنة في قلبها، حتى أتاح لها قدر الله أن تنشر فروعها في حركات اليقظة الإسلامية التي تمثل الصحوة الإسلامية المعاصرة، وتمتد إلى كل أرجاء العالم الإسلامي..

([1]) محمد علي ودوره في محاربة الإسلام موضوع ذو أهمية بالغة، ولم يأخذ حظه من الدراسة بعد، وأرجو أن يتوجه إليه الباحثون المسلمون لتجلية هذا الدور على حقيقته ببحث علمي مؤيد بالوثائق.

([2]) تدخلت بريطانيا لوقف هجوم محمد علي، وإبرام معاهدة كوتاهية التي تعهد فيها محمد علي بعدم التعدي على سلطان الخلافة، في مقابل أن يكون له ولورثته حكم مصر مع الولاء الاسمي للسلطان. ولم يكن تدخل بريطانيا لحماية السلطان ولا الخلافة من العوان! إنما كان لأنها لم تكن قد أعدت نفسها حينئذ للسيطرة في المنطقة، فخشيت أن تستأثر فرنسا وحدها بالأسلاب!! فأخرت انهيار الدولة العثمانية ريثما تستعد هي! فلما استعدت اتفق "الخلفاء" على تدميرها في الحرب العالمية الأولى وخرجت بريطانيا بنصيب الأسد!

ومن أجل هذه الدلالة قبل كل شيء –دلالة الصحوة على أن الإسلام لم ينته، وأنه ما زال ينبض بالحياة– نقول إنه لا بد من إفراد فصل خاص عنها عند إعادة كتابة التاريخ، فإنه لم يقدّر لأمة أخرى غير الأمة الإسلامية أن تظل حية بعد كل ما أصابها من الآفات واالنكسات، ومردّ ذلك إلى طبيعة هذا الدين، وأنه دين الفطرة، وأنه الدين الذي حفظ الله أصوله، وأنه الدين الذي قدّر الله له أن يأخذ صورته التطبيقية في واقع مشهود في الأرض امتد في الزمن بضعة قرون.. فأصبح ذلك كله رصيداً حياً مذخوراً يستمد منه كل قلب فتح الله بصيرته على الحق.. فما هي إلا أن يقبس قبسة من الشعلة المقدسة حتى يشتعل ويتوهج، ويتحرك لتحقيق هذا الدين في عالم الواقع!

وتلك الدلالة وحدها تستحق أن توجه إليها الأنظار.

* * *

كذلك لا بد من إفراد فصل خاص عن الصحوة الإسلامية من أجل دلالتها التاريخية..

فقد جاءت –من جهة– بعد كل الجهد الذي بذلته الصليبية الصهيونية في القضاء على الإسلام.. وجاءت –من جهة أخرى– في الوقت الذي تؤذن فيه الجاهلية المعاصرة على الانهيار. ولكل من الأمرين دلالة تاريخية.

فأما الأمر الأول فدلالته أن هذا الدين مقدر له أن يبقى..

فلو كان في تقدير الله أن ينتهي هذا الدين –وهو سبحانه الذي يقدّر وليس البشر– فقد كان الكيد الأخير للصليبية الصهيونية قمينا بأن يقضي عليه القضاء الأخير.. فقد كان الكيد محكماً، وكانت الأمة في الوقت ذاته في أقصى درجات ضعفها، لأنها كانت في أقصى درجات انحرافها عن حقيقة الإسلام، فكانت هذه فرصة مواتية للقضاء على الإسلام، ولقد كان هذا هو ظن المخططين وهم يرسمون الخطط الدقيقة ثم ينفذونها بكل دقة، وهم آمنون من تدخل أي قوة أرضية في تنفيذ مخططهم.

وكانت قمة التخطيط هي الإتيان بكمال أتاتورك لإزالة الخلافة، وإضفاء البطولات الزائفة عليه حتى يمر عمله الشرير في صورة إصلاح وإنقاذ لا تدمير وإفساد، مع العمل الدائب –السابق– لإخراج مصر من إسلامها عن طريق الغزو الفكري وحركة التغريب..

ولكن الله يقدر الأقدار، كان قد قدّر غير ذلك! فكان هذا العمل ذاته، الذي أريد به القضاء على الإسلام، هو الذي بعث حسن البنا ليقوم بحركته التاريخية! فقد قال في نفسه،

إذا كانت الخلافة قد زالت فلماذا لا نسعى لإيجادها من جديد؟! وأنشأ من أجل هذا الهدف جماعته التي بعثت الحركة في مساحة غير قليلة من العالم الإسلامي..

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)[1].

ثم لو كان في قدر الله أن يموت هذا الدين وينتهي من الأرض، فقد كان فيما قامت به الصليبية الصهيونية على يد عملائها للقضاء على الصحوة الإسلامية ما هو قمين بالقضاء عليها..

لقد كانت المفاجأة بعد أن تم التخطيط لإقامة الدولة اليهودية على أرض الإسلام[2]، وقامت مسرحية الدمى العسكرية التي انتهت بالوقوف عند خط التقسيم المتفق عليه سلفا.. كانت المفاجأة المذهلة هي اشتراك الفدائيين من الإخوان المسلمين في حرب فلسطين. وما إن اشتبك معهم اليهود في بعض المعارك حتى عرفوا على الفور أنهم شيء آخر غير الدمى العسكرية التي جاءت تقاتلهم لأمر متفق عليه من قبل! فكانت صيحة "الله أكبر ولله الحمد" تفزعهم عن مضاجعهم فيفرون من معسكراتهم تاركين سلاحهم ومؤنهم وذخيرتهم طلباً للنجاة!

عندئذ تقرر أنه لا بد من إبادة هذه الجماعة من أجل إنشاء إسرائيل واستقرارها في الأرض فضلاً عن توسعها المطلوب في المستقبل!

وجيء من أجل ذلك بالانقلابات العسكرية تحكم المنطقة، وتُحكم قبضتها على الأرض الإسلامية لتقتل فيها الإسلام، مقتدية بإمام الكفر الأكبر كمال أتاتورك، وعملية لذات الجهة التي نصبت أتاتورك من قبل، وهي الصليبية الصهيونية.

وقامت الانقلابات العسكرية –في ظل البطولات المفتعلة– بتعذيب المسلمين وتقتيلهم وتشريدهم ببشاعة لا مثيل لها في التاريخ إلا ما ارتكبته محاكم التفتيش في الأندلس من قبل

([1]) سورة الطارق:15-17.

([2]) من خبائث الكيد أن تسمى المنطقة التي أقيمت فيها إسرائيل وما حولها مما تريد إسرائيل أن تصل إليها لتكوين إسرائيل الكبرى منطقة "الشرق الأوسط" لإزالة صبغتها الإسلامية العربية. فإنها إن بقيت إسلامية –أو حتى عربية– فلا مكان لإسرائيل فيها. أما حين تصبح منطقة جغرافية فكل من هب ودب يستطيع أن يجد له مكاناً فيها!

للقضاء على الإسلام.. ولا بد للمؤرخ المسلم أن يسجل بشاعة تلك الأحداث بتفصيل واف[1].

فلو كان في قدر الله أن تموت الصحوة الإسلامية لكان هذا التعذيب الوحشي قمينا أن يقضي عليها، فإنه أبشع بكثير مما تحتمل طاقة البشر[2].. ولكن الذي حدث بالفعل أن كل مذبحة تقام للمسلمين، تعقبها موجة جديدة من الشباب المؤمن، تقتحم العقبة، وتجنّد نفسها لقضية الإسلام، وهي تعلم سلفا ما يراد بها وما هي معرضة له من التعذيب والتقتيل والتشريد.. وتلك سنة ربانية يغفل عنها الطغاة دائماً وهم يقومون بما يوحي إليهم الشيطان من الخبائث.

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)[3].

تلك قضية الأبد بين المؤمنين وأعداء الدين..

والدلالة التاريخية الواضحة هي أن كل ما فعله المجرمون بالصحوة كان كأنه إمداد جديد للصحوة، يزيدها اشتعالاً كلما أريق دم جديد.

ومن الجهة الأخرى فإن الصحوة –كما قلنا– تأتي والحضارة الأوربية الجاهلية تؤذن بالانهيار..

([1]) يُختار أصحاب الانقلابات العسكرية لصفات معينة لا بد أن تتوفر فيهم: جنون العظمة، وقسوة القلب، وكره الإسلام. فإذا توفرت هذه الصفات في أحد فإنه ينطلق من ذات نفسه في التنكيل البشع بالمسلمين، فيتحقق هدف الصليبية الصهيونية من أيسر سبيل.

([2]) تقع حوادث التعذيب البشع على مسمع ومرأى من "العالم الحر" فلا يتحرك، ما دام المعذبون مسلمين، بينما تهيج الدنيا وتحتج لجان "حقوق الإنسان" إذا مُسّ واحد من النصارى أو اليهود أو عبدة الأوثان!

([3]) سورة البروج: 4–11.

إن هناك قدراً ربانيا يدبر الأحداث من وراء كيد البشر كله.. والسنن الربانية التي لا مرد لها آخذة طريقها نحو غايتها المقدرة.

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[1].

لقد كفرت أوربا كفراً لم تكفره البشرية من قبل، وفتح الله عليهم أبواب كل شيء، فتنة واستدراجاً لهم:

(سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)[2].

ثم تمضي السنة ويأتي الانهيار.. بغتة أو على تخوف وانتظار:

"أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ"[3].

والقوم اليوم على خوف.. وعقلاؤهم يحذرونهم من مغبة الاستمرار على ما هم عليه، وأنه لا نتيجة ترجى من ذلك إلا الدمار.. والله سبحانه يأخذهم بالطريقة التي قدرها في علمه.. إنما الذي يهمنا هنا أنه في الوقت الذي بدت فيه بوادر الانهيار –كما يرى عقلاؤهم أنفسهم –تولد الصحوة الإسلامية بقدر من الله. والدلالة التاريخية واضحة في هذا الأمر، فهذا منعطف من منعطفات البشرية التي يتغير بعدها التاريخ[4].

* * *

كذلك نحتاج أن نبرز أمر الصحوة عند إعادة كتابة التاريخ، لأننا نعتقد أنها هي الحل لكل مشكلات العالم الإسلامي الراهنة.

---

(1) سورة الأنعام: 44-45.

(2) سورة القلم: 44-45.

(3) سورة النحل: 45-47.

(4) سنتكلم عن هذه النقطة في الفصل القادم.

فإذا افترضنا جدلاً أن مشكلة العالم الإسلامي هي التخلف العلمي والمادي والحضاري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي.. الخ. ونحن لا نوافق على أن هذه هي المشكلة، إنما المشكلة هي التخلف عن حقيقة الإسلام، الذي نشأت عنه كل ألوان التخلف المذكورة آنفا.. نقول إذا افترضنا جدلاً أن المشكلة هي هذه الألوان من التخلف فإن علاجها لن يتأتى بغير العودة إلى الإسلام!

وقد يبدو هذا القول عجيباً عند "المثقفين" على الطريقة الغربية، الذي يرون أن الدين هو سبب التخلف، وأن العودة إليه هي الكارثة التي يمكن أن تهوي بالأمة إلى الحضيض!

ولكنا نقول إن تجربة قرن كامل من الزمان –أو أكثر من قرن في بعض بلاد الإسلام[1]– ذات دلالة لا يمكن تجاوزها. فخلال تلك الفترة كانت بلاد العالم الإسلامي تحاول "القضاء على التخلف" وتتخذ لذلك الوسائل التي تظنها موصلة إلى تحقيق الهدف، فتفتح المدارس والجامعات، وتنشئ العمائر، وتفتح المصانع التي تتيح لها إمكانياتها أن تفتحها، وتفتح المسارح ودور السينما ودور الإذاعة ودور التليفزيون ودور "الأوبرا" والمراقص والملاهي الليلية، وتعلم المرأة على برامج الرجل، وتعدها للعمل خارج البيت، وينشئ معظمها البرلمانات، ويُدْخل فيها بعض النائبات، ويتخذ بعض الوزيرات في الحكومة، وينشئ السفارات في الخارج وينفق عليها ببذخ.. إلخ.. إلخ. فهل زال التخلف أم ازدادت مساحته؟!

وحين تبرز هذه الحقيقة التي لا سبيل إلى إخفائها أو إنكارها، يتعللون بشتى المعاذير، إلا السبب الذي يكرهون ذكره لأنه يؤذيهم في ذوات أنفسهم.

إن العبد المقلد لا ينجح في عظائم الأمور لأنه لا ذاتية له، ولا هدف يتوجه إليه بدافع من نفسه. والنهوض بالبلاد –أي بلاد– هو من عظائم الأمور التي لا يصلح لها "العبد" المقلد، إنما يصلح لها "السيد" صاحب الشخصية الذاتية والهدف الذاتي.

العلم هو العلم.. ولكن العبد يتعلم منه القشور والسيد ينفذ إلى اللباب.

والحضارة –من حيث مظاهرها– هي الحضارة. ولكن العبد يمارسها لشهوة التقليد، والسيد يمارسها لأنها ذات دلالة معينة بالنسبة إليه، فهو يقوم بالعمل ويستحضر في نفسه في الوقت ذاته معناه.

([1]) في مصر على سبيل المثال بدأت التجربة منذ الحملة الفرنسية أي عام 1798م، وهي مستمرة حتى اللحظة، ونتائجها غاية في الوضوح!

المصنع من حيث آلاته هو المصنع، ولكن العبد –ما لم يكن السيد الآمر فوق رأسه– يقوم بعمله مستهتراً بغير حماس ولا عناية، لأنه بالنسبة إليه مجرد "تأدية واجب!" يرتزق عن سبيله. ولكن السيد يشعر أن العمل جزء من كيانه فيتقنه، ويجد نفسه بمقدار ما يتقن عمله ويتفانى فيه.

وقس على ذلك في جميع المجالات.

ومن أجل ذلك ينجح السيد في القيام بعظائم الأمور، ولا ينجح العبد.. لا لنقص في إمكانياته! ولكن لنقص في تركيبه النفسي، منشؤه أنه لا ذاتية له، ولا هدف يتوجه إليه بدافع من نفسه!

كيف نعالج هذا المرض الخطير؟ بمزيد من التقليد؟! بمزيد من التبعية للغرب؟! بمزيد من من فقدان الذات؟!

إنما علاجه أن تكون لنا ذاتية مستقلة، وأهداف ذاتية، وعندئذ تنجح في عظائم الأمور لأننا لن نكون عبيداً مقلدين، بل سادة نحسّ بقدر أنفسنا ونؤمن بذاتيتنا ونسعى بجدية لتحقيق أهدافنا.

عندئذ ينفع العلم أضعاف أضعاف ما ينفع اليوم، وتنفع المصانع، وتنفع العمارة، وتنفع الجامعات والمدارس لأن "الإنسان" فيها يكون قد تغير، وأصبح قادراً على بذل الجهد، قادراً على المثابرة، وقادراً من ثم على بلوغ الأهداف.

وهل هناك ذاتية للمسلم أكثر من إسلامه؟!

هل هناك بناء نفسي أكثر أصالة من البناء على منهج الإسلام؟!

حين يعود المسلم إلى إسلامه يسترد ذاتيته المفقودة، فيخوض الخضم بلا تردد، ولا هزال، ولا عدم مبالاة!

لقد كانت مصر واليابان ذات يوم متأخرتين على مستوى واحد أو متقارب، ودخلنا الخضم في وقت واحد أو متقارب.. فمضت اليابان في الشوط حتى سبقت السابقين الذين تتلمذت عليهم من أهل الغرب، وتعثرت خطوات مصر، وتخاذلت، وانتكست عدة مرات.. لماذا؟

أحست اليابان بالحاجة إلى النهوض وهي محتفظة بذاتيتها، فأعطت من نفسها العزيمة المطلوبة، وبذلك الجهد المطلوب. وأحست مصر بالحاجة إلى النهوض وهي مسلوبة الشخصية، فلا شخصيتها الإسلامية كانت حية تدفعها إلى العمل، ولا اكتسبت —وهي في موضع التقليد– ذاتية مستقلة، لأن التقليد يقتل الذاتية ولا ينميها، ومن ثم ظلت في مكانها، أو تحركت خطوات متخاذلة متعثرة، لا توصل إلى شيء ذي بال..

هل هناك علاج غير الإسلام؟!

مَنْ أوائل الطلبة والطالبات في معظم الأحوال؟ إنهم المسلمون الملتزمون بالإسلام!

مَن النوابغ في الطب والعلوم والهندسة في معظم الأحوال؟ إنهم المسلمون الملتزمون بالإسلام!

مَن البارزون في كل عمل وفي كل مجال في معظم الأحوال؟ إنهم المسلمون الملتزمون بالإسلام؟

مَن الناجحون في المشروعات التي تدر الأرباح —مع الأمانة– وتشغل الأيدي العاملة، وتمنح موظفيها وعمالها ومساهميها بركة في حياتهم، وطمأنينة ونظافة وراحة بال؟ إنهم المسلمون الملتزمون بالإسلام!

تلك تجربة واقعية تعرفها المدارس والجامعات، وتعرفها المصانع والمؤسسات.. وتعرفها "الحكومات" التي تحارب الإسلام!

من أجل ذلك نستبشر بالصحوة أن تكون هي التي تعالج المرض المتأصل، مرض فقدان الذاتية، الذي أصاب الأمة أولاً من بُعدها عن الإسلام، ثم تعمق في حسها عن طريق التغريب، الذي انتهى إلى التقليد.

إن الصحوة تتميز —في هذا المجال– بمزيتين عظيمتين: العودة إلى الإسلام من منابعه الصافية من كتاب الله وسنة رسوله —صلى الله عليه وسلم– وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم، لا من الركام الذي تراكم خلال القرون وغشي على صفاء الدين الرباني، ومع ذلك كان الناس يأخذونه على أنه هو الإسلام! والمزية الثانية هي موقفها المتنور المتوازن من "الحضارة الغربية".

ليس كل ما عند الغرب مرفوضاً لمجرد أنه آت من الغرب. وليس كل ما عند الغرب مقبولاً لمجرد أنه آت من الغرب!

في تلك الحضارة –وهي حضارة جاهلية بيقين[1]– أشياء كثيرة نافعة، المسلمون في أشد الحاجة إليها لأنهم فقدوها أو تخلفوا عنها في فترة السبات الطويل: التقدم العلمي والتكنولوجي. الجلد والمثابرة على بذل الجهد. عبقرية التنظيم. الروح العلمية الموضوعية في تناول الأمور.

وفي تلك الحضارة الجاهلية أشياء كثيرة سامة مهلكة: الإلحاد، والفساد الخلقي، والروح المادية الحسية التي تتنكر لعالم الروح، والاستغراق في متاع الأرض، والتشريع بغير ما أنزل الله، وتفكك الأسرة، وفساد الفطرة والانتكاس الحيواني.

ومن ثم فإن الرفض البات لكل ما يأتي من عند الغرب، كتقبل كل شيء يأتي من الغرب.. كلاهما موقف خاطئ وغير متوازن. إنما الموقف الصحيح هو الانتقاء.. ننتقي ما نحن في حاجة إليه ونرى أنه لا يخالف عقيدتنا ولا شريعتنا ولا أخلاقنا ولا تقاليدنا، ونبذ ما دون ذلك لأنه إما مصادم للعقيدة وإما مصادم للشريعة. والعقيدة والشريعة هما الدين!

والصحوة الحالية تقف هذا الموقف المتنور المتوازن، فتدعو إلى الاستفادة مما عند الغرب من تقدم مادي وعلمي وحضاري، وفي الوقت ذاته تحذر من الذوبان في شخصية الغرب، الذي يؤدي إلى الخروج من الدين.

بمثل هذه الروح يمكن للعالم الإسلامي أن يحل مشاكله. فحين يسترد ذاتيته المفقودة، سيكون أقدر على الاستفادة من تقدم الغرب المادي والعلمي، أضعاف أضعاف ما يستفيده اليوم وهو في موضع التقليد كالعبيد.. وعندئذ يتقدم، ويتغلب على "التخلف" الذي يرى بعض الناس أنه هو العقدة، ويرى بعضهم أنه العقدة التي لا تحل!

المطلوب عزيمة، وقدرة على الرؤية الصحيحة، وجلد على بذل الجهد، وتعاون لبلوغ الهدف المشترك.. وكل ذلك خصائص إسلامية أصيلة، اكتسبتها الأمة ذات يوم حين كان الإسلام راسخاً في نفوسها، وفقدته حين فقدت جدية العمل به، وتكتسبه اليوم وغداً حين تعود عودة صادقة إلى الإسلام.

([1]) أشرنا في ثنايا الكتاب إلى المقصود من مصطلح الجاهلية كما ورد في القرآن الكريم.

* * *

وأخيراً فإنه لا بد عند إعادة كتابة التاريخ من إفراد فصل عن الصحوة الإسلامية لأن تاريخها لم يسجل، إنما الذي سجل في معظم الأحيان هو كلام الأعداء!

لقد شُوِّهت صورة الصحوة لأسباب مفهومة!

فالذين يهمهم الأمر من صليبيين وصهيونيين –وأتباعهم الذين يأتمرون بأمرهم– كانوا قد ظنوا أنهم استراحوا إلى الأبد من اسلام، وانهم قضوا عليه قضاء لا رجعة فيه. فلما فوجئوا بالصحوة بعد كل الجهد الذي بذلوه حنقوا عليها بأكثر مما كانوا يحنقون على التاريخ السابق كله، وتحرك الحقد الصليبي الصهيوني في نفوسهم بما يوازي أربعة عشر قرناً من الزمان!

ولذلك جهدوا في تشويه صورتها لعلم يقفون مدها ويحصرونها توطئة للقضاء عليها.

وهل يستغرب هذا الموقف؟!

أليس هو ابتداء موقف كل جاهلية من قضية لا إله إلا الله؟

فإذا أضيف إليه حقد اليهود والنصارى المخزون في نفوسهم، الذي يقول عنه "ولفرد كانتول سميث" إن أوربا لا تستطيع أن تنساه[1]، وحقد العبيد من المستغربين، الذي لقنهم الصليبيون الصهيونيون إياه، فقد اكتملت الأسباب التي تدفعهم جميعاً إلى تأجيج حملة التشويه والتنفير من الصحوة الإسلامية، التي تهدف في الحقيقة إلى التنفير من الإسلام!

إن الصحوة هي البديل الثالث الذي أخفوه عن المسلمين عمداً حين وضعوهم في ذلك الخيار الصعب: إما أن تظلوا مسلمين وتظلوا في الوقت ذاته متخلفين، وإما أن تنبذوا الإسلام وتتجهوا إلى أوربا لتتقدموا وتتحضروا وتنطلقوا.

فلما جاءت الصحوة التي تنادي بالتقدم والتحضر والانطلاق بالإسلام وفي رحاب الإسلام، كان طبيعياً أن يكرهوها ويحاربوها لأنها تحدث ثغرة في تخطيطهم الذي قالوا للناس فيه لا محيص! وهي ثغرة تنذر بأن تتدفق الأمة الإسلامية من خلالها، وتعود للحياة من جديد! تعود بقلبها الطبيعي الفطري وتنبذ القلب الصناعي الفاسد، الذي عطب وانتكس عة مرات وأشرف بالأمة على الهلاك.

([1]) راجع شهادته التي ذكرناها من قبل ص179 من هذا الكتاب.

هل ينتظر منهم إذن أن يرحبوا بالصحوة، ويعطوها قدرها، وينصفوا أصحابها؟!

ثم تجيء أخطاء العاملين في الحقل الإسلامي –وقد وقعت أخطاء كثيرة بالفعل– فتعطي الأعداء سلاحاً هائلاً لمهاجمة الصحوة: إننا لا نحارب الإسلام! إنما نحارب الانحراف!

في مبدأ الأمر كان الهجوم على الصحوة يتم باسم محاربة الرجعية! فلما بليت اسطوانة الرجعية ولم تعد تقنع أحداً، بحثوا عن تعلة أخرى، فقالوا: خونة! يتآمرون مع أعداء البلاد! وكانت قمة المضحكات –وشر البلية ما يضحك– اتهامهم بالعمالة لليهود!! بينما المذابح التي تجري فيهم تتم ابتداء لحساب اليهود!! فلما بليت اسطوانة الخيانة ولم تعد تقنع أحداً، وجدوا صيحة جديدة: إننا لا نحارب الإسلام، وإنما نحارب التطرف، ونحارب الإرهاب!

ولن تنتهي الحرب: (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ)[1].

ولا شك أن الجماعات الإسلامية العاملة في الحقل الإسلامي قد وقعت في أخطاء في أثناء تحركها –ومَنْ مِنَ البشر لا يخطئ؟! –ولكن الحرب الواقعة عليها ليست بسبب الأخطاء التي وقعت منها، بل لو سلمت من الأخطاء جميعاً لكانت الحرب عليها أشدّ!

وقعت هذا الحادثة "الطريفة" في السجن الحربي بالقاهرة.

كان قد قبض على مجموعة من المنتسبين إلى "الجمعية الشرعية" وهي جماعة لا تشتغل بالسياسة على الإطلاق، لأنهم "ضبطوا" في صلاة العيد يرددون ".. الله أكبر ولله الحمد" فظن "الأذكياء" أنهم من جماعة الإخوان المسلمين فاعتقلوهم وأودعوهم السجن الحربي مع الإخوان.. وفي أثناء تعذيبهم اشتد الضرب على أحدهم فصاح من الألم: "والله لست من الإخوان ولا صلة لي بهم!" فقال له المكلف بالتعذيب: "من أين أنت إذن؟" قال: من الجمعية الشرعية. قال: "كلكم مسلمون أولاد..." واستمر في التعذيب!

إن الذي يحارب في الحقيقة هو الإسلام.. وتتنوع الاتهامات وتبقى التهمة الحقيقية هي الإسلام:

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[1].

([1]) سورة البقرة: 217.

وموقف المؤرخ المسلم من هذه الأحداث أن يسجل الحقائق بلا تحامل ولا محاباة..

لا نجامل الجماعات الإسلامية حين تخطئ، فأي مجاملة ستكون على حساب الإسلام. ولا نداري على أخطائها، فكل مدارة على الأخطاء ستكون تضليلاً لمن يأتي بعدنا من الأجيال. وإذا كنا لم نقبل المجاملة والمداراة بالنسبة للأمويين ولا العباسيين ولا العثمانين رغم الحرص على إبراز إيجابيات تلك العهود كلها، فلا يجوز لنا كذلك أن نجامل أو ندارس على أخطاء الجماعات الإسلامية، وبعضها خطير.

ولكن تسجيل الأخطاء لا يجوز أن يكون دافعه التشويه والتشهير، فهذا لا يصدر عن المؤرخ المسلم في أي حال. إنما دافعه استخراج العبرة من الأحداث، لتكون تلك العبرة زاداً لما يستقبل من الطريق، كما كانت من قبل دراستنا لخط الانحراف خلال القرون.

وفي الوقت ذاته لا بد من تسجيل الإيجابيات التي يطمسها الأعداء طمساً وهم يتحدثون عن هذه الجماعات.

إن لكل جماعة من الجماعات العاملة في الحقل الإسلامي إيجابيات لا شك فيها، وإن وقعت منها أخطاء. والعمل الذي شاركوا فيه جميعاً –كل بقدره– وهو دعوة الأمة لتعود إلى نبضها الطبيعي، وتنبذ التخلف عن حقيقة الإسلام، الذي أوقعها في كل أنواع التخلف الأخرى.. هذا العمل وحده يستحق التسجيل والإشادة، ويكتب لهذه الجماعات عند الله. وهو رصيد الأمل بالنسبة للأمة الإسلامية التي تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، بعد أن أصبحت –كما وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم– غثاء كغثاء السيل..

أما الأخطاء فتُبَيَّن لترشيد الحركة الإسلامية ومعاونتها على الوصول إلى أهدافها..

وربما كان أشد هذه الأخطاء وضوحاً هو استعجال الطريق، قبل إقامة القاعدة الصلبة التي تحمل البناء، وقلة الوعي الحركي، الذي يحدد كيف تكون الحركة ومتى يحسن هذا الموقف أو ذاك، وقلة الوعي السياسي بمؤامرات الأعداء، مما يسهل على الأعداء "اصطياد" الحركات الإسلامية واستدراجها إلى مواقف تضرها أكثر مما تنفعها.

كذلك تركيز هذه الجماعات على مبدأ السمع والطاعة من أجل تنظيم حركتها أكثر من اعتمادها على الشورى كما كان يربي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أصحابه.

---

(1) سورة البروج: 8-9.

يطلب منهم الطاعة المطلقة ومع ذلك يكثر من مشاورتهم –وهو الذي ينزل عليه الوحي– ليربي منهم رجالاً يصلحون للتصرف في المواقف، ويكونون صفاً ثانياً من بعده –صلى الله عليه وسلم–.

وللحركة أولويات يجب أن تركز عليها. فنقطة البدء بالنسبة لها هي تصحيح العقيدة من كل ما أصابها من غبش في الماضي، سواء من جراء جهل الأجيال المتأخرة من المسلمين بحقيقة لا إله إلا الله، وانحرافهم عن مقتضياتها بتأثير الصوفية والفكر الإرجائي، أو بسبب ما دسه الأعداء من مفاهيم فاسدة عن الدين لإبعاد الشريعة الربانية عن الحكم وإيهام الناس أن إسلامهم لا يتأثر إذا رضوا بحكم غير حكم الله! فالمهمة الأولى للحركات الإسلامية أن تحدث عند الجماهير وعياً بأن التشريع بغير ما أنزل الله هو نقض للا إله إلا الله، وأن الرضى بتشريع غير شرع الله هو نقض للا إله إلا الله، يمس العقيدة مباشرة ويخرج الإنسان من دين الله، ليكون هذا الوعي ذاته سياجاً يقي الحركات الإسلامية من اغتيال الطغاة لها مستغلين جهل الجماهير بحقيقة لا إله إلا الله، وموهمين الناس أن الشرعية معهم، وأن المطالبين بتحكيم شريعة الله هم الخارجون على الشرعية!!

كذلك يجب على الحركات الإسلامية أن تجتهد في تربية القاعدة الصلبة الراسخة الإيمان المتخلقة بأخلاق لا إله إلا الله، التي تعطي الناس الصورة الصحيحة لأثر الإيمان في النفوس، والتي تكون هي القدوة التي تقتدي بها الجماهير الراغبة في الإسلام. فبغير هذه القاعدة بصفاتها تلك لن يتقدم العمل الإسلامي كثيراً بل يتعثر عند منحنيات الطريق وما أكثرها! وما أكثر العقبات القائمة في طريق الدعوة من الداخل والخارج سواء.

وليكن واضحاً للمؤرخ الذي يكتب عن الصحوة، وللمسلم العامل في حقل الدعوة، أن المطلوب من تلك القاعدة ليس أن تمثل الإسلام على أي مستوى كان، فهذا لا يكفي للمواجهة المطلوبة..

إن الذي تواجهه الدعوة الإسلامية اليوم ليس معركة محلية في بقعة معينة من الأرض، إنما هو الجاهلية العالمية كلها مجتمعة! الصليبية والصهيونية والإلحاد والوثنية، وعملاء هؤلاء جميعاً داخل الوطن الإسلامي. ولم تجتمع الجاهلية كلها وتحتشد لمواجهة الدعوة الإسلامية إلا مرتين اثنتين في التاريخ، مرة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم– وهذه المرة التي نعيشها في الوقت الحاضر، أما فيما بين ذلك فقد كانت المواجهة جزئية لا تشمل أرض الإسلام كلها ولا الجاهلية كلها.

وفي المرة الأولى –في الغربة الأولى للإسلام– تغلبت الدعوة الإسلامية على جاهلية الأرض المحتشدة، لا بالعدد ولا بالقوة، ولكن بالإيمان.. بالتمثيل الصادق لحقيقة الإسلام على أعلى مستوى عرفته الأرض. ونحن الآن في الغربة الثانية التي أخبر عنها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء"[1] وروى الترمذي: "فطوبى للغرباء يصلحون ما أفسد الناس من سنتي".

وفي المعركة الثانية كما في المعركة الأولى يواجه الإسلام دولاً وشعوباً عندها من القوة المادية أضعاف ما لدى المسلمين. ولكن الذي يقرر الغلبة في النهاية ليس هو القوة المادية –وإن كانت هذه مطلوبة بقدر الطاقة– إنما هو "ما ينفع الناس":

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ)[2].

والذي ينفع الناس" في الدنيا والآخرة معاً هو المنهج الرباني، الذي تكفل الله فيه بالهداية والطمأنينة والفلاح والبركة والتمكين في الأرض.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)[3].

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)[4].

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[5].

ولا بد أن يكون هذا المنهج ممثلاً في واقع بشري يراه الناس، ويرون الفرق بينه وبين الجاهلية، فيتركون الجاهلية وينحازون إليه، ويدخلون فيه. والقاعدة التي تنطلق منها الحركة مطالبة أن تمثل هذا الواقع في ذات نفسها على أعلى مستوى تستطيع أن تصل إليه، لتحمل "الجماهير" بعد ذلك وتتحرك بهم الحركة المظفرة بإذن الله.

([1]) أخرجه مسلم.

([2]) سورة الرعد: 17 .

([3]) سورة النور: 55.

([4]) سورة الأعراف: 96.

([5]) سورة الرعد: 28.

لذلك كانت عملية التربية –في القاعدة– مهمة إلى أقصى الغاية، لا يعجلنا عنها شيء من الأحداث العابرة فتتعجل الطريق!

تلك لمحات عن الصحوة الإسلامية في واقعها الذي تعيشه اليوم، يهتم بها المؤرخ المسلم عند إعادة كتابة التاريخ ويركز على دلالتها.. أما المستقبل فله حيث آخر!

خيوط المستقبل

لا ينتهي عمل المؤرخ عند اللحظة التي يعيش فيها، إنما يمد بصره دائماً إلى المستقبل فيتصوره على صورة من الصور، سواء أفصح عنها في كتابته أم أضمرها في نفسه.

والمستقبل غيب لا يعلمه إلا الله:

(قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)[1].

ولكن لله سننا تجري في حياة البشر يستقرئها من أراد أن يستقرئها، لا رجماً بالغيب، ولا يقيناً بأن شيئاً معيناً مما تصوره سيحدث في المستقبل القريب أو البعيد، إلا أن يكون وحياً من عند الله في كتابه المنزل أو على لسان رسوله –صلى الله عليه وسلم–.

والمؤرخ المسلم يتطلع إلى جولة ممكّنة للإسلام في المستقبل، لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– أخبر عن ذلك:

"لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود"[2].

هل نستطيع أن نرى بوادر هذه المعركة فيما يحدث اليوم على أرض فلسطين وفي داخل العالم الإسلامي؟

اليهود يتجمعون من فجاج الأرض على أرض المعركة، والمسلمون يستيقظون بعد سبات عميق..؟

ربما.. والغيب عند الله؛ هو الذي يعلم على وجه اليقين متى تقع المعركة، وهل هذا التجمع من قِبَل اليهود واليقظة من جانب المسلمين هي التي ستؤدي إلى المعركة الفاصلة، أم تجمع آخر ويقظة جديدة؟!

([1]) سورة النمل: 65.

([2]) أخرجه مسلم.

عبرة الحديث على أي حال ليست في معركة محلية تقع بين المسلمين واليهود في فلسطين، حددتها بعض روايات الحديث: "أنتم شرقي النهر وهم غربيه" فالأمر أكبر من ذلك بكثير، وأخطر من ذلك بكثير.

إن اليهود اليوم مسيطرون في كل الأرض.. إلا ما رحم ربك[1]. فإذا وقعت الواقعة وانتصر المسلمون ذلك النصر الحاسم الذي وعد به الرسول –صلى الله عليه وسلم– فلن ينحصر أثر الواقعة في أرض فلسطين التي تدور فيها المعركة، ولكنه يمتد إلى سلطان اليهود في كل الأرض، فإنهم لا ينهزمون تلك الهزيمة الحاسمة ثم يبقى لهم في الأرض ما لهم اليوم من سلطان..

وعندئذ تتغير قيادة البشرية..

* * *

إن الواقع البشري اليوم –كما أسلفنا– هو حصيلة انحسار الأمة الإسلامية عن الساحة.

من هذا الانحسار برزت أوربا الجاهلية، ومن الثغرات التي أوجدها نفور أوربا من الدين نفذ اليهود ثم سيطروا على الأرض. ووقع ذلك كله حسب السنة الربانية، وحسب وعد الله ووعيده[2].

واليوم تحدث بوادر تدل على أن الصورة في طريقها إلى التغير. ولكن التغير في التاريخ البشري لا يحدث بين يوم وليلة، إلا أن يكون قدراً خارقاً من عند الله. أما السنة الجارية فالزمن فيها بطيء الجريان:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)[3].

([1]) اقرأ إن شئت فصل "السيطرة العالمية لليهود" في كتاب "رؤية إسلامية".

([2]) فصلت الحديث عن هذا الأمر في كتاب "رؤية إسلامية".

([3]) سورة الحج: 47.

لقد بدأت بودار الانهيار في الدولة العثمانية منذ القرن الثاني عشر الهجري. ولكنها عاشت قرنين من الزمان قبل أن يحدث الانهيار الأخير. واليوم تبدو بوادر الانهيار في الجاهلية المعاصرة، ولا يعلم أحد على وجه اليقين متى يحدث الانهيار..

أما وقوعه –حسب السنة الربانية– فأمر محتوم. فهذه الجاهلية تحمل في أطوائها كل جراثيم الأمراض التي تفتك بالبشرية: الكفر بالله واليوم الآخر، والظلم والعدوان، والفساد الخلقي، والصراع المدمر.. والقلق والجنون والأمراض النفسية والعصبية..

صحيح أنها تحمل إيجابيات كثيرة أشرنا إليها من قبل، ومن شأن هذه الإيجابيات أن تبطئ الانهيار حسب سنة من سنن الله:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ)[1].

ولكن الانهيار سنة محتومة ما لم يفيء القوم من غيهم ويرجعوا إلى الله:

(فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ[2] بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[3].

وحين تنهار هذه الحضارة الجاهلية فما البديل؟ البديل الذي يُصْلح، لا الذي يزيد الفساد!

إن البديل الذي نتحدث عنه ليس انتقال مركز القوة من إحدى الدول الجاهلية إلى دولة أخرى كما كان الصراع قبل ظهور الإسلام بين الجاهلية الفارسية والجاهلية البيزنطية، وكما يمكن أن يحدث اليوم بين أمريكا والكتلة الأوربية، أو بين أمريكا وألمانيا بالذات، أو بينها وبين الصين أو اليابان.. كلها –في المصطلح القرآني– جاهليات.

إنما البديل الذي نقصده هو الذي يغير المنهج الفاسد الذي تعيش عليه الجاهلية المفتونة بعلمها وقوتها اليوم، ويستبدل به منهجاً صحيحاً يشفي ما حل بالبشرية المنتكسة من أمراض..

([1]) سورة هود: 15.

([2]) أي طغوا في الأرض بغير الحق.

([3]) سورة الأنعام: 43-45.

منهج يصحح فكرة الإنسان عن نفسه. إنه ليس حيواناً متطوراً كما زعمت الداروينية، ولكنه إنسان.. إنسان يشتمل على جسد وروح. والجانب الروحي فيه هو أثمن ما فيه، وأعلى ما فيه، وإن كان لا ينفصل أبداً عن الجانب المادي فيه.

ويصحح فكرة الإنسان عن الحياة. إنها ليست مجرد لهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد كما تراها الجاهلية. إنما هي تجربة هائلة لابتلاء ذلك "الإنسان": هل يستطيع أن يحفظ توازنه بين جواذب الجسد وهواتف الروح؟ بين المتاع والنظافة؟ بين الأهداف القريبة والقيم العليا؟ ثم إن حياة الإنسان لا تنتهي بانتهاء عمره المحدود على الأرض، وإلا كانت عبثاً، إنما يبعث الناس يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم في الحياة الدنيا.. وهناك تصل التجربة إلى نهايتها وتؤتي ثمارها، مُرّة سامة، أو حلوة جَنِية..

ويصحح فكرة الإنسان عن الكون. إنه ليس إلهاً، وليس خالقاً. إنه مخلوقا عابد لربه، يتحرك بأمر خالقه، ولا يخرج في سيره عما رسمه له مولاه. وهو ليس عدواً للإنسان، ولكنه مسخر بأمر ربه لمنفعة الإنسان.

ويصحح فكرة الإنسان –قبل ذلك كله– عن ربه العظيم، الذي خلقه، وسواه فعدله، وكرّمه وفضله، وخلق الكون كله وأجراه بمشيئته، والذي يستحق أن يعبد وحده ولا يعبد سواه.

ثم ينطلق الإنسان بعد تصحيح مفاهيمه الأساسية عن الله والكون والحياة والإنسان[1]، يعمر الأرض بما "ينفع الناس"..

هل هناك منهج يحقق ذلك إلا الإسلام؟!

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ، كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِراماً كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)[2].

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)[3].

(1) راجع مقومات التصور الإسلامي.

(2) سورة الانفطار: 6-12.

(3) سورة المؤمنون:115.

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ، مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ، إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[1].

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[2].

(اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[3].

والإسلام هو الذي يعطي "الميزان" الذي تنضبط به حياة الناس:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[4].

الميزان الذي يصحح انحرافات الجاهلية.

والجاهلية المعاصرة بالذات قد انحرفت في سلوكها وفي تصوراتها بأشد مما انحرفت أي جاهلية في التاريخ، فأنكرت وجود الله جهرة، وإن أقرت بوجوده نفت عنه صفة الخلق، وإن أقرت بأنه الخالق رفضت ألوهيته وحاكميته، فلم تعبده حق عبادته، ولم تنفذ شرعه، ولم تلتزم بمنهجه..

وقد كان دين بولس، والكنيسة الأوربية التي اعتنقته ومارست به الطغيان على الناس، عاملين مباشرين في انحرافات الجاهلية المعاصرة، إذ كانت ردود الفعل لهذا الطغيان عنيفة جارفة، جرفت في طريقها كل القيم التي كانت سائدة في عصر ما قبل النهضة، بما في ذلك

(1) سورة ص: 67-72.

(2) سورة فصلت: 9-11.

(3) سورة الجاثية: 12-13.

(4) سورة الحديد: 25.

الدين ذاته. وهكذا كانت الفترة الكنسية انحرافاً وردود الفعل التي أحدثتها انحرافاً آخر.. وكلا الانحرافين خطير!

لقد انتقلت أوربا من دين بلا حضارة إلى حضارة بلا دين! ومن دين بلا علم إلى علم بلا دين! ومن دين يقتل حيوية الناس بالرهبانية السلبية وإهمال عمارة الأرض، إلى حيوية عارمة تقتل الدين! ومن فكر يعتقد الثبات في كل شيء ويرفض إحداث أي تغيير في جانب من الحياة لأنه يخالف سنة الثبات، إلى فكر يعتقد التطور في كل شيء ولا يقر الثبات في شيء على الإطلاق[1]!

ويحتاج الناس اليوم –أكثر من أي وقت مضى– إلى "الميزان" الذي يصحح تلك الانحرافات، فيمنح الناس دينا يتقبل الحضارة، بل تتولد منه الحضارة، ويتقبل التقدم العلمي، بل يتولد منه التقدم العلمي، ويعطي الحيوية اللازمة لتعمير الأرض في كل اتجاه، مع الالتزام بالمنهج الذي يرفع الإنسان عن انتكاسات قبضة الطين حين تخبو فيها نفخة الروح، وفي الوقت ذاته يبيح الاجتهاد لإنشاء صور متجددة تدول حول المحاور الثابتة، فيتوازن الإنسان بين الثابت والمتغير، لا تجمد حياته فتأسن، ولا تنفلت حركته من الضوابط فيختل كيانه وتفسد فطرته.

وهل وجد هذا الميزان في غير دين الله، وخاصة في الرسالة الخاتمة التي قال الله فيها:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)[2].

* * *

الإسلام هو البديل من الجاهلية المعاصرة. ومن ذلك نرى أن ميلاد الصحوة الإسلامية في الوقت الذي تؤذن فيه الجاهلية بالانهيار قدر رباني له دلالته التاريخية..

إن الناس في الجاهلية المعاصرة قد وصلوا إلى درجة من الشقوة ربما لم يكن لها مثيل في التاريخ، على الرغم من كل التقدم المادي والعلمي الذي أحرزوه في الوقت الحاضر. والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة كلها دلائل على هذه الشقوة، سواء وعي الناس في الغرب ذلك أو لم يعوه. فالمريض قد لا يحس بمرضه ولكن العين

([1]) انظر تفصيل هذه القضية إن شئت في فصل "توقعات المستقبل" من كتاب "رؤية إسلامية".

([2]) سورة المائدة: 3.

الفاحصة تدركه. والنفس كالجسم تحتاج إلى غذاء معين روحي وعقلي وحضاري وفكري وأخلاقي، فإن لم تتناوله أصابها المرض كما يمرض الجسم إذا لم ينل حاجته المضبوطة من الفيتامينات أو البروتينات أو الأملاح..

والغذاء النفسي الذي تقدمه الجاهلية المعاصرة فاسد فاسد إلى أبعد الحدود.. سواء بالزيادة في بعض مواده أو النقص في بعض مواده، وكلاهما اختلال..

ودخول مئات الألوف من الأوربيين –المثقفين– والأمريكان في الإسلام ربما يكون إشارة إلى مستقبل معين يريده الله.. إشارة إلى بدء إدراك الناس من أولي الوعي في الجاهلية المعاصرة أن البديل من جاهليتهم هو الإسلام، والبديل من منهجهم الفاسد هو المنهج الرباني الذي يحتويه الإسلام..

ولو كان المسلمون اليوم على إسلام صحيح فلربما كان الداخلون في الإسلام من الغرب اليوم مئات الملايين بدلاً من مئات الألوف..

ولكن الصحوة تؤذن بالعودة بإذن الله إلى الإسلام الصحيح، مهما استغرق ذلك من السنوات. فأعمار الشعوب لا تعد بالسنوات وإنما تعد بالأجيال.. وعودة الأمة الإسلامية إلى إسلامها مبشر يبشر بالخير،، لا للأمة ذاتها فحسب. ولكن لكل البشرية..

* * *

ولكن الأمر ليس بالسهولة التي تنطلق بها الأماني، أو تكتب بها بالكلمات..

والطريق أمام الصحوة ليس مفروشاً بالورود.. إنما هو مفروش بالأشواك، مفعم بالدماء، غاصٌّ بالشهداء الذين يسقطون مضرجين بدمائهم على الطريق..

إن الأعداء في الداخل والخارج كثيرون، والحرب منصوبة في الداخل والخارج ضد الإسلام والمسلمين.

واليهود من أشد الأعداء..

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ..)[1].

(1) سورة المائدة: 82.

ويعلم اليهود أن معركتهم المقبلة ستكون مع الإسلام. فقد ذوبوا النصرانية وجندوها لخدمتهم بعد أن نصبوا من بين اليهود "بابا" يعلن تبرئتهم من دم المسيح[1]! وهم اليوم يستغفلون النصارى أيما استغفال ليجندوهم معهم في حرب الإسلام، مستغلين أحقادهم الصليبية الجاهزة للعمل دائماً ضد الإسلام، فيقولون لهم إن المسيح سيعود ويحكم العالم. ولكنه لن يعود حتى يبني الهيكل في مكان المسجد الأقصى! فأعينونا على المسلمين أيها النصارى لننزل لكم مسيحكم من السماء!

وهم يؤمنون جيداً بصحة حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي أشرنا إليه آنفاً، والذي يخبر فيه –صلى الله عليه وسلم– بالمعركة التي سينتصر فيها المسلمون نصراً حاسماً على اليهود، وقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله.. إلا شجر الغرقد فإنه من شجر اليهود.. وآية إيمانهم بصحته أنهم يكثرون الآن من زراعة شجر الغرقد في بساتينهم لعله يحميهم!

وإيمانهم بصحة الحديث، فضلاً عما خبروه في كل قتال وقع بينهم وبين المسلمين، سواء في وقت النبي –صلى الله عليه وسلم– أو في عام 1948، أو مع الانتفاضة الإسلامية في الفترة الأخيرة.. وفضلاً عن معرفتهم العميقة بهذا الدين التي قال الله عنها في كتابه المنزل (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ)[2].. كل ذلك جعلهم يجتهدون في محاربة الصحوة –مستعينين بحلفائهم الصليبيين– لعلهم يؤجلون قيامها على أقل تقدير إن لم يستطيعوا أن يقضوا عليها القضاء الكامل، ويجند كل منهما عملاءه في البلاد الإسلامية لحرب الإسلام بكل صنوف الحرب: بالتقتيل والتعذيب والتشريد، وشغل الحركات الإسلامية بقضايا جانبية لتنصرف عن عملها الأساسي في التربية والدعوة، ونشر المغريات أمام الشباب لينسوا ربهم وآخرتهم وينصرفوا عن الدين جملة، ورفع الرايات الكاذبة ليتجمع تحتها الناس بدلاً من تجمعهم تحت الراية الإسلامية.. بالإضافة إلى محاولة سحق العالم الإسلامي حربياً واقتصادياً وسياسياً حتى يظل مشغولاً بأزماته، مقهوراً لا يلتقط أنفاسه.. وبالإضافة إلى قتل حيوية الشعوب بشغلها بلقمة العيش تلهث وراءها ولا تكاد تحصلها، وقتل قيمها بكبت

(1) نعلم نحن المسلمين يقيناً من كتاب الله تبارك وتعالى أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب: "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ" [سورة النساء: 157] ولكن هذا لا يعفي اليهود من جرائمهم في حق المسيح، فقد ظلوا يضعون العقبات في طريق دعوته، ويحرضون ضده الحاكم الروماني ليأمر بصلبه حتى أمر بصلبه بالفعل ولكن الله رفعه إليه ونجاه من كيدهم. فالجريمة ثابتة في حقهم وإن كان الفعل الذي أرادوه لم يتم.

(2) سورة البقرة: 146.

المتطهرين فيها وإبراز من لا ضمائر لهم من المنافقين والوصوليين والساقطين.. وهذا كله إلى جانب ما تصنعه الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون والفيديو والشواطئ العارية من إفساد للأخلاق ونشر للتفاهة في محيط الشباب..

لذلك فالطريق ليس سهلاً أمام الصحوة الإسلامية، والمشوار طويل، والجهد المطلوب باهظ.. ولكن الجائزة هي الجنة..

* * *

هل الصحوة في طورها الحالي على مستوى المسئولية ومستوى الأحداث، عالمة بمهمتها، عاملة بما يجب عليها؟

هل يقدّر لها أن تؤدي دورها المرتقب لإنقاذ الأمة الإسلامية، فضلاً عن دعوة العالم كله إلى المنهج البديل؟ أم يقوم بهذا العمل آخرون لم يخرجوا إلى الوجود بعد؟!

غيب لا يعلمه إلا الله..

ولكن تظل الدلالة قائمة.. دلالة مولد الصحوة الإسلامية في الوقت الذي تؤذن فيه الجاهلية المعاصرة بالانهيار

وتظل الدلالة قائمة من جهة أخرى: أنه على الرغم من كل الحرب الضارية التي تشنها الكتلة اليهودية الصليبية وعملاؤها في العالم الإسلامي –أو ربما بسبب هذه الحرب ذاتها– تتسع دائرة الصحوة على الدوام، وتضم شباباً جديداً كل يوم!

وتظل الدلالة قائمة من جهة ثالثة، أن مزيداً من المثقفين في أوربا وأمريكا يدخلون كل يوم في دين الله!

* * *

ستكون الحرب ضارية ضد الصحوة الإسلامية، وسيسقط ضحايا كثيرون، وسيدخل الألوف والألوف في أتون العذاب.. وفي النهاية ينتصر الإسلام، ويستقبل جولة جديدة ممكنة في الأرض، كما أخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وكما يحذر الذين يفزعهم ذلك الأمر من اليهود والصليبيين!

والذين لا يؤمنون إلا بالمقاييس الحسية، ويقولون: أنى هذا؟! نقول لهم: انظروا إلى الجهاد الأفغاني.. هل كان أحد يتصور –بالمقاييس الحسية– أن هذا الشعب الأعزل يهزم أكبر قوة ضارية في العصر الحديث ويجبرها على الانسحاب من أرضه؟!

يقول "توينبي" في محاضرة له عن "الإسلام والمستقبل" إن الإسلام عرضة لأن يصحو من جديد ويتسلم قيادة الأمم المستضعفة الخاضعة للنفوذ الغربي في الوقت الحاضر (التي يسميها هو "الشعوب البروليتارية). وإنه قد انتصر من قبل انتصارات حاسمة وأثبت وجوده مرتين في صراعه مع الغرب: مرة في صدر الإسلام حين اكتسح الإمبراطورية الرومانية، ومرة أخرى في الحروب الصليبية حين رد الصليبيين على أعقابهم مدحورين. ثم يقول: إن الإسلام اليوم في غفوة طويلة تشبه غفوة أهل الكهف، ولكن الظروف العالمية يمكن أن توقظه ليتولي القيادة من جديد.

وختم محاضرته بقوله: "ونرجو ألا يحدث ذلك!"[1].

أترانا نقترب اليوم من النقطة التي أشار إليها توينبي؟!

هناك دلائل كثيرة تدل على ذلك..

فالأمم البروليتارية التي أشار إليها يقع معظمها في العالم الإسلامي.. والذي يتولى التصدي للنفوذ الصليبي الصهيوني فيها هو الحركات الإسلامية. والقوة اليوم في يد أعداء الإسلام يبطشون بها بالمسلمين بطشاً. ولكن المراقب للساحة يرى أن التيارات العلمانية المتأثرة بالغرب –والتي هي إحدى وسائل الحرب –يتناقص حجمها على الدوام، بينما يتنامى حجم التيار الإسلامي. فهل يستبعد –حين يصل التيار الإسلامي إلى درجة معينة من النضج والتمكن– أن يتولى القيادة، ويقود الحرب ضد الصليبية الصهيونية لتحرير المستضعفين في الأرض!

وهل يستبعد يومئذ أن يتغير الميزان العالمي لحساب الإسلام حين يتزايد الداخلون فيه من الغرب، بعد أن يثبت المجاهدون جدارتهم، ويعرضوا حقيقة الإسلام من خلال حركتهم؟!

{إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}[1].

([1]) انظر ترجمة المحاضرة في كتاب "الإسلام.. والغرب.. والمستقبل" ترجمة الدكتور نبيل صبحي (سبقت الإشارة إليه).

والله هو الذي يقدر الأقدار.. وليس اليهود ولا الأمريكان!

وحين يقول توينبي مدفوعاً بالحقد الصليبي: "ونرجو ألا يحدث ذلك" يقول المؤرخ المسلم: ندعو الله أن يحقق ذلك قريباً، لا من أجل إنقاذ الأمة الإسلامية فحسب، بل من أجل خير العالم كله، بما فيه بلاد توينبي نفسه، التي توشك على الانهيار!

وذات يوم –مقدّر في علم الله– تأتي الجولة الممكنة للإسلام، التي بشّر بها رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[2].

([1]) سورة الطلاق: 3.

([2]) سورة الروم: 4-6.

الفهرس

الموضوع

مقدمة

لماذا نعيد كتابة التاريخ؟

الجاهلية

الإسلام

البعثة وصدر الإسلام

المد الإسلامي

بدء الانحسار

الصحوة الإسلامية

خيوط المستقبل